أقاصيص من الهند

ترجمة

خليل جرجس خليل

دراسة وتقديم

عباس محمود العقاد

الكتاب: أقاصيص من الهند

ترجمة : خليل جرجس خليل

دراسة وتقديم : عباس محمود العقاد

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

فزوخ ، د. عمر

أقاصيص من الهند / ترجمة :خليل جرجس خليل ، دراسة وتقديم : عباس محمود العقاد – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٣٢ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٧٨١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٦٦٥ / ٢٠١٨

أقاصيص من الهند





دراسة وتقديم

يندر أن تعرف أمة عظيمة من عشرين قصة صغيرة كما تعرف الهند من هذه القصص العشرين، التي تبتديء القصة منها وتنتهي في بضع صفحات.

لأن القصة الصغيرة كما يكتبها الغربيون اليوم، تدور على غرض أو غرضين لا يستوعبان أحوال الأمة في جملتها، فهي في الغالب صورة خاطئة لحالة عارضة أو تخطيط سريع لملامح وجه عابر بين الوجوه الكثيرة، والقصة التي تدور على غرض من هذين الغرضين تتشابه في البلاد المختلفة، ولا تبلغ مبلغها من الدلالة الوافية على الأمة التي يكتب فيها إلا إذا اجتمع منها عشرات ومئات في حيز واحد. ففي هذه الحالة تتعدد الملامح وتتكاثر الوجوه حتى تحيط بأحوال الأمة في جملتها، وتعطي القاريء أشتاتاً من الصور المتفرقة التي تجتمع في البيئة الواحدة، ولا سيما التي تطوي جوانحها على أمة كبيرة.

أما عشر حالات، أو عشرون حالة، يتناولها القصاص عرضاً من هنا وهناك، فهي لا تكفي لتصوير أمة كاملة، ولعلها تتكرر في كل أمة على نحو متقارب يشاهده من شاء في إحدى الأمم كما يشاهده في جاراتها أو في الأمم البعيدة عنها ، وليست كذلك هذه القصص العشرون ، فهذه القصص العشرون لا تحتاج في مجموعها من غير الهند الخالدة، ولا

تستطيع من بيئة إلى بيئة ولو غيرت ما فيها من أسماء المواقع وعناوين العادات، بل نحسب أن نقل قصة واحدة منها إلى بيئة أخرى أعسر من نقل مجموعة قصصية واسعة تكتب في أمة فتنسب غلى أمة أخرى.

لم كان هذا الفارق القصة الصغيرة وبين القصص الصغيرة في الأمم المعاصرة التي تكثر منها بجميع الأساليب وعلى مختلف الألوان؟

نحسب أن السبب الأكبر يرجع إلى طبيعة الأمة، وأن السبب الذي يليه يرجع إلى عراقة القصة في الآداب الهندية.

فالهند في تاريخها الطويل قد عالجت مشكلة الوجود العظمى، وجعلتها في الطليعة بين مسائل العقيدة ومسائل المجتمع ومسائل الوجدانية والناحية الاجتماعية، ومن ناحية الحياة الخاصة، حتى غلب طابعها كل طابع تبرزه الصبغة المحلية أو الصبغة الشخصية في كاتب من الكتاب أو أثر من آثار الكتابة.

أما عراقة القصة في الآداب الهندية فهي من تواريخ الأدب المفروغ منها.. فليس أقدم من الملاحم الهندية المنظومة أو المنثورة التي تروي لنا حوادث البطولة المشتركة بين الأرباب والبشر، وليس أنضج من قصص الهند الصغار التي تساق في قالب المواعظ أو تروى للتسلية وتزجية الفراغ.

ونحن قراء العربية نعلم أن كتاب «كليلة ودمنة»من أدب الهند، وأن «شهرزاد» رواية «ألف ليلة وليلة» قد استعارت بعض لياليها من

الهند عن طريق اللغة الفارسية، وأن نوادرنا التي سمعناها في طفولتنا لا تخلو من مسحة هندية، لا نستغرب أن تتسرب إلينا من البلاد التي عرفنا أرقامها وعرفنا أبازيرها، وعرفنا أنها مصدر «المهند» و«الزنجبيل». ويخيل إلينا أن العبقرية الهندية التي أوحت إلى شهرزاد ما أوحت من قصص «ألف ليلة وليلة»، لا تزال باقية على عهدها كما كانت قبل عشرات القرون.

ففي هذه المجموعة قصة باسم «الأخوات السبع» تطرح بها في غمار الليالي فنجد لها مكاناً في كل سلسلة من طرائف شهرزاد التي تلقيها قبل كل صباح.

ومتى كان فن القصة بهذه العراقة في آداب الأمة، فليس من السهل أن تتجرد القصة الكبيرة أو الصغيرة من طابعها الملازم لها في أجيالها المتعاقبة، وليس من العسير على الكاتب الهندي أن يروي قصته – بالغة ما بلغت من القصر – فيتمكن بفطرته من تضمينها تلك الأغراض الكبيرة، التي لا تنقاد لكتاب القصص الصغار في الأمم الأخرى بهذه السهولة.

وكل قصة من هذه القصص العشرين كان يكفي القاريء منها – على حسب قواعد هذا الفن – أن يلمح على جناح السرعة وجهاً مخططاً في موقف من المواقف العاجلة، فلا يميزه بشخصية مستقلة ولا يربطه بمشكلة من المشاكل الاجتماعية أو مشاكل الوجود العظمى التي نحسبها من مشاكل الإنسانية الخالدة.

إلا أنك تقرأ القصة الصغيرة فتأخذ منها فوق الكفاية من مثيلاتها في اللغات الغربية.نقرأها فنعرف منها «شخصية إنسانية» مميزة بملامحها الواضحة، غير مقصورة على الخطوط الغامضة في زحام الصور والأشباح.

وتقرأها فتلم منها بمشكلة اجتماعية من مشاكل الأسرة أو مشاكل الرزق، أو مشاكل الاختلاف بين العرف القديم ومطالب العصر الحديث.

وقد تقرأها فتلم منها بجانب من جوانب الصراع الدائم بين الخير والشر، أوبين الشرف والندالة، أو التدبير والمصادفة في تسيير مقادير الأحياء.

ومهما يكن من تشاؤم الكاتب وإغراقه في تمثيل الشرور المطبقة على بني آدم وحواء – أو على بناتها – بصفة خاصة، فإنك لتراه في زاوية من الزوايا المطوية مؤمناً بوجود الخير بين طوايا النفس البشرية، مشتداً في تزويدها بعدد المقاومة والثبات في وجه الرذيلة وغوايتها، منتهياً إلى نهاية قد تكون فيها الهزيمة للشرف، كما نرى في قصة «أقوى من الشرف»، واضطرار بطلتها إلى التسليم بعد حين لضرورات العوز والجوع، ولكن المقاومة هنا أدل على وجود الخير من ذلك الانتصار الذي يحرزه الشرف بغير عراك، وبغير فضل للشرفاء والشريفات على الأدنياء والدنيئات.

***

وفي قصة «ثمن السعادة» سلم الكاتب بطلته للغواية السهلة فتترك زوجها ويتركها بغير داع ذي بال فرض عليها ضرورة الانفصال، ولكنها إذا عاد إلى اللقاء، كان هو ضريراً لا يطلبها ولا يبحث عنها، وكانت هي امرأة مطرودة مشردة يوشك أن يصبها الندم بجنون لا يشفى، فتعود إليه راضية بجزاء العطف عليه والتكفير عن هجرته بالسهر على خدمته، ويتقبلها هو إشفاقاً عليها من دنس الابتذال وبلاء الجنون.

وفي إحدى هذه القصص يجري الكاتب مع الواقع فيرينا أن الطفل الذي نلقبه بالملك الطاهر قد يسرق، وأن طفلاً مثله نلقبه بالملك الطاهر قد يقسو ويلعب بالقسوة، وأن الحسان «الملائكيات» قد يقع بينهن من الغدر والمكيدة ما يغبطهن عليه الشياطين.. لكن هذا الكاتب الممعن في الواقعية يرينا الواقع كما هو، ولا يرينا إياه شراً محضاً و لا ألماً صرفاً ولا ظلماً مستعصياً على الإنصاف.

ففي أقصوصة «كيد النساء» هذه، طفلة يغريها جمال الدمية الساحرة فتسرقها من زميلتها الغنية، وتلاحقها الزميلة الغنية – هي وصويحباتها العزيزات – بصيحات التعبير والتشهير، ثم يضرب الزمن بينهما بضرباته فتلتقيان بعد حين على غير علم منهما غريمتين متنافستين على حب فتى من أقارب الفتاة الغنية ومن زملاء الفتاة الكاتبة، وتفطن القريبة لما بين الفتى والفتاة من المودة التي تشبه الحب والغزل، فتخطر لها قصة السرقة القديمة وتسائل نفسها: «ما بال هذه السرقة المنسية لا تعاد في صورة منقحة على حسب اختلاف السن والمناسبة».

وتسقط خاتمها النفيس في حقيبة غرمتها الزائرة، ثم تكتشفه على مشهد من الزائرات المتأففات. ثم يكتشف الفتى حقيقة «المؤامرة» فيلتفت إلى الموقف الذي خلقه هو على غير قصد منه، فإذا هو يهتدي – قاصداً هذه المرة – إلى المخرج العادل من ذلك الموقف الظالم، وتنتهي القصة في غير تعسف ولا تلفيق من المؤلف إلى انتصار الفتاة البريئة وهزيمة الفتاة الماكرة، كما حدث في الواقع كثيراً من الأحيان.

***

وفي قصة أخرى يجري المؤلف كذلك مع الواقع فيأتي بالشر على يد إنسان لطيف، ويأتي بالخير على يد حيوان طريد حقيق بالانتقام. ومدار القصة على قردة يعني بها صاحب الدار وتغار منها صاحبة الدار، فتشردها في الجبال خلال نزهة عند سفوح الهملايا... وتهب العاصفة والزوجان في دار من دور الصور المتحركة لا يؤذن فيها بدخول الأطفال الرضع...

ويهرول الأبوان الوجلان إلى الخيمة في سفح الجبل فإذا هي ذاهبة مع المطر والريح. وينظران في يأس وفزع فإذا بالقردة مقبلة من بعض الكهوف وبين ذراعيها صديقتها الطفلة الناجية، التي أنقذتها حيوانة غلب على نفسها عرفان الجميل وألفة العشرة على شراسة الغضب وحب الانتقام.

وربما انطلق المؤلف مع شرور الحياة إلى غاية ما تنطلق إليه، كما نرى في قصة «ابن السكير» وقصة الراعي والراعية.

فابن السكير يقتله أبوه بضربة طائشة لأنه ذهب إلى المدرسة فكان ذهابه إليها تنبيهاً للغافلين من شياطين التلاميذ إلى مطاردة السكير نفسه وإزعاجه من سكرته بصيحات: ابن السكير!.. ابن السكير!.

***

وفي القصة الأخرى يحب فتى راع فتاة راعية ويلقاها بعد فترة طويلة فيهرب منهما جدي من الجداء وهما يتناجان في غفلة من القطيع، ويعلم الفتى عقاب الراعية التي تغفل عن قطيعها فيهرول وراء الجدي الهارب ويهوي معه إلى القاع جثتين مهشمتين!

غاية الشر الذي يبتلي به الإنسان من صروف هذه الحياة، ولكنه شر لا يعلمنا أن الحياة كلها بلاء ولا أنها بلاء في غير معنى... لأننا لا نخرج بغير معنى من قصة يبوء منها السكير بتلك الوصمة بل تلك اللعنة، ولا نخرج بغير معنى من قصة تتسابق فيها التضحية والشهوة والموت والجشع، فتتقدم التضحية بينها إلى مكان الطليعة السابقة بغير عناء وبغير كلفة وبغير تلفيق.

وقد يرد على الخاطر أن هذه المشكلات النفسية أو الاجتماعية تقحم على القصة إقحاماً لا يجيزه سباق الحادث ولا حكم الفن في موضوع هذه الأقاصيص الصغار.

إلا أن الواقع أيضاً أنك تقرأ الأقصوصة فلا تلمح فيها إقحاماً ولا اعتسافاً لحادث من الحوادث ولا لعظة من العظات، بل تعرف الحادث من سياق الحوار أو من إشارات الحديث، وتغنيك إجادة الكاتب في حبك القصة عن فضول القول أو عن تكلف العظة والاعتبار في غير موضعه، وتحب أن تحاسبه على شيء من مخالفة الواقع في سبيل الحبكة أو في سبيل الموعظة أو في سبيل التأثير والتهويل فلا تستطيع، لأن الواقع الذي نشاهده أمامنا يرينا الكثير من أمثال هذه الحوادث خالصة في لبابها من شوائب التأليف أو شوائب التلفيق والتكلف.

وأصدق ما يقال عن هذه الأقاصيص العشرين أنها – مع إتقان الفن – قد أفلحت في تصوير النفس البشرية وتصوير البيئة الهندية. فهي في أسلوب الأقصوصة تجاري أحسن الأساليب الماثورة في الآداب العالمية، وهي بعد هذا صورة صادقة من الواقع في الهند، وفي نفس الإنسان،وإذا كان من الجائز في بعض الوقائع المشاهدة أن نقول عنها أنها غريبة نادرة وأنها لا تجري مع المألوف ف جميع الأحوال، فلا شك أنه من الجائز أيضاً أن يقال عن القصة المألوفة أنها خضعت لمشيئة المؤلف بعض الشيء في محاولة التأثير أو الإقناع، وأنه قد احتال على الحادثة حتى جرت على هواه وفقاً لمارآه.. ولكنه إذا كان لابد من هذا في كل تأليف، فإنه لخير مائة مرة أن يحتال المؤلف لإنبات ما في الحياة من الجد والخير والمعنى، ولا يحتال مثل هذا الاحتيال لتجريدها من كل خير ومن كل معنى، وأبرزها في صورة من التفاهة لا يصدقها إلا من يريد تصديقها، وكذلك يفعل الكثيرون من كتاب الغرب في هذه الأيام، وكذلك يبدو

حتى في القصة الصغيرة أن الحياة والخلود في ضمائر أبناء الشرق العريق شعبتان لا تفترقان.

عباس محمود العقاد

هذه الأقاصيص

أرجو ألا أكون مخطئاً أو مخالفاً للواقع إذا قلت، أن الاتجاه إلى ترجمة القصة الصغيرة أو الطويلة من الآداب الهندية الحديثة إلى اللغة العربية اتجاه جديد، لا عهد لتراثنا العربي به من قبل.. فاتجاهنا – في الحاضر – هو في الأغلب الأعم إلى أوروبا وإلى الغرب، ننقل من هناك قصصاً وروايات لا حصر لها عن الانجليزية أو الفرنسية، وفي الماضي، ربما نقل إلى لغة العرب شيء من المعارف الرومانية والفارسية، ولكن لا يذكر التاريخ الأدبي كله إلا آحاداً فقط، عنواً – في ميدان القصة – بنقل بعض الآثار التي ترجع إلى أصل هندي بعيد، ككتاب «ألف ليلة وليلة»، وهو مجموعة أساطير من مصادر وأماكن مختلفة، والجزء المهم من الكتاب – كما يقال – مقتبس من كتاب فارسي عنوانه «هزار أفسانه» – أي ألف أسطورة – وأكثر قصص هذه الليالي منقول من أصل هندي، فهي في مصدرها ومجموعها هندية فارسية، وفي إضافتها المستحدثة بغدادية ومصرية، وإن كانت هناك قصص من نوعها هندية بحتة وأكثر أصالة، يضمها كتاب باللغة السنسكرتية يسمى «شوكاً سابتاني»، أي قصص الببغاء السبعون، وقد أوردنا نماذج منها في بعض أعداد «صوت الشرق».

وكتاب «دليلة ودمنة» الذي قيل أن عبد الله بن المقفع نقله عن الفارسية في العصر العباسي الأول، وهو سرد قصصي ممتع يسوق

الحكمة والعبرة والمثل الطيب والموعظة الحسنة، ويدور الحوار والرواية فيه على ألسنة الطير والحيوان، تجنباً للتعرض للسلطان أو سيرة الإنسان. ولو امتدت بنا محاولة التقصي لأمكن القول بأن حكايات كليلة ودمنة تعود في الأصل إلى كتاب هندي بالسنسكريتية ذي شعبية واسعة، يسمى «البنيا كاتنترا»، أي الكتب الخمسة، وهي قصص نثرية مرصعة بالحكم والأمثال والنصائح، وأبطالها الرئيسية حيوانات تختلط بكائنات بشرية.

ثم قصة يتيمة هندية يقال أن الجاحظ نقلها عن أصل هندي، بجانب ما نقله عن اللغة الفارسية.. وهذا الجدب في القصة المترجمة ملحوظ، مع أن التبادل الثقافي والتجاري كان قائماً بين الهند والعراق والشام واليمن وسائر بلاد العرب في العهد الأموي، والعهد العباسي، منذ أن فتح السلطان قطب الدين أبيك «دهلي» الهندية سنة ٥٨٩ هـ، وظهر «البيروني» يؤلف بالعربية من علوم هندية، و«ابن بطوطة» يكتب عن جولاته في الهند، وخضعت بلاد السند والهند لحكم المغول الوافدين من أواسط آسيا، وهم من أصل تركي أو أفغاني، لكنهم كانوا مصلحين يحتضنون القرآن ويحترمون لغته بجانب اللغة الفارسية.. فتيمور لنك قد أسلم، وبابر وهومايون والملك أكبر، ثم جهانجير وشاهجهان واورنجريب كانوا جميعاً مسلمين غيورين، بعكس المغول الذين أغاروا على البلاد العربية، إذ كانوا مستعمرين مخربين مفسدين فهولاكو وجانكيز خان كانا غير مسلمين.

أما المحاولات الحديثة للترجمة، فهي بالنسبة للقصة تكاد تكون في بداية البداية، فنحن لا نجد سوى بضع أساطير، أو بعض قصص لتاجور. أما الترجمة بعامة عن الآداب الهندية فيمكن أن نذكر هنا بكل تقدير عملاً أدبياً جليلاً قام به العلامة الشاعر اللبنان الكبير المعروف وديع فارس البستاني، الذي عنى بنقل بعض آثار الأدب الهندي القديم إلى العربية، كما عنيت أسرة البستاني من قبل بنقل الإلياذا والأوديسا. وقد شخص وديع البستاني إلى الهند وأقام هناك فترة طويلة، ودرس بعض لغات هذا الأثر الأصيلة، وأولها السنسكريتية، واتصل بكبار العارفين بهذا التراث وتلقى عنهم كثيراً من الإيضاحات، ثم انكب على هذه الآثار ونقلها إلى العربية شعرًا، ومن أظهرها مختارات من ملحمة «المهابهارات» Mahabharata تبلغ نحو ٢٠ ألف بيت من الشعر. وقد ظهر جانب كبير منها في كتاب ضخم مطبوع، وكذلك أعد مترجمات أخرى بجانبه، بعضها منشور والبعض لم ير بعد النور.. وكرمته حكومة لبنان فمنحته وسام الاستحقاق اللبناني المذهب، وقدرت حكومة الهند جهوده، فاشترت في أغسطس عام ١٩٥٤ – العام الذي توفى فيه – الأصول العربية لمترجماته عن الآداب الهندية، ومنها المهابهارات، مقابل عشرة آلاف جنيه مصري، وهي مكافأة تضارع جائزة نوبل نفسها، التي تتراوح بين ثمانية آلاف جنيه وأربعة عشر ألفاً.

وكذلك نذكر الأديب والشاعر المتمكن محمد طاهر الجبلاوي، الذي ترجم الكثير من مؤلفات شاعر الهند الكبير رابندرانات تاجور،

والأستاذ محمد بدر الدين خليل الذي ترجم للشاعر نفسه قصته الطويلة The wreck.

أريد أن أخلص من هذا إلى أن حركة الترجمة الحديثة مع اتساعها وقوتها عندنا، لم تتضمن نقل نماذج من «القصص الهندية»

هل نستطيع أن نعلل لذلك بالأسباب التي جعلت كتابنا يعنون بالنقل عن الغرب، وينصرفون عن الاتجاه شرقاً ليقدموا للقاريء العربي نماذج من التراث الهندي؟.

إنه ليس من المقبول أن نقول، أن المترجمين قد فاضلوا بين النماذج الهندية وبين غيرها ففضلوا النماذج الأخرى عليها، فهم لم يطلعوا أصلاً على النتاج الهندي، ولا كان هذا النتاج من قراءاتهم ولا في برامجهم.. فلنحاول أن نتعرف على الأسباب الحقيقية وإليكم أهمها في رأينا:

* بعد الشقة بين شبه القارة الهندية وبين بلادنا، فإن الهند تبعد عن الحدود العربية بآلاف الأميال، والسفر غرباً أيسر وأقرب من السفر شرقاً حتى الهند، وأقل نفقات ومشقة، فالمسافة بالطائرة من هنا إلى بومباي تستغرف عشر ساعات، وبالباخرة عشرة أيام والوارد من الهند من أفراد أو من كتب محدود أيضاً، وكذلك الاختلاط.

* غلبة الثقافة الأوروبية والغربية في إنتاجنا وأعمالنا الأدبية، بسبب الاستعمار الغربي الانجليزي والفرنسي الذي لم تقلص ظله في بلادنا إلا

من عهد قريب، وعدم إلمام المترجمين بغير اللغتين الإنجليزية والفرنسية في الغالب.

* توهم حائل ممنيع بيننا وبين المؤلفات الهندية، فإن أكثر الكتاب المترجمين يتخيلون أن الهند تستخدم لغات خاصة بأبنائها وحدهم، كالسنسكرتية اللغة الكلاسيكية القديمة، والهندية التي لم تدرس عندنا، والأوردية التي هي خليط من الفارسية والعربية والهندية ولم تخرج عن حدود الهند وباكستان، ولا يعرفها أو يستطيع أن يترجم عنها من لا يعرف لغة شرقية غير الفارسية والعربية، مع قربها من العربية.

غير أن مفتاح هذا الإشكال في يد كل من يبحث ويحاول. فاللغة الانجليزية هي قبلة أنظار المترجمين عندنا، والأداة المشجعة لهم على نقل آثار الغرب.. هذه اللغة موجودة أيضاً في الشرق، وفي الهند بالذات. وهي لغة المثقفين، وأكثر المؤلفين يتقنونها ويكتبون بها، وأحياناً ينقلون إليها آثارهم بأقلامهم، بعد تأليفها بلغاتهم الأصلية، كما فعل تاجور وغيره.

وهم يحرصون على ذلك لعلمهم أن الاقتصار في التأليف على اللغة المحلية للولاية أو المقاطعة لا يكفل للإنتاج الانتشار والرواج في الولايات والمقاطعات الأخرى، وبغية الكاتب وهو يؤلف كتاباً، أن يوصل أفكاره وآرائه إلى أكبر عدد من المثقفين إن لم يكن في أكثر بقاع الأرض ففي أكثر بقاع وطنه. واللغة الانجليزية هي اللغة الرسمية للتفاهم والكتابة منذ أمد بعيد ولعشر سنوات أخرى قادمة، كما نص على ذلك

الدستور الهندي في عهد الاستقلال، ففي خلال عشرين سنة من قيام هذا الدستور، ستتهيأ فترة انتقال إلى اللغة الوطنية الأولى، وهي «الهندية».

هناك إذن سبيل ممهد للترجمة لا يختلف عن سبيل المترجم الآن إلى نقل النماذج التي عرف طريقها وعرف طريقتها، وما عليه إلا أن يتخير المؤلفات التي تروقه وينقلها إلى اللغة العربية عن اللغة نفسها التي يألفها، وهي الانجليزية.

وحقيقة أن الهند العظيمة، التي نريد أن نتجه إليها ونغترف من آدابها بما تحويه هذه الآداب من طرافة وثقافة وغنى وأصالة، لها لغاتها الخاصة بها، وإذاكان الانجليز والأمريكيون مثلاً يستخدمون اللغة الانجليزية، والإيطاليون اللغة الإيطالية، والسويسريون والفرنسيون اللغة الفرنسية، وهكذا.. فإن أبناء الاتحاد الهندي يستخدمون لغات عديدة، لاتساع رقعة الأراضي وكثرة السكان، وعراقة تاريخها وقدم حضارتها، وتعاور الحكم والحاكمين من الخارج عليها في جميع العصور، ولذلك فإن كل ولاية أو مقاطعة لها لغتها الخاصة بها، ولهجاتها المنوعة.

ويقول أستاذ اللغات الهندية كلكتا في الهند، دكتور شاترجي، أن عدد اللغات الهندية يصل إلى ١٧٩ لغة، وعدد اللهجات ٥٤٤، غير أن الدستور الهندي حدد اللغات الرسمية بأربعة عشر لغة فقط، وهذه اللغات هي:

الأسامية. البنغالية. الكوجراتية. الهندية. الكنادية. الكشميرية. الماراتية. الأورية. البنجابية. السنسكريتية. التاميلية. التيلوجي. الأوردو.

ويمكن أن نورد من هذه اللغات أكثرها انتشاراً واستعمالاً، وهي: الهندية – اللغة القومية المقترحة – ثم البنغالية، لغة تاجور، والأوردو – لغة مسلمي الهند وباكستان – والتاميلية، لغة أكثر من عشرين مليون نسمة في جنوب الهند.

ولم نذكر هنا الانجليزية – والوضع بالنسبة لهذه اللغة قد عرفناه – ولا العربية التي يستخدم المسلمون بدلاً منها اللغة الأوردية، ومع ذلك فإن لغة القرآن لها شأن لدى أكثر من أربعين مليوناً هم جملة المسلمين في الهند، والمدارس والمعاهد الإسلامية تدرس هذه اللغة لطلابها، ومن الأزهر والمؤتمر الإسلامي وغيرهما توفد البعوث إلى هناك للقيام على تدريسها. ومن أشهر هذه المعاهد «دار العلوم» في مدينة ديوبند، وجامعة عليكرة، و«ندوة العلماء» في لكنو، و«مزاهر الإسلام» في سهارانبور، وبعض أقسام جامعة كلكتا. ومن أعلام اللغة المسلمين المغفور له مولانا أبو المكارم أزاد وزير المعارف السابق في الهند، وهومايون كبير وزير الثقافة، والدكتور سيد محمود الوزير بوزارة الخارجية، وسير سيد أحمد خان مدير جامعة عليكرة السابق، والدكتور ذاكر حسين وغيرهم.. وهناك في «باتنا» بولاية بيهار الهندية مكتبة عامة كبرى تضم أروع وأندر مجموعة في العالم للكتب العربية والفارسية.

***

أما أعلام القصة والأدب الحديث في هذه اللغات، فمن بينهم في الأدب البنغالي: «راجا رام موهان»، و«سارات شاندرا تشاترجي» Sarat Chandra Chatterjee ورابندرانات تاجور الذيكان يؤلف وينتج في القصة والأغاني والشعر بالبنغالية والانجليزية، وشاتو بادياي في القصة.

في لغة البنجاب: بهاي فير سنج في ألوان الأدب والقصة، وناناك سنج الروائي المعاصر الناجح.

وفي اللغة الأوردية: رتن ناته سرشار، الذي ظهر في ميدان القصة في أواخر القرن التاسع عشر، والروائي والصحفي والمؤرخ عبد الحليم شرر، والعملاق بريم شاند Premchand من أعلام الأقصوصة والقصة الحديثة، وهو يؤلف بالهندية والأوردية والانجليزية أيضاً، ومن أشهر قصصه القصيرة: «حفنة قمح وقصص أخرى» A handful of wheat & other stories، و«هالي»، و«كريشون تشاندرا» Krishen Chandra والسيدتان «عصمت جفتاي» و«صالحة عابد حسين»، و«خواجة أحمد عباس» Khawaja Ahmed Abbas صاحبة الرواية الخالدة «إنقلاب»، التي تصور الكفاح القومي في الهند بأسلوب رائع، والتي ترجمت إلى اللغتين الانجليزية والروسية.

وفي الانجليزية: ملك راج أناند Mulk Raj Anand

وفي السنسكريتية: الروائي ماها لنجا شاستري، من مدارس.

ولولا أننا نقصر حديثناعلى موضوع القصة فقط، لذكرنا – فضلاً عن رابندرانات تاجور – كبار الشعراء والساسة، وفي مقدمتهم المهاتما غاندي في كتاباته السياسية التي تشبه لغة أسفار الأناجيل الانجليزية الحديثة، في بساطتها واستقامتها وقوتها، وجواهر لآل نهرو في كتاباته المشرقة الواضحة، التي تجعله من أبرع كتاب النثر في العصر الحديث، وشري أوروبندو صاحب المؤلفات العظيمة، وساروجيني نايدو صاحبة الشعر الغنائي من النسق العالي والطراز الأول، ودكتور رادها كريشنان في مؤلفاته الفلسفية والأدبية، وراجاجو بالاتشاري أول حاكم عام للهند ورئيس حكومة مدارس، وهو مؤلف قيل عنه أنه يستطيع أن يقدم فكرته وآرائه في أوجز عبارة وأوضح أسلوب وأعذب سياق. وقد اخترنا له ضمن هذه الأقاصيص قصة إنسانية رائعة، وسر روعتها أنها أقصوصة شعبية استطاع كاتبها وهو بهذه الدرجة من الرفعة أن يتغلغل بقلبه وبذهنه ووجدانه في بيئات الشعب، ويحس بإحساسهم ويترجم خواطرهم ويصور مشكلاتهم أبرع تصوير وأصدقه!.

وفيلسوف الهند وشاعرها وأديبها الأكبر «تاجور» يعد أدبه صورة مشرقة لآداب البنغال والهند كلها، وهو أول أديب شرقي يظفر بجائزة نوبل، وقد ولد في كلكتا يوم ٦ مايو من عام ١٨٦١ وتوفى في ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ عن ٨١ عاماً، وحصل العلم في الهند وفي انجلترا. وأول انتاجه المشهور جمع في مجلد باسم «جيتا نجالي» أو قربان الأغاني، وهو يتكون من مختارات من أشعاره الأولى المتفرقة في

عدة كتب، وعن هذا الكتاب استحق الشاعر جائزة نوبل في الآداب عام ١٩١٣.

وأشعار تاجور وتمثيلياته الشعرية في لغته الأصلية تبلغ نحو ١٥٠ ألف بيت، أما مقالاته الفلسفية ورواياته وقصصه القصيرة، ومقالاته في النقد والتراجم الذاتية فتبلغ نحو ضعف هذا القدر. وتبلغ مقطوعاته التي أعدت للغناء ويستمع إليها المستمعون إلى الآن من ١،٥٠٠ أغنية.

وإذا عرجنا على مؤلفات المؤلفين ونماذجهم في القصة وغيرها فقد لا نستطيع حصرها، ولكنني أجتزىء بأن أورد هنا أسماء بعض المؤلفات الفائزة بجائزة «أكاديمية ساهيتا»، بوصفها أفضل الكتب الأدبية التي ظهرت خلال السنوات من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦ بعد أن اجتمع مجلس الأكاديمية في السنة التالية برياسة شري جواهر لال نهرو وأصدر أحكامه وهي:

في اللغة البنغالية: بريمندرا مترا Premendra **عن كتاب «ساجار تهيك بهيرا».**

في اللغة الهندية: فاز المرحوم أشاريا نارندا ديفا Acharya Narendradeva.

في اللغة المالايالامية: تاكازي سيفاسنكار بيلاي عن روايته شمين.

في اللغة التلوجية: شيرانتاناندا سوامي عن كتابه «حياة راما كريشنا».

ونحن نكتفي بهذه الأمثلة الرسمية الرمزية حتى لا نخطيء في الاختيار.

***

هذه المجموعة من الأقاصيص يمكن إذن أن تعد أول محاولة جادة لنقل القصص الهندية الصغار أو القصار إلى اللغة العربية.. القصص التي روع فيها أن تكون أصيلة تدل دلالة فنية واضحة على طابعها الهندي، كما تبين ذلك أستاذنا العقاد في دراسته لهذه المجموعة، وأن تكون متناسقة متآلفة لا متنافرة ولا مختلطة، وأن تكون أقرب ما يستطاع إلى أصلها وطابعها باحتفاظها بروعة الأصل وفنية السياق وبراعة الحوار، وبكونها غير مبسترة ولا محرفة، بحيث تخدم في مجموعها غرضاً واحداً: هو الامتاع الأدبي، وتجتمع حول غاية واحدة: هي الفكرة الإنسانية.

وليس ليكمترجم فضل كبير في شيء من ذلك، بل الفضل للظروف التي ساقتني إلى وظيفتي الصحفية وعملي الأدبي، في مجلة «صوت الشرق» الثقافية منذ أكثر من سبع سنوات، وساقت إلى مكتبة حافلة بالكتب والصحف والمراجع، أكثر الوارد إليها من «الهند». وقد كنت بطبيعتي كشاعر، أضن بوقتي في بداية الأمر على قراءة القصص العربية

أو الأجنبية، وربما قرأت لمارك توين أو ثورن سميث أو برنارد شو فأعجبت بمؤلفاتهم ورواياتهم الممتعة، ولكنني قلما تجاوزت آفاقهم..

إلى أن فكرت في أن أجعل من بين مطالعاتي، بعض نماذج القصة الهندية، فإذا بي أفاجئ بلون باهر من الأدب لا عهد لي به من قبل، ودنيا واسعة تحفل بالنماذج الحية الأخاذة التي تستهوي اللب وتستأثر بالحب، وإذا بي أعتزم أن أورد هذه المجاهل الطريفة غير وان ولا متمهل، وأن أجعل مهمة نقل هذه النماذج القصصية من بين مترجماتي ومختاراتي فضلاً عن مطالعاتي!.

قرأت القصة الهندية القصيرة في عدد وافر من المصادر المشهورة باللغة الانجليزية.. منها الصحف ومنها الكتب. والقصة المنشورة هي إما مؤلفة في الأصل بهذه اللغة كما يفعل «ملك راج أناند» و«بريم شاند»، وإما منقولة عن لغة المؤلف إلى الانجليزية بقلمه كما فعل تاجور في بعض مؤلفاته مثل رواية «تشيترا» ومجموعته الشعرية «جيتا نجالي»، وإما منقولة من اللغة المحلية الأصلية إلى الانجليزية بقلم أحد الكتاب أو الأدباء، تماماً كما نفعل نحن عند الترجمة من الفرنسية أو الانجليزية إلى العربية. وفي جميع الحالات لم أحس أن قصة ما من هذه القصص قد فقدت روعة الأصل أو نقصت خصائصها الفنية.

والسمة الواضحة في هذا العمل، أنني قد كان لي حرية التخير وفرصة التذوق والرفض والانتقاء، كما يفعل البستاني عند جني الثمار، أو الشاري عند سلال الفاكهة، أو الطاعم أمام المائدة الحافلة، الذي يأخذ

الناضج ويدع الفج، أو يتناول ما لذ وطاب ويتجاوز عن سواه من الطعام والشراب.. وقد تستطيع أنت أيها القاريء أن تقارن وتحكم، بين مترجم يقع في يده كتاب أو كتابان فلا يرى معدى عن الاكتفاء بهما أو نقل أحدهما، وبين مترجم مثلي يقرأ القصة في الملحق الأدبي كل يوم أحد للجريدة الهندية اليومية المسماة «ذي تايمز أوف إنديا»، وفي مجلة الأحد لجريدة «ذي هندوستان تايمز»، أو في المجلة الكبرى «اللستريتد ويكلي أوف إنديا» Illustrated Weekly Of India، أو المجلة الشهرية الثقافية «كارافان» Caravan، أو كتب تاجور وبريم شاند وملك راج أناند ونارايان القصصية، وداس جوبتا صاحب «شاكونتالا».. ولا يتخير مع ذلك – من هذا كله – سوى قصة واحدة أو قصتين طوال الشهر، ويقدم بعضه لقراء مجلة «صوت الشرق»، التي عدت ذلك فتحاً وتخصصاً وسبقاً لا عهد للصحف العربية الأخرى به.

أما الأسلوب والأداة، وهما العمدة والأساس في نقل الآثار الأدبية نقلاً أميناً متقناً، فليأذن لي القاريء الفاضل أن أذكر للحقيقة وحدها، أني لم أقصر في شيء منها، وأني كنت قادراً على ذلك ومهيأ له، فقد كان هذا من طبيعة عملي الأدبي والأساسي.. ومع ذلك فإني أترك الحكم للقاريء المثقف الذواقة ليحكم بنفسه. وإني مطمئن سلفاً إلى حكمه لمعرفتي بقارئي ومعرفته بي، ولأني أعلم عن ذات نفسي أنني لا أكتب أو أنقل في أي وقت إلا بمزاج ورغبة، ولا أتخذ الترجمة أو العريب تجارة وحرفة، بل هواية وفناً جميلاً تام الحسن والبهاء والرواء. والترجمة الأدبية فن، وفن أصيل!.

وقد أغرى نجاح هذه القصص عند نشرها لأول مرة، وصداها البعيد في نفوس القراء – أغرى صديقنا الناشر المحترم بأن يقدم منها هذه المجموعة في كتاب لا عهد للمكتبة العربية بمثله من قبل، وستتلوها كتب أخرى تحمل ثمرات من هذه الثروة الأدبية المذخورة في الشرق، بعد أن طال اتجاهنا إلى الغرب، ووقوفنا عند أدب الغرب.

وسيرى القارىء أن السمات الروحانية والمعاني الإنسانية، والشمائل والفضائل التي تتوافر في ثنايا هذه الأقاصيص، إنما تجعل منها نموذجاً وفناً لن يعدل بهما – عند التجربة – شيئاً آخر، لأنها هي بهذه المزايا أقرب إلى ذوقه وهواه، وأدنى إلى قلبه وروحه.

لقد مررت قبله بهذه التجربة مرتين لا مرة واحدة: الأولى، عندما فتحت عيني وأنا صبي – أول ما فتحت على الكتاب الهندي المصدر «كليلة ودمنة»، واستهوتني حكاياته وأمثاله وحكمه وأنا بعد صغير، وأمي تقرأها علي وتفسرها لي، حتى أني التصقت بكلمة «بيدبا»، وهو اسم الفيلسوف الهندي الذي كان ينادم الملك «دبشليم» بالحديث والمحاورة والفتيا، واطلق زملائي الصغار هذا الاسم علي فعرفت به حتى بلغت مبلغ الشباب!

وأما الثانية، فكانت عندما رحت أتابع هذه القصص والنماذج في مراجعها في الكتب والمجلات، وأقرأ فيها لعدد كبير من مشاهير القصاصين في الهند، بمختلف أساليبهم وألوانهم التي عرفت أصلاً في لغاتهم المحلية، ونقلت بأمانة إلى الانجليزية، وانتهيت من ذلك إلى أن

هذا التراث الهندي في مجموعه وألوانه المتنوعة لا مثيل له من حيث القيمة والأصالة والتفوق.

وكما عرض الطفل عن لبن الرضاعة متى بلغ الفطام وتعود على الدسم من الطعام وتذوق حلاوته وعرف فائدته لبناء جسمه، فكذلك فعلت.. لأمتع روحي، وأعرضت عن كثير من الآداب الأخرى، واعترفت للألوان الأصيلة في الأدب الهندي بالامتياز والسمو، والإمتاع والإشباع.

خليل جرجس خليل

ربما كان الاختيار في هذا العالم أكثر عدداً من الأشرار، ولكن سلطانهم مع ذلك جد ضعيف وصوتهم غير جهير!.

أقوى من الشرف

بقلم: جاي راتان

اقترب المساء، وزحفت ظلمات الليل في أعقاب النهار، ووجدت «شيفالي» نفسها مرة أخرى منطرحة عند عتبة المطعم متعبة موجعة القدمين من طول السير في الطرقات على غير هدى!.. كان «مطعم جاناتا» هذا يقوم عند طرف أحد الأزقة المجاورة لمجلة «سيلدا» التابعة لمدينة كلكتا.. وكان أشبه بمقهى شعبي في بناء صغير متداع.

وكانت حركة المرور في الخارج على أشدها.. الشاة يتقاطرون على المحطة أو يغادرونها في أفواج متلاحقة.. ولكن «شفالي» ما كانت لتستطيع أن تلقي بالاً إلى ما كان يجري حولها.. كان جسمها متهالكاً كالخرقة المبللة، وفكرها مشتتاً بالخواطر الكئيبة كالدوامة الثائرة..

«شيفالي».. يا بؤسها.. لقد كانت بين الحين والحين ترفع رأسها، وترنو بناظرها إلى ما يدور بالمطعم، فتلتمع عيناها عندما تبصر صبياً وسيماً في نحو العاشرة من عمره يتنقل في خفة من مائدة إلى أخرى ملبياً طلبات الزبائن.. إنه.. «بادال» ابنها.. الذي قست عليه الأيام، ودفعته إلى مثل هذا العمل، وهو لم يزل في فجر حياته..

لقد جاء زوجها منذ يومين مهاجراً من شرقي باكستان إلى كلكتا.. وما كاد يضع قدميه خارج المحطة حتى صدمته سيارة قضت عليه.. ووجد الصبي هذا العمل في المطعم بينما راحت أمه تواصل بحثها عن عمل.. بلا أمل..

وكان «كاناي بابو» – صاحب المطعم – يجلس إلى مائدة صغيرة عند باب الدخول وعيناه إلى الجالسين على الموائد ليطمئن إلى تحقيق طلباتهم.. وكاناي رجل في منتصف العمر، ممتليء الجسم قليلاً، ذو شعر ناعم ممشط معطر.

وعندما اقتربت شيفالي من المكان، لمحها كاناي، ولكنه لم يتحدث إليها إلا بعد فترة من الوقت..

– شفالي... ها أنت قد عدت..

وأدارت شيفالي نفسها ونظرت إليه.. وبدا وجهها في الضوء الخافت مربداً مكدوداً، وعيناها متعبتين حزينتين..

وأجابت في صوت خافت:

– لم يكن لدي مكان آخر أقصد إليه!.

– لقد ظللت متغيبة منذ الصباح، حتى لقد ظننت أنك لست عائدة.. ظننت أنك ضللت الطريق أو .. أو أصبت في حادث سيارة كما حدث لزوجك..

وشعرت شيفالي عندئذ بما يشبه الطعنة النجلاء في صدرها إذ ذكرها الرجل الخبيث بفجيعتها في زوجها.

وتحاملت على نفسها وهي تقول له:

– ألا فاعلم يا كاماي بابو، أنه لولا طفلي لقتلت نفسي منذ اللحظة الأولى التي فقدت فيها عائلي.

ولكن كاناي عاد فانصرف عنها، إذ شغل بتسوية الحساب مع أحد الزبائن، وبعد أن مضى التفت إليها وقال:

– هل حالفك الحظ يا شيفالي اليوم؟.

وهزت شيفالي رأسها قائلة:

– كلا، إنها نفس القصة التي تحدث معي كل يوم!.

وقال لها في شماتة:

– ألم أقل لك؟!.. لا فائدة من تسكعك في الطرقات باحثة عن عمل، فلن تظفري به!.

– ربما كنت على حق يا كاناي.. يبدو أني لن أجد أحداً على استعداد لأن يقبل لاجئة لتعمل خادمة!.. كل واحد ينظر إليَّ من الزاوية السهلة.. لقد وجدت شخصين في فندق للنوم أبديا رغبتهما في قبولي للعمل عندهما، ولكني لم أسترح إلى نظراتهما..

وضحك «كاناي» وهو يقول في سخرية:

– ولماذا؟ أتراهما لو يوافقا مزاجك؟!.

وفي هذه اللحظة رأت ابنها الصبي «بادال» يهرول إليها ويبتسم لها في براءة..

وصاح بهكاناي:

– ماذا تفعل هنا؟ ألم تر السيد الجالس إلى المنضدة رقم ٣ وهو يصيح طالباً جرعة ماء؟!

وعندئذ عاد الصبي أدراجه مضطرباً.

وصمتت شيفالي برهة، ثم التفتت إلى «كاتاي» وقالت:

– لقد سمعت أنه يوجد هنا في المدينة معهد يعين النساء الفقيرات على إيجاد عمل مناسب لهن.. هل تعرف مكانه؟.

ونظر إليها الرجل نظرة حادة.. وقال لها:

– إذن أنت تريدين العون من المعهد؟! لا بأس، اذهبي واصنعي ما بدا لك، ولكن إذا سارت الأمور على غير ما كنت تنتظرين فلا تلومي إلا نفسك.. لا تقولي فيما بعد أني لم أحذرك.. يا شيفالي، إذا شئت الحقيقة المجردة فاعلمي أن مثل هذه الأماكن لا تخدم الناس لوجه الله.. إنها ليست خيراً من بيوت الرذيلة.. إن أولئك الأفراد المتخفين وراء أسماء الجمعيات الخيرية يركزون كل همهم في استدارج الساذجات البريئات إلى الفخ الذي ينصبونه لهن، وبعد أن يوقعوا بهن ويعتدوا عليهن، يلقون بهن إلى غيرهم، ويبيعونهن بيع السوائم!.. وإذا انزلقت

إلى تلك الحماة فلن تقوى على حماية نفسك بعد ذلك.. وسترين الآمال الزائفة البراقة تلمع قليلاً أمام عينيك وأنت تستنزفين شبابك شيئاً فشيئاً، ولن يتبقى لك بعد ذلك أي شيء.. حتى ولدك هذا لن تجديه فيما بعد!.

ونظرت إليه شيفالي في دهشة وقالت:

– أنت متأكد مما تقول؟!.

– متأكد؟ إذا كنت لا تصدقينني فجربي أنت بنفسك.. إنك مازلت ساذجة لا تدركين ما يرتكب في مدينة كبيرة مثل كلكتا... ولكني أعرفها جيداً.. إنني لست غريباً عنها.

وفكرت شيفالي قليلاً، ثم عادت تقول:

– عندكم في هذه المدينة مائة مصنع للجوت، وقد سمعت أن هذه المصانع تستخدم النساء أيضاً؟.

وضحك كاناي، ثم قال:

– نعم عندنا مصانع حول كلكتا تستخدم النسوة.. ولكن هل تقوين على العمل هناك؟ إن عنقط سيدق في يوم، وسيذهب جمالك وشبابك في اليوم الآخر، تحت وطأة هذا النوع من العمل الذي لم يخلق للنساء الرقيقات.. ومع ذلك فاذهبي إذا شئت إلى أحد هذه المصانع، وسترين ما يحدث إذا ما قابلت رئيس العمال وصادفت هوى في نفسه!.

واحتدم رأسها عضباً من كلامه، ولكن قبل أن تتمكن من الرد عليه، سمع صوت أوان تسقط على الأرض وتتحطم. ودنا منه فتى جلف وهو يجر الصبي «بادال» من أذنه قائلاً:

– لقد فعلها ثانية.. هذا الولد.. فنجانان آخران قد تحطما!.

وظهر الغضب الشديد على وجه الرجل وهو يقول للصغير:

– لقد كسرت فنجاناً صباح اليوم. هل تذكر هذا... إذا وقع الخراب العاجل على يديك بهذا المعدل، فسأفلس حتماً في أقل من يوم!.

والتفت إلى الفتى وقال:

– إصفع هذا الأرعن على قفاه.. اصفعه بكل قوتك!.

وهرولت شيفالي نحو الصبي.

ولكن كاناي مد يده وصاح بها قائلاً:

– مكانك يا امرأة.. حذا أن تتدخلي في أعمالي.

وقبل أن تتمكن من أن تصنع شيئاً، كان الفتى الفظ قد صفع المسكين صفعة قوية، ظافراً متشفياً!..

وصاح الصبي متألمًا، وبكى في حرقة، بينما أخذ زميله يدفعه أمامه...

وتهاوت شيفالي فوق الأرض، إلى جوار المنضدة التي يجلس إليها الرجل والدموع تنساب من عينيها.

ومسحت المرأة دمعتين ترقرقتا في ناظريها، ورفعت رأسها نحوه وقالت:

– أتدري لماذا تراني مهتمة بالبحث عن عمل لي؟ ذلك لأجل ولدي!.. إنه صغير لا يحتمل العمل الشاق.. ففي مثل هذه السن كان يجب أن يذهب إلى المدرسة!.

– مدرسة؟ وماذا تجديه هذ المدرسة؟.. أتظنين أنه بعد بضع سنوات في الدراسة سيعد له العرش ليجلس عليه كما يجلس باشوات المغول؟ أتركيه لي أيتها الجاهلة. دعيه يتعلم عملاً نافعاً عن هذا الطريق الخشن.. وفوق ذلك أنا أكافئه مكافأة سخية... إن عشر روبيات ليست شيئاً هيناً..!.

– ولكن شخصاً بغير علم ليس من شخص بغير عينين.

وقاطعها «كاناي» قائلاً:

– ليس لدى أي وقت أضيعه في الاستماع إلى سخافاتك.. إذاكنت تريدين أن تريحي جنبك فاصعدي إلى الغرفة التي تأوين إليها، وإلا فاذهبي إلى حيث تريدي،.

وكان الرجل يعرف سلفاً أن ليس لها أن تختار!.

***

كانت تلك الغرفة فوق سقف المطعم، صغيرة قذرة، تعيش فيها الحشرات والهوام، وكان طلاؤها متآكلاً في مواضعكثيرة، وكل أثاثها لا يزيد على منضدة خشبية صغيرة، ومرآة صدئة ومقعد أعرج، وسرير قديم ذي فراش حقير.

وأمضت المرأة في هذا السجن المنعزل ثلاثة أيام لا تخرج ولا ترى أحداً، وكان ابنها يأتيها ببعض الطعام مرة في الصباح وأخرى في المساء، ويجلس الطفل في حجرها لبعض الوقت يتحدث قليلاً ويشكو همه كثيراً.. وتنفجر المرأة محتجة تحدث نفسها: إلى متى سيقدر لها ولابنها أن يظلا في ضيافة هذا الرجل!.

وعندما حل مساء اليوم الثالث، صعد «كاناي بابو» إلى الغرفة، ومن نظرة واحدة أدرك لتوه أن روحها المعنوية قد تحطمت تماماً!.

– أنت تشعرين بوحشة!... ينبغي ألا نتركك وحيدة من غير أنيس ولا جليس..

ونظر إلى داخل الغرفة واستأنف قائلاً:

– هذا المكان يحتاج إلى بعض الطلاء.. وبعض الرواء!.. إن المرأة التي أقامت هنا قبل مجيئك كانت مهملة لا تحرص على النظافة... لقد كلفتني أكثر مما كسبته منها... ومع ذلك فقد تركتنا وذهبت!.. ولا أخال إلا أنها تتخبط هنا وهناك بين جوانب السوق!... إني أؤمل ألا يكون حظي منك مثل حظي من تلك المرأة الناكرة للجميل!.

وأدار عينيه ثانية في جوانب الغرفة وعاد يقول:

– ولعلك تدركين كيف تسلكين فيما أذا أرسلت أحداً ليؤنسك..

وأمنت «شيفالي» على كلامه بغير وعي، لمجرد مجاراته في هذيانه!.

ولكن الرجل سر لهذا الجواب، وقال وهو ينظر في وجهها:

– لتتبارك روحك أيتها المرأة المطواعة الرقيقة!.

وما كاد الرجل ينصرف، حتى تنبهت المرأة البائسة إلى ما يراد بها، واستغرقت في التفكير.... لقد بدأت الشكوك تساورها!.

وانقلبت الظنون إلى يقين، عندما عاد «كاناي» في ساعة متأخرة من الليلة التالية ومعه شاب نهم في النظرات.

وقال «كاناي» وهو يقدمه:

– هذا السيد قد جاء لرؤيتك!.

ونظر إليها نظرة حادة، ثم عاد يقول لها متلطفاً:

– إني أرجو أن تحسني وفادته، وتتلطفي معه!.

ودفع بالرجل خطوة أخرى، ومضى لسبيله.

ووقف الزائر ينظر إليها، ثم قال مفتتحاً الحديث:

– اختيار موفق ولاشك!

وأخرج علبة سجائره وقدمها قائلاً:

– هل تدخنين؟

ونظرت إليه المرأة بازدراء وقالت:

– ماذا تريد؟

فضحك الرجل بغير اكتراث وقال في توقح:

– أريد؟ يا الله.. ألا تعرفين ماذا أريد؟!

وكانت اللطمة التي أهوت بها المرأة الغاضبة لكرامتها على خده قاسية مدوية، فانفلت هارباً وهو يسب، ويسخط ويلعن... وجاءكاناي

مسرعاً على صوت الرجل الغاضب وتحقق عندئذ أنه قد أخطأ التقدير، وتسرع في الحكم..

وصاحت به اللباة الجرحة:

– ماذا تظنني أيها الرجل؟.. هل حسبتني مومساً؟! إن هذا المكان لم يعد يصلح لي، ولن أمكث فيه منذ الآن دقيقة واحدة!.

ووقف كاناي بابو مبهوتاً متحيراً، لا يدري ماذا يصنع.. لقد خشى أن يحدث أمر لا تحمد عقباه، فحاول أن يلطف من حدة التوتر.. ولكن «شيفالي» لم تعره أدنى التفات.

وبعد أن أوغلت في الطريق خارج المكان، والطفل «بادال» إلى جوارها، عدا «كاناي» خلفها في الزقاق المظلم، محاولاً من جديد أن يسترضيها:

– شيفالي.. ماذا دهاك حتى تعني بهذه الأمور التافهة لتثير غضبك؟! علىكل حال إذا عدت إلى صوابك وغيرت من رأيك، فإن بيتي مفتوح لك والغرفة ترحب بك.

***

وسارت شيفالي بلا وعي،كزورق بغير دفة تتقاذفه الأمواج في مهب الريح، تنتقل من شارع إلى شارع، وليس لها هدف تفكر فيه، أو مكان تقصد إليه!... وثقل النوم على الطفل فكان يتداعى بين يدي أمه في

الطريق، وكانت هي تجر نفسها جرًا، وتجره معها!.. وفي أثناء سيرها خرج إليها من أحد الأزقة رجل البوليس، وإذ رآها بمفردها في الطريق الساكن المهجور سألها ما خطبها؟ فأجابت من غير أن يختلج لها جفن بأنها عائدة من وليمة تعبدية، وحينئذ أخلى الرجل سبيلها من غير أن يستجوبها بأكثر من ذلك.. وشعرت المرأة بأنها لم تعد تقوى على السير، فتوقفت في الميدان، وجلست عند قاعدة التمثال القائم في وسطه، وراح «بادال» في سبات عميق.

وعندما شقشق الفجر. نصبت المرأة .... وساندت جسدها وهي توحي إلى نفسها بأنها ربما استردت طاقة حيوية تعينها على السير من جديد.. فلم يعد أمامها سواه يتربص بهاكالقدر المحتوم.. وجرتها قدماها في هذه المرة إلى منطقة السوق.. «سوق جرياهات».. وظهرت في الطريق مركبات الترام والأتوبيسات، وتناثر الناس هنا وهناك حول الحوانيت ولمحت من بينهم رجلاً يهرول ما إن رأته حتى لاحت لها بارقة أمل:

– جوبال دادل؟!..

واندفع الرجل نحوها بدوره..

كان «جوبال دادا» قد نزح منذ صغره من بلدة شيفالي، وقد اعتاد أن يزور مسقط رأسه مرارًا، ولكنه وغد بلغ سن الخمسين وتوفيت زوجته من زمن، لم يعد يذهب إلى بلدته.

واستمع جوبال من شيفالي إلى قصتها المؤلمة، ثم قال لها إنه يعمل طاهيًا في منزل وجيه ثري، وإنه كان يبحث عن خادمة، وأبدى استعداده لاصطحابها معه وتزكيتها عنده.

وهكذا وجدت شيفالي لنفسها عملاً في منزل السيد روي، رجل الأعمال الكبير في مدينةكلكتا...كان منزله فخمًا مبنيًا على الطراز الحديث يطل على بحيرة يهب منها نسيم لطيف يداعب أزهار الحديقة الجميلة المحيطة بالمنزل.. لم تكن شيفالي تتخيل حتى في أحلامها أن تعيش في مثل هذا المكان الساحر.

وجاء المساء وبدا أصدقاء «روي» يتوافدون على البيت مدعوين إلى وليمة أعدها لهم، وخرجت «شيفالي» إلى الشرفة تستريح من عناء العمل، ولكنها ماكادت تسلم نفسها للراحة حتى فاجأها «جوبال» وهو يتطوح من السكر، واقترب منها ودعاها إلى مشاركته في الشراب، ولما عابت عليه صنيعه قائلة له في مثل هذه السن تسكر وتستهتر، وقال لها: «وماذا في ذلك، مثل رب البيت يكون الخدم..» ثم ألتفت إليها وسألها على غير انتظار:

– هل تتزوجينني يا شيفالي؟.. إني أتحرق شوقاً إليك منذ أن رأيتك..

وأنكرت المرأة منه هذا القول، فنهرته قائلة:

– تأدب يا شيخ.. إنني في سن ابنتك!..

فضحك في بلاهة وقال:

– ابنتي؟.. وهل نحن نتحدث عن البنات؟ إنما أنا أتحدث عن زوجة.. أريد أن أتزوجك، إن طوعاً وإن كرهاً..

ورأت المرأة الشر في عينيه، وقد أفقدته الخمر صوابه، فحاولت أن تصده ودفعته عنها بكلتا يديها وجرت هاربة إلى الممر الداخلي..

كان المكان مظلماً، إلا من غرفة واحدة كان يدور فيها القصف وتختلط فيها أصوات المدعوين وضحكاتهم المعربدة!.

وانطرحت المرأة على الأرض يغالبها النوم.

وعندما انفض السامر وذهبت الأصوات واطفئت الأنوار، خرج السيد روى إلى الممر واتجه إلى غرفته، وتوقف أمام بابها قليلاً ثم خطا خطوات أخرى حتى وجه نفسه أمام شيفالي.

وانحنى فوقها وقال:

– شيفالي؟!..

وارتعدت شيفالي في كنها عندما لفحتها أنفاسه وقد فاحت من فمه رائحة الخمر..

وعاد الرجل يهرف:

– تعالي معي إلى حجرتي.. لئلا يصيبك البرد في هذا المكان..

وأمسك يدها. ولكنه لم يقو على جذبها، فقد كان يقف ثم يسقط ولا يكاد يقوى على حمل نفسه.

– تعالي معي.. ألا تسمعين؟.

وتملكها من تهديده ووعيده خوف شديد، فتراجعت مضطربة واجفة القلب وقد أدركت فجأة أن أحلامها قد تبددت في طرفة عين، وأنها قد سقطت من المقلاة إلى النار.. فجعلت تدفع الشر عن نفسها قائلة في ضراعة:

– يا سيدي وولي نعمتي، دعني بحق السماء.. لقد تعذبت في حياتي بما فيه الكفاية، إتركني بمفردي، أشفق علي وارحمني.. إنني مخلوقة بائسة لا سند لي ولا عون!.

ولكن «روي» أمسك بها من جديد، وصرخت شيفالي.. وجاءت ربة البيت مسرعة وأضاءت النور.. فما كاد الرجل يراها حتى تسلل على الفور نحو حجرته ودخل ثم أغلق الباب دونه بالمزلاج!.

ووقفت مسز روي برهة تنظر إلى شيفالي في غيظ، ثم صاحت قائلة:

– ماذا كنت تصنعين هنا؟ إني أعرف أمثالك من نساء الطريق.. لقد جئت إلى هنا لغرض دنيء... جئتكي توقعي بزوجي في حبائلك!.

وحاولت شيفالي أن توضح الأمر، ولكن المرأة ازدادت غضباً وصرخت فيها ويدها تمتد نحوها:

– اذهبي عن وجهي في الحال.. وقسماً لئن رأيت وجهك اللعين مرة أخرى لأنزعن جلدك عن بدنك.. اذهبي.

***

ومنذ تلك اللحظة الرهيبة بدأ التحول في حياة شيفالي، وراحت تواجه مرحلة جديدة قاسية.

ربما كان الأخيار في هذا العالم أكثر عدداً من الأشرار، ولكن عندما كان يعرض لها في كل لفتة وفي كل خطوة رجل شرير، يحاول أن يستدرجها إلى حمأة الرذيلة، لم يسرع إلى نجدتها رجل فاضل واحد ليقول لها: «يا امرأة لماذا أنت مكتئبة محزونة.. ما خطب طفلك يتعلق بطرف ثوبك صائحاً باكياً؟ دعيني أمسح دموعك، دعيني أطعم ابنك الجائع..» لم تسمع من أحد كلمات العطف ولا التشجيع، ولم تجد من أحد بعض العون أو النجدة.. أين ذهب المتشدقون بألفاظ البر والإحسان، المتمسحون بأثواب التقوى والتدين، المتعلقون بألفاظ الفضيلة والخير؟!.. إنهم هناك، يقفون على مبعدة كالقطط التي تسبح ليل نهار.. تتفرج على كل شيء ولا تصنع شيئاً، وتلوك ألسنتها بالألفاظ الجوفاء ولا تقدم على عمل ما، فلا أفادوا واحداً بتقواهم ولا أعطوا الله مما أعطاهم!.

أين الشهامة والمروءة والنجدة وسائر ما في القائمة من معان اصطنعوها للتمويه والإيهام، وامتلأت بها أفواههم جعجعة من غير طحن، وإيثاراً للعافية من غير بذل؟.

كفى خطباً ومظاهر أيها الناس!.. وتعالوا تحدوني أيكم لم يطع هواه ولم يصغ لنزواته ولم يفكر في نفسه.. فإذا تواريتم خجلاً وقصوراً فلا ترفعوا رءوسكم بعد الآن لتتباكوا على الفضيلة وترموا الأبرياء بكل نقيصة وخطيئة وكل ذنب عظيم!..

***

وهكذا وجدت شيفالي جميع الأبواب مغلقة دونها، لم يكن مستغرباً منها إذن أن تعود أدراجها في ذلة وانكسار.. إلى هناك.. إلى مطعم جاناتا، المكان الوحيد الذي تعرفه!

وعندما رأى الطفل «بادال» ذلك الزقاق المظلم الذي يؤدي إلى المطعم، نظر إلى أمه في خوف وقال:«أين أنت ذاهبة يا أماه؟.. لنذهب إلى مكان آخر، أنا لا أحب أن أرى هذا المكان، لنعد ثانية.. لنعد!».

وربتت الأم على كتفه وهدأت من روعة قائلة:

– لاتخف يا ولدي، لن أدعك تشتغل هذه المرة، سأرسلك إلى المدرسة حتى لو اقتضاني الأمر.. أن أضحي بنفسي!.

كان الفجر الجديد يطل قليلاً على العالم.. على الأشرار والأخيار، ثم يتوارى خجلاً مما يقترف باسم الفضيلة واسم المروءة والنجدة.. وعلى ضوئه الخافت الحزين أخذ «كاناي بابو» يضيء المصباح ويمهد لنفسه مجلساً فوق مقعده العتيق، وعندما حانت منه التفاتة إلى الخارج ووقع نظره على المرأة التي عرفها من قبل، وعرف مدى إبائها وكبريائها، عقدت المفاجأة لسانه!.

سترى الآن – مما أقصه عليك – كم يكلف الإنسان وقوعه في غلطة واحدة.. وسترى كيف ينجلي الليل – مهما طال – عن صبح باسم بهيج..

كان الوقت مساء، وكان المقهى مزدحماً برواده.. والبهو الكبير ممتلىء بالمناضد الصغيرة التي صفت بعناية ومهارة بحيث تسمح بالكاد بمرور الجرسونات المهرة من غير أن يمسوها.. أخذت مقعدي بجانب إحدى النوافذ، وأشعلت – بحكم العادة – سيجارتي. ورحت أنتظر مجيء صديقي «جوبال».. وكنت أرى أكثر الرواد تبدو على وجوههم آثار التعب.. فإن أغلبهم من الموظفين الذين يعملون في مكاتب قريبة أو مجاورة للمقهى.. جاءوا ليصيبوا بعض الراحة وهم يتناولون شاي المساء.. وكان هناك جماعة من الشبان تبدو عليهم الأناقة محسن الهندام.. ثم بعض الأسر.. أتوا غالباً لمجرد «تغيير المناظر» وكانت هناك مائدة منعزلة عند مدخل المقهى، جلست إليها سيدة تبدو في سن الثلاثين، على وجهها مسحة من الكآبة.. كانت تنظر في فنجان الشاي

وترتشف منه بغير مبالاة رشفة بعد أخرى، وكلما فتح الباب الخارجي رفعت رأسها عنه، ونظرت نحو الباب ترقب الداخل، وقد لمعت عيناها.. ثم يخبو هذا اللمعان، وتعود إلى الفنجان،كالطالب الذي ينظر فيكشف نتيجة الامتحان ثم يصاب بخيبة أمل.

لم تكن هذه السيدة تعبأ بمن حولها من الناس أو بما يحيط بها من النظرات.. وكانت فقط تتحدث قليلاً إلى النادل كلما اقترب منها وانحنى أمامها ليسألها عما إذا كانت تريد شيئاً، وفيما عدا ذلك كان كل انتباهها يتركز في الفنجان.. وفي باب الدخول!

وجعلت أنا أرقب حركاتها بفضول.. ترى من تنتظره هذه السيدة أي قدر عجيب سيشق طريقه من خلال هذا الباب؟!.

ولم ألبث أن رأيتها تهب فجأة زائغة العينين.. فقد فتح الباب، ولمحت خلف زجاجه شاباً جذاب الملامح، له نظرات كنظرات النسر، وابتسامة كابتسامة الصبح المشرق، وكان رافع الرأس في اعتداد كأنما هو أحد الغزاة الفاتحين!..

لن أنسى الصرخة التي انطلقت من فم المرأة عندما رأت الشاب وهو يدخل:

– ساتيانات.

نادته بهذا الاسم في صوت ضارع مبحوح يكاد يحز في نياط القلب..

والتفت إليها الغريب متعجباً، وهز كتفيه في سخرية ثم اتجه نحوها.. وأخذ ينظر إليها كالقصاب الذي يتفحم اللحم الذي يريد أن يشتريه، ثم أومأ برأسه في برود وهو يقول:

– أخشى أن تكوني قد أخطأت يا سيدتي.. لست أدعى بهذا الاسم، ثم إني لا أعرفك...

وفغرت فاها، واتجهت إليه تمسك بذراعه، وتنظر في إمعان إلى وجهه.. ثم إذا بها تتهالك على مقعدها شبه ميتة!.

وعرت الحاضرين موجة من التساؤل والعجب، وأخذ الشبان يضحكون، بينما أظهر الكتبة المجهدون أشفاقهم وأسفهم.

وجلست ساكناً أرقب المرأة المسكينة.. وجاء صاحب المقهى بعد قليل لنجدتها.. وهمس في أذنها ببضع كلمات فوقفت السيدة تتحامل على نفسها، وجمعت حوائجها، وغادرت المكان..

واستغرقتني هذه المأساة حتى إنني لم أشعر بصديقي وهو يدخل ويأخذ مكانه إلى جانبي..

وقلت له:

– جوبال؟ إنني لم أراك وأنت تدخل؟!.

فقال:

– طبعًا.. لقد كنت مستغرقًا في النظر إلى «مدام باجلي».

– أوتعرفها؟.. من تكون هذه السيدة؟.. هل هي مجنونة؟.

وأشعل جوبال سيجاراً، وطلب الشاي، ثم قال:

– نعم.. هي مجنونة في بعض الحالات، أما الآن...

– ألا يستطيع الأطباء أن يمدوا لها يد العون؟ ألا توجد معاهد أو مستشفيات تلائم حالتها؟

– إنها لا تطيق أن تحبس في مستشفيات للمجانين، مع أن أهلها قد حاولوا فعلاً أن يتخلصوا منها عن هذا الطريق.. لابد أن تأتي عملاً شاذاً قبل أن تنتبه إليها السلطات!.

وشعرت لأجلها بالحزن، وأخذت أتمتم:

– أمر مؤلم!.. ضحية رجل لا قلب له.. لاشك في هذا!.

– لا، لا.. بل العكس هو الصحيح.. لقد قذفت بعيداً برجلها، وهي الآن تعض بنان الندم.. إنها تعود إلى عقلها أو يعود إليها عقلها.. هذا كل ما في الأمر.

واستبد بي حب الاستطلاع، فطلبت إلى جوبال أن يقص علي قصتها..

***

قال:

– إنني لا أعرفها شخصياً.. ولكن أحد الأصدقاء روى لي القصة، إنها تدعي «آشا» وهي وحيدة أحد التجار الموسرين، ربيت والمال عندها لا حساب له، فنشأت حريصة على أن تستمتع بأوقات طيبة بغير اكتراثللثمن الذي تبذله.. وتصرف والدها الرجل الأرعن حين رآها تضيق ذرعاً بالتعليم وتغادر الكلية وهي في منتصف الطريق.. لقدكان يريد لها أن تتعلم وتأخذ مكانتها اللائقة بفتاة في مثل مركزها.. ولكنها عارضت وسخفت فكرة مواصلة التعليم.. ثم مات والدها فجأة، وانصرفت هي إلى العبث مع الشبان، وإلى المغامرة والمقامرة، إلى أن وقعت في حب أحد الشبان الفارغين العابثين.. وعندما استطاعت أن تنقذ نفسها لم يعد معها غير القليل من المال، وعادت إلى عقلها فعدلت عن خطتها الرعناء.. خطة قذف المال من النافذة!.

«وفي إحدى المآدب التي أقامها بعض الأصدقاء، تعرفت إلى أحد الشبان، وكانت في ذلك الوقت جميلة جذابة، وكانت صغيرة وذكية فأغرم بها غراماً شديداً.. وكان هو حسن المظهر، متوقد النشاط، فجرفها

معه، ثم كان ما يصنعه – عادة – كل شخص وجد ضالته المنشودة، فتزوجا..

«واستأنفا الحياة معاًفي منزل كبير ذي حديقة واسعة مؤسس أفخم أثاث.. ولاحت سعادتهما في البداية على أتمها.. كانت هي مثال الزوجة الفاضلة، وربة البيت الصالحة، وكان زوجها سعيداً هانئاً.. كان كلاهما يحب الآخر ويخلص له، وقد ظن أن كل شيء قد رتب لحياة زوجية طويلة.. ولكن جنتهما – جنة عدن – لم تكن خلوا من الحية التي تسعى بالوقيعة بينهما.. لقد بدأ الشيطان يرفع رأسه، ويطل من سور الجنة!.

«كانت الحياة الرتيبة المألوفة أكثر من أن تألفها طبيعة «آشا» وقتاً طويلاً.. لقد بدأت تتململ.. بدأت تضيق بهذا النوع من الحياة وتتشوق إلى تغيير الصور، وتغيير الألوان، وراحت تقول لإحدى صديقاتها أن زوجها يحسب لغفلته أن هذه الطريقة يمكن أن تظل قائمة إلى الأبد.. وقالت إنها قد ضاقت بتلك الحياة حتى كادت تصرخ.. أو تنفجر!.

«أما زوجها، فقد ظل رزيناً عاقلاً، هادئاً لا يعرف التقلب، ولا يجعل للغضب أو الغيرة مكاناً في قلبه.. أحب زوجته بقوة حباً حقيقياً، وكانت سعادتهما هي بغيته وغايته في حياتهما الزوجية، برغم كل شيء!.

«وأخذت تناكفه، وتتهمه بأنه بارد بليد الحس... وعادت تحن إلى الماضي وإلى حياة أولئك الأفاقين الأغرار.. ناسية الدرس القاسي الذي تلقته من قبل!.

«وذات يوم، دعت أحد هؤلاء الشبان الفارغين إلى منزلها لتناول الغداء، وهناك – في حضور زوجها – اقترحت عليه أن تصحبه إلى جولة رياضية فوق الجليد في جبال الهملايا، ولم تنتظر رأي زوجها أو موافقته، بل اندفعت إلى الخارج، وتركها زوجها في غير ما ضجة.. ثم عادت بعد أن قامت بنزهتها، وهي تحسب أن زوجها في انتظارها على شوق، يفتح ذراعيه لاستقبالها!.

«ولكن أحلامها الوردية ما لبثت أن تبخرت، عندما اكتشفت أن زوجها الهادىء الصامت الرزين قد التحق بخدمة الجيش،كمتطوع، ومع أنها بذلت ما في وسعها من جهد بحثاً عنه، فإنها لم تقف له حتى على أثر!.

«كيف هو؟ أين هو؟ كانت تصرخ بمرارة إنسان فقد أملاً عزيزاً عليه، ولم تستطع أن تدرك أن حبها الصادق الوحيد وأخلاصها العظيم لم يقوي على الصمود حبال الحمل الثقيل الذي وضعته عليه.. تحقق من أنه لا يستطيع أن يوفر لها السعادة التي تنشدها، وبدلاً من أن يظل على هذه الحال من الضيق والعذاب، فضل أن ينفصل عنها، على الرغم من نداء فؤاده المعذ.

«ولم تستطع إدارة الجيش أن تدلها على مكانه، ولم تستطع «آشا» أن تعرف أهو حي أم في عداد الأموات.. ولو أنها تحققت من موته، فلربما كانت تنقطع لتبكيه وتلبس السواد حزناً عليه، وتستأنف من

جديد حياة أخرى غير هذه الحياة.. أما وهي لا تعلم حقيقة أمره، فقد غرقت في بحر من الشك القاتل، والحسرة المرة!.

«حدث هذا كله منذ عشر سنوات، وهي الآن تزوركل مقهى، وكل مكان يزدحم بالناس عليها تلمحه بينهم، ولكن للأسف قد سبقتها الأحداث، ونالت ما تستحقه».

***

وعند هذا الحد أنهى «جوبال» حديثه، ولكني لم أتفق مع «جوبال» في رأيه.. كنت أشعر بالرثاء لهذه المرأة المسكينة، ولذلك قلت له:

«لا يا جوبال، إن هذه المسكينة هي الآن في عذاب كعذاب الجحيم، والرحمة تقضي بشيء من الراحة لنفسها المحطمة!

– أتقول هذا حتى بعد أن سمعت قصتها على حقيقتها؟

– أجل،إنني أرى أنها تستحق أن تتهيأ لها بعض الهناءة.. إنها ليست من نوع يستعصي على الإصلاح، لقد تركت لتنشأ في صغرها بغير توجيه، ولم يرشدها أحد أو يعاونها بالرأي وهي تتخذ قراراتها!..

فقاطعني قائلاً:

– ولكني أقول لك يا صديقي، إنها حتى لو وجدت زوجها، وأظهرت له حبها وعاطفتها، فإنها لن تلبث أن تعود إلى طبيعتها القلقة، وإلى أسلوبها الذي درجت عليه، فتفجع الرجل المسكين مرة أخرى.. وإني إشفاقاً على الرجل، أراني مرتاحاً لأنها لم تجده.

– ولكنك قلت لي إن زوجها قد أحبها حباً شديداً، ومن أوصافك له، نستنتج أنه من النوع الذي يحب مرة واحدة، ولكن بعمق وإخلاص وتفان في الحب.. وهذه السنوات العشر التي مرت بهما.. سنوات البعاد والعذاب، ستكون هادياً لهما كليهما.. سيكون حبه من القوة والمنعة بحيث يمسك عليه زوجته.. إن لي شعوراً قوياً بأن «آشا» قد وعت الأن درسها جيداً..

– ربما، ولكن ماذا يجدي هذا النقاش الأجوف وأنت ترى أنه قد فات الأوان الآن؟!.

***

كنت أرى «آشا» بعد ذلك في مقاهي مختلفة، وكان من السهل أن أستدرجها إلى الحديث معي، وكانت تبدو عاقلة في كلامها وتصرفاتها، ولكني كنت ألمح شبح الجنون وهو يتربص بها في انتظار انهيار أعصابها المنهكة، وكنت أحرص على أن أبعدها عن مرضها..

وما لبثنا أن تصادقنا، ورحت أحملها على أن تتحدث عن رجلها.. وكانت تتحدث كثيراً، وتصفه لي وصفاً دقيقاً حتى كنت أتمثله أمامي

وكأنني أراه. وكان لديها شعور قوي بأن زوجها الحبيب لا يزال حياً، وأنها قد تعثر عليه يوماً ما لو أنها اجتهدت في ذلك.. ومن أجل هذا كانت لا تكف عن زيارة الأماكن التي يكثر فيها الناس باحثة عنه.

ولكني لم أكن مقتنعاً بهذه الوسيلة للبحث عن «ساتيانات».. وكثيراً ما كنت أفكر في خلوتي في هذا الأمر، فلا أهتدي إلى حل.. ولكن حدث ذات يوم، قبيل أحد الأعياد القومية بأيام، أن خطرت لي فكرة، وكانت فكرة باهتة في البداية، ولم أكن على يقين من جدواها، ومع ذلك لم أكف، فلا يأس في المحاولة، وعمل شيء ما خير من لا شيء على الإطلاق.

وفي صباح اليوم التالي، أمضيت نصف اليوم في كتابة رسالة، ضمنتها في بساطة تلك القصة المؤلمة، قصة «آشا» من غير أن أشير إلى أسماء بالطبع، مع حرصي على وصف «ساتيانات» في الرسالة وصفاً دقيقاً، وأخذت نسخاً من رسالتي وأرسلتها بالبريد إلى بعض رؤساء تحرير الصحف اليومية، ولم أكن على يقين من أن يلتفتوا إليها، ولكن الذي حدث هو أن بعضهم قد نشروا الرسالة، لتأثرهم بها في الغالب، وكنت قد طلبت في رسالتي إلى القراء أن يمدوني بمعلومات إذا ما كانوا يعلمون شيئاً عن الرجل الذي وصفته – أقصد ساتيانات – ولكني كنت قليل الثقة برسالة تكتب بعد عشر سنوات!.

ومع ذلك فقد تلقيت في اليوم الثالث رسالة من طبيب يعمل في مصلحة الجنود المصابين.. يقول فيها أنه يوجد شخص تحت إشرافه

يتفق مع جميع الأوصاف التي ذكرتها إلا في شيء واحد.. ولم أضيع وقتاً، فارتديت ملابسي، وقصدت إليه.

وفي بقعة هادئة منعزلة عن المدينة، غادرت العربة ومشيت بين صفين من الأسرة الموضوعة فوق المروج الخضراء والأزهار الجميلة، وحانت مني التفاتة نحو المقاعد ذات العجلات تحمل بعض مشوهي الحرب ينظرون في يأس قاتل إلى الفضاء الواسع، وأدرت وجهي للحال عن هذا المنظر، فقد خجلت من نفسي، وكادت الدموع تطفر من عيني.. هؤلاء الرجال أبطال أظهروا بسالة وإقداماً وتضحية، وعندما انحرفت عجلة المعركة، إذا هم محطمون مشوهون!.

هؤلاء الرجال الشجعان المضحون، الذين حرسوا ديارنا، وذادوا عن نسائنا وأحبائنا وأولادنا، وعن أموالنا وثمراتنا، هم الآن منعزلون عنا منسيون منا! كم شخص منا يفكر في هذه الأنفس البائسة المعذبة؟ وماذا صنعنا من أجل أن نكفل سعادتهم ونزيل وحشتهم؟!

صعدت درجات السلم ببطء ودلفت إلى غرفة ذات باب أبيض، يجلس في ركنها أمام مكتب كبير، رجل رزين في رداء أبيض، فأدركت أنه هو الطبيب الذي أقصده.. ورفع الرجل رأسه عن الورق، فحييته وقلت له:

– دكتور راجا؟

– نعم أنا هو، تفضل بالجلوس.

وأخذنا في الحديث، وعرجت على موضوعنا فقلت له:

– أرجو أن تريني الرجل الذي ذكرته في رسالتك إليَّ

فبدا عليه شيء من الضيق، ووضع أصبعه في ياقته وكأنه يحس بالاختناق. ثم قال:

– ستطلع على حالة جديدة عليك.. إن الشخص الذي ستقابله قد لا يكون هو الذي تبحث عنه.. ولكني أوليه من عنايتي الجانب الأكبر، لقد جيء به إلى هذا المصح وهو فاقد الوعي، وأوراقه أيضاً مفقودة، ولعل الصدمة بعد أن ذهبت ببصره وتركت له العمى والظلام هي التي أفقدته الذاكرة أيضاً، فلم يستطع أن يدلي باسمه أو بمعلومات عن نفسه، أو لعله لم يرد أن يذكر لنا شيئاً من ذلك، فأعطيناه اسماً حرص عليه وعرف به.. إن لدينا كثيرين مثله لا يبصرون ولكن ليسوا مثله في عزلته وانطوائه على نفسه.. وكثيراً ما دلني تفكيري على أن شيئاً خطيراً في حياته قد أثر فيه إلى هذا الحد، وجعله على هذه الصورة التي ستراها.. وربما كان ههذا هو سبب كتابتي إليك.

وجالت بذهني فكرة، فقلت للطبيب:

– هل هناك مانع يا دكتور من أن أقابله على حدة؟

– لا، لا مانع.. إنه الآن في المكتبة، هيا لأريك الطريق إليها.

وكانت الغرفة خالية، إلا من رجل وخط الشيب شعره، كان يجلس ساكناً وفي يده كتاب، بينما تمر أصابعه على صفحاته تقرأ له.. اقتربت منه وناديته في لطف قائلاً:

– ساتيانات...

وفوجىء الرجل، وقفز من مقعده، وصاح:

– من هناك؟.. من يناديني؟.

ورحت أهدىء من روعه، إلى أن استعاد هدوءه شيئاً فشيئاً، وبدأنا الحديث:

– إنها «آشا» يا ساتيانات.

فقال بصوت مضطرب:

– ماذا؟!.. هل هي في ضيق؟

– نعم ولا، يا «ساتيا».. إنها تبحث عنك طيلة السنوات العشر الأخيرة وأخشى أن يصيبها سوء إذا لم تهتد إليك سريعاً..

وصمت برهة، ثم قال:

– من أنت يا سيدي؟

– أنت لا تعرفني يا «ساتيانات» أنا صديق لآشا، وآمل أن أصبح صديقاً لك أيضاً.

– إذا كنت صديقاً لـ «آشا» فها أنت ترى أن عثورها علي لن يشبع رغبتها، إن آشا تحب المرح واللهو.. ولم أكن قادراً على أن أوفر لها هذه الأشياء قبل عشر سنوات، عندما كنت صغيرًا وفي أوج شبابي، فكيف أقوى الآن، وأنا ضرير، وكئيب، وطاعن في السن.. كيف أقوى على شيء من هذا؟.

وفجأة تغير وجهه وقال مستدركاً:

– أو لعلها ترغب في الطلاق؟.

فقلت على الفور:

– لا، لا. وأؤكد لك.. إنها تريدك أنت.. وتريد عونك لها.

– ولكن، لعلك مخطيء.. كيف أنا الرجل الضرير، أن أساعد فتاة متوثبة متفتحة للحياة كـ «آشا»؟ لن أستطيع.. لن أستطيع.

– ولكنك لا تزال حياً يا «ساتيا» وحبك قوي إلى درجة تستطيع معها أن تكون نعم العون لها، على الرغم من عاهتك.

– ولكن أخفقت منذ عشر سنوات.

– ولن تخفق مرة أخرى.. لقد أخفقت لأنك كنت ضعيفاً على الرغم من أن حبك كان قوياً.. وقد تغيرت آشا الآن، إنها في حاجة إلى حبك الهاديء الثابت.

وفي إيجاز شرحت له اندفاع آشا في كل مكان بحثاً عنه، وكيف كانت بتصرفاتها تستدر الشفقة، أو الضحك والسخرية، أو الاحتقار والشتائم من رواد المطاعم والمقاهي، حتى وقفت عند القمة الخطيرة توشك أن تنحدر منها إلى الجنون.

وظل ساتيانات يستمع إلى الرواية وهو يفتح يده ويقبضها في عصبية.. وفي النهاية قال في استسلام:

– لا بأس.. سأفعل أي شيء يكفل لها السعادة.

وقابلت آشا في الليلة عينها.

وقلت لها في هدوء:

– آشا، لدي بعض الأخبار لك.. ولا أعرف ما إذا كانتتسوءك أم تسرك.. إن ذلك يرجع إلى طريقة تقبلك لها.

وعند ذلك عاودها البريق القديم.. عاد يتضوأ في عينيها، وقالت:

– هل وجدته إذن؟ هل هو بخير؟ وهل يريدني؟..

وقلت لها:

– نعم وجدته.. إن «ساتيانات» قد أصبح ذا عاهة.. إنه ضرير.. ومسن..

وتراجعت آشا إلى الخلف جزعة تصيح:

– ضرير؟!.

– هل يغير ذلك من الأمر شيئاً بالنسبة لك؟.

وعادت تقول وهي في شبه ذهول:

– أتقول ضرير.. أعمى؟ أين هو؟.. أين حبيبي؟.. خذني إليه.. أرجوك، خذني إليه..

– إذن هيا استعدي للذهاب.

***

كانت تلك الأمسية هي إحدى أمسيات الاحتفال بأحد الأعياد وكان الجو قاتماً كلون المداد.. والمصابيح الصغيرة ترسل أضواءها من نوافذ المنازل، وضحكات الصبية تختلط في الفضاء مع أصوات العجلات وأغاني المارة.

وكانت «آشا» تجلس في العربة إلى جانبي في سكون، تغلفها أفكارها وخواطرها، بينما تعدو العربة في الشوارع وهي تنهب الأرض

نهباً.. حتى إذا وصلنا إلى الملجأ، فوجيء الدكتور «راجا» بمقدمنا بهذه السرعة..

ورويت له الموقف، موقف آشا، عندما سمعت بالنبأ.. ورتب لنا الطبيب كل شيء. وكان علينا أن نقابل «ساتيانات» في قاعة الاستقبال، وأخذت «آشا» من يدها وقدتها إلى حيث ينتظر حبيبها.

وعندما دخلنا، وقف «ساتيا» على قدميه، وقف منتصباً ويداه إلى جانبيه، وقد لاح شعره الأبيض تحت الضوء الخافت كطبق من الفضة سلط عليه الشعاع.. وترددت «آشا» قليلاً، ثم اندفعت نحوه واسمه في شفتيها، وذراعاها تطوقان عنقه.. أما هو فقد لفها بذراعيه، وضمها إليه..

وأغلقت الباب دونهما الباب في هدوء وأنا آخذ طريقي إلى الخارج، وحمدت اللهعلى أن أعاد النور والسعادة إلى الزوجين اللذين لقيا ما لقياه من المتاعب والمشاق، وسألته تعالى أن يحمي حبهما الذي احتملا في سبيله هذا العذاب.. ومن المحقق أنه لم يكن هناك في ليلة العيد المنير ضوء أقوى من ذلك الضوء الوهاج الذي أغلقت دونه الباب، منذ لحظات!

«عن مجلة كارافان».

لماذا يرخصون بقيام الحانات، التي يفقد فيها الناس عقولهم؟!.

ابن السكير

بقلم: راجا جوبالاتشاري

سأله المدرس: «ما اسمك؟».

فأجابه الصبي: «جايارام».

كان منظر الصبي يدعو إلى الشفقة.. جسمه ضامر نحيل، وعيناه غائرتان في محجريهما، والقميص الذي يرتديه يبدوكأنه يخص شخصاً سواه، أكبر منه، وقطعة القماش التي يلف بها رأسه ذات رقع كثيرة، بالية واهية النسيج.. أما رأسه ذاته فقد خلا تماماً من الشعر، وبدا فيه كثير من البقع الجلدية، منها القديم، ومنها الحديث..

وعاد المدرس يسأل:

– وما عمرك يا غلام؟.

وأجابه الصبي:

– تسعة أعوام يا سيدي.

فانفجر جميع الصبية الذين في الفصل ضاحكين. فإنه من المضحك في عرفهم أن تكون سن الطالب الذي يلتحق بالمدرسة في أول مرحلة من التعليم تسع سنوات.

وصرخ المدرس فيهم قائلاً:

– سكوت!

ووضع التلاميذ أيديهم على شفاههم، ونظر كل منهم نحو الآخر وهم يغمزون بأعينهم غمزات ذات معنى.

وسأله المدرس:

– ولماذا لم تلتحق بمدرسة حتى الآن؟.

وأطرق الصبي، ولم يجب!.

وأعاد المدرس عليه السؤال:

– لماذا؟.

فأجاب الغلام:

– لم يكن هناك أحد يساعد أمي في البيت، لقد كنت أرعى طفلها..

وعاد الصبية يضحكون ضحكاً جهدوا أن يكتموه.

وسأله المدرس:

– وما اسم والدك؟.

وقبل أن يتمكن الصبي من الإجابة، وقف أحد الذين في الفصل وقال:

– إنه يا سيدي ابن «صبان».. السكير.

وفي هذه المرة انفجر الطلبة بالضحك بصوت عال، وأطرق الصبي نحو الأرض.

وانتصف النهار، وأعلن جرس المدرسة حلول ساعة الغداء، وخرج التلاميذ قفزاً وعدوا.. وتجمع عشرة منهم حول «جايارام» وهم في طريقهم إلى الخارج..

ومد أحدهم يده نحو رأسه وقال:

– دعني أرى قبعتك.. الرشيقة.

وهم بنزعها عن رأسه.

وقال آخر محذراً:

– لا تمسها... وإلا اتسخت يداك.

وقال ثالث:

– إنها مصنوعة من الخرق التي التقطت من صناديق القمامة وخاطتها الأم لوليدها الفالح!.

وانبرى آخر يقول:

– أسرع إلى البيت لتهديد الطفل!.

وقال عفريت صغير:

– قميص من هذا الذي ترتديه؟!.

وقال آخر:

– كم كأساً من الخمر احتساها والدك أمس؟.

وسد أحد الصبية أنفه بيده وصاح:

– أف!.. إن الفتى تنبعث منه رائحة نتنة.. لاشك أنه هو الآخر.. سكران!

وقال آخر ساخراً:

– يبدو أن الرجل الذي وجد أمس متردياً في الحفرة ليس إلا والدك.

وتجمع الصبية.. وهم يتصايحون هازئين: «السكير.. السكير.. السكير ابن السكير.. السكران ابن السكران، الصبان» وجعلوا يدورون حوله وهم يصخبون صخباً شديداً.

وتساءل بعضهم: «هل نحن ملزمون بالجلوس معه، في فصل واحد؟..».

أما «جاريارام» فكان يتعذب. ولم يقو على احتمال الضحكات الساخرة والنكات المقذعة، ولكنه مع ذلك حبس الدموع التي كادت تطفر من عينيه.

ولم ينطق بشيء، لم ينبس بكلمة.. وتحامل على نفسه ومضى لا يلوى على شيء.. مضى مسرعًا إلى خارج المدرسة.. ولكنهم تبعوه، وأخذوا يعدون خلفه.. صاروا في الشارع، أطلق الصبي فجأة ساقيه للريح، وانطلق كالسهم، وصياح الشياطين الصغار يلاحقه ويصم أذنيه.. ومال الفتى نحو أحد الأزقة، واختفى.. فجأة!.

وفي المنزل، دفن رأسه في حجر أمه، وانفجر بالبكاء، وهو ينشج نشيجاً ملؤه الحرقة والإحساس بالهوان!.

وقالت الأم وهي تضمه في حنان، وتربت على ظهره، وتقبل جبينه:

– لماذا تبكي يا صغيري؟ هل رفضوا إلحاقك بالمدرسة؟.

ولم تسمع الأم جواباً، وكلما أعادت أسئلتها، أخذته الحمية والإحساس بالهوان، وعلا بكاؤه!.

***

وبعد فترة الغداء، دق ناقوس المدرسة، وتجمع الصبية مرة أخرى في فصلهم...

وعندما دخل المدرس إلى الفصل ولم يجد الصبي، قال:

– أين الصبي الجديد؟.

وأجاب أحدهم:

_ لقد ذهب يا سيدي، ولن يعود!

– لماذا؟.

– لقد سخر منه الجميع، وهزئوا به، فذهب المسكين وهو ينتحب!.

– أيها الصغار.. إن ما فعلتموه بصاحبكم لهو عين الخطأ!.

وأطرق الأولاد خجلين..

وسأل المدرس:

– ومن منكم يعرف منزله؟

ووقف كثيرون، وكل منهم يجيب:

– أنا..

– ومن يستطيع أن يذهب إليه، ويخاطبه برفق، ويأتي به ثانية؟.

واعترض أحدهم قائلاً:

– ولكن يا سيدي.. سيتعرض لنا والده بالإيذاء والضرب..

أما الباقون فقد أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر، في صمت.. وأخيراً وقف طفل لطيف، وقال:

– سأذهب أنا.. وسآتي به..

– جميل يا «سندرام».. اذهب، اذهب إليه، واشرح المسألة لأمه، وعد به إلى هنا.

***

كان«صبانايدو» من مدمني الخمر العتاة.. حتى كانوا يطلقون عليه اسم «صبا السكير» أو اسم «صبانايدو ذو الكأس». ولم يكن والده فقيراً.. وماتت أمه وهو بعد طفل في مهده، فعنى به والده، وعندما بلغ سن السادسة عشرة، اختلط بأصدقاء السوء، وتطبع بأخلاقهم الفاسدة.. وفي البداية كان الأب مهتماً بأمر ابنه، وصار ينصحه ويحذره من العواقب، ولكن بلا جدوى.

وإذ أصبح في الثانية والعشرين من عمره، عمد إلى تزويجه وهو يؤمل أن يصلح الزواج من أخلاقه، ولكن النتيجة كانت عكس ما توقعه، وما أمله.. فهو لم يقلع عن عاداته، وأدمن شرب الخمر، وسار في طريق الشر.. ومات والد «صبا نايدو» محزوناً، وما أن طويت صفحته حتى وجدها إخوان السوء فرصة لإفساد ما بقي من أخلاقه ونزعاته الخيرة، إن

كانت له مثل هذه النزعات!. وإذ تكاثرت عليه الديون، فقد كل ما عنده. وأصبح من العسير عليه أن يحصل حتى على قوته..

ولما كانت إجراءات مقاضاته بسبب ديونه قد أكسبته بعض الخبرة في شئون المحاكم، فقد استطاع أن يجعل من نفسه «كاتب عرائض».. وهو ما يطلق عليه اسم «الكاتب العمومي». وكان هذا العمل يدر عليه نحو روبية في اليوم، أي حوالي سبعة قروش ونصف القرش. وكان ينفق ثلثي هذه الروبية في تعاطي الخمر، ويعطي الباقي لزوجته، وأحياناً لم يكن يعطيها حتى هذه الدريهمات.. كان يحضر إلى البيت ثملاً مخموراً.. ويوسعها ضرباً مبرحاً.. وفي بعض الأحيان، كان يلقي بها خارج البيت.. إلى الشارع، ويوصد الباب دونها!.

وجاء يوم أصبح فيه البيت الذي يقطنه من نصيب دائنيه. وهو في غمرة سكره استشاط غضباً، وهجم على محضر المحكمة وهو يستل مدية في يده. وقبض عليه رجال البوليس، وحوكم. وحكم عليه بالسجن ستة أشهر.. وعانت عائلته من قسوة الجوع والألم والمسبغة. وفي الوقت الذي كان فيه «صبا نايدو» يقضي مدة سجنه، كانت الزوجة تقيم مع طفليها في نفس البيت، بوصفها مستأجرة من الدائن.. ولكن حتى هذا لم يدم إلا بعض الوقت، إذ اضطرها الرجل إلى إخلاء بيته، وذهبت لتقيم في جانب من شرفة منزل يملكه بعض ذوي قرباها..

ولما أطلق سراح «نايدو»، عاد إلى دائه القديم.. وانكب على الشراب يمعن في إدمانه. وزادت بعض الشيء خبرته «بكاره» الأول

«كتابة العرضحالات».. فكان يحصل في اليوم على روبيةكاملة، وأحياناً روبية ونصف روبية. ولكنه صار ينفق كل ما يحصل عليه، في الحانة.. وكثيراً ماكان ينطرح في عرض الطريق طول الليل وهو فاقد الشعور.. فكان لا يستطيع أن يزاول مهنته في اليوم التالي، ويعضه الجوع بنابه، فيفجر غيظه في زوجته.. المسكينة!.

واضطرت الزوجة أن تشتغل، لتعيش، فذهبت في باديء الأمر إلى من تعرفهم، واشتغلت عندهم..كانت تطحن لهم القمح، في مقابل أن تحصل على مقدار من الأرز تطعم به الأسرة.. وهذاكل ماكانت تحصل عليه من طعام، مدى فترة طويلة.. فلما وجدت أن هذا لا يكفي ولا يقيم الأود، أضطرت أن تعرض خدمتها فيكل بيت، من غير تمييز بين بيوت من تعرفهم ومن لا تعرفهم..كانت تطلب العمل حيثما تجده.. وإذا تصادف أن عاد «نايدو» إلى البيت في غيبتها، فإن «جايارام» حينئذ يندب حظه، بلسان حاله.. حاله التي يرثى لها.. إنه يسأله: «أين أمك؟» يقولها وهو يركله بقدمه، ويخشى الصغير على أخيه الطفل أن يصاب بأذى من جراء هذا الاعتداء، فيحتضنه بين أضلاعهكما تحتضن الدجاجة أفراخها، ويعرض نفسه لركلات والده، وهو يئن من الألم.. والعذاب!..

وكان يحدث أن يفيق نايدو لنفسه فترات قصيرة متقطعة، ويحس بهول ما تجنيه يداه وقدماه، فيحتضن الصبي والطفل بين ذراعيه، ويبكي قائلاً: «لن أدخل حانوت الخمار مرة أخرى.. لن أذهب إليه»، ولكنه لا

يلبث، في الليلة ذاتها، وهو عائد من المحكمة بعدكتابة عرائض الشاكين، أن ينسكل شيء، ويفقد عقله أمام منظر الحانة، وتسوقه قدماه إلى الداخل وهو غائب عن وعيه،كمن تخدر بمخدر شديد!

كان «جايارام» يرى الصبية وهم يذهبون زرافات ووحدانا إلى المدرسة فتتوق نفسه إلى أن يصبح واحداً منهم ويقول لأمه:

– إن أخي الطفل قدكبر.. وها هو ذا يلعب بمفرده، دعيني أذهب لألتحق بالمدرسة..

وترد عليه الأم قائلة: «يا بني، كيف تستطيع الذهاب إلى المدرسة؟ ليس لديك قميص ترتديه، وملابسك كلها مليئة بالثقوب..كل واحد سيجعل منك هدفاً لسخريته، فيتحطم قلبك!..».

– اطمئني يا أماه. لقد وعدني جارنا «كتو» بقميص. ولن تخيطي إلا بعض أجزائه، فلن يكون ثمة مجال للسخرية مني. وحتى إذا حدث ذلك، فلن يعني شيئاً.. بحق السماء، دعيني أذهب يا أماه..

– ولكن يا صغيري، إني آسفة إذ أقول لك أنهم سيطالبونك بروبية في كل شهر، للمصروفات المدرسية.

– لا، لا.. إن المدرسة ذات الطلاء الأصفر، القريبة من السوق، لا تأخذ إلا ربع روبية.. فاسمحي لي بأن أذهب إلى هذه المدرسة.

واستعد «جايارام» للمدرسة، وجمع المعلومات التي يريدها، وكان مما يلفت النظر أن يبدي الأطفال الفقراء ذكاء ومهارة أكثر من أولئك المنعمين، الذين يجري لهم كل شيء سهلاً رخاء، في بيوتهم العالية!..

وبعد أن واجهت الأم ووليدها المجتهد قدراً غير قليل من المصاعب والعقبات، حصلا على «طاقية» قديمة، أصلحت الأم من شأنها، وتركته ينطلق إلى المدرسة، في يوم سعيد.. ثم حدث ما حدث، مما قصصناه عليك..

***

قال الصبي «سندرام» وهو يجتاز بابهما: «لقد كلفني الأستاذ أن أعود ومعي جاريام إلى المدرسة».

فقالت الأم: «لا يا بني. ما نفع التعليم للفقراء؟».

– إن المدرس قد طلب مني أن أصحبه معي.. وهأنذا جئت لهذا الغرض.

ونظرت الأم إلى وليدها.

وقال الصبي: «لن أذهب يا أماه.. لا أريد أن أذهب إلى المدرسة».

فقال سندرام: «لا تخف يا جايارام.. إن جميع الأولاد يطلبون عودتك، ولن يطلق أحد منهم لسانه أو نكاته عليك بعد الآن..».

وعاد الصبي يقول في إصرار: «لن أذهب.. لا أريد هذا العلم الذي تقدمه مدرستكم».

وقالت الأم: «عد يا بني من حيث أتيت.. فلن يذهب ابني معك. إذ لا يوجد أحد في البيت يلاحظ الطفل. إني أخرج كل يوم وأشتغل بطحن الفلفل الأحمر. ولابد لي من أن أدع الطفل في رعاية أخيه.. ما نفع العلم يا بني للفقراء وللكادحين الذين كتب عليهم الشقاء؟!».

وعاد الغلام بمفرده إلى المدرسة، مكتئباً..

وإذ عاد «صبانايدو» إلى البيت، افتتح قائمة شتائمه وصخبه بأن قال لابنه جايارام: «من بعث بك إلى المدرسة؟ هل ذهبت إلى هناك لتجعل الأولاد يتندرون علي ويسخرون من؟!»

قال هذا وهو يركل الصبي بقدمه. ولم يحتمل المسكين ألم الضربة، فسقط على الأرض.

وقفزت الأم تعترض سبيل المعتدي. وهي تقول له في غضب النمرة التي تستثار في حماها: «لماذا تركل الصبي؟. إني أنا التي أرسلته إلى المدرسة..».

وأجاب نايدو تحديها بصفعة هائلة على خدها، دفعتها إلى الوراء دفعاً. فاستندت إلى الحائط، وقد دارت بها الدنيا. ولم يلبث أن عاجلها بضربة أخرى، طرحتها على الأرض. وبلغ «نايدو» ذروة غضبه وهياجه، فتناول في يده طاحونة الأرز الخشنة، وكانت قريبة منه، وصاح في وجه المرأة:

– قفي!

وتحاملت المرأة المعذبة. وهي تئن.. وجهدت أن تقف..

– هل أرسلته إلى المدرسة ليدعونيكل من رآه «بالسكير»؟!

قال هذه الكلمات مهدداً، بصوت خيل إليها معه أن جوانب البيت تهتز من تأثيرها، ثم رفع في يده خشبة الطاحونة.. الثقيلة.

وجرى الصبي نحوه ليقي أمه من أذى يوشك أن يقع وصرح قائلاً: «يا أبي. إن أمي لم ترسلني، بل ذهبت أنا بمحض رغبتي، وبرغم اعتراضها طريقي..».

ثم أسرع فأمسك بيدي والده بكل ما أوتي من جهد.

وصاح الأب:

– دع يدي..

وهو بالخشبة على جنب الصبي. فدار حول نفسه ثم سقط على الأرض. ولكنه ظل متشبثاً بوالده، يمسك فخذه بيده.وساقيه باليد الأخرى.

وعلا هدير الرجل مرة أخرى:

– ليحدث ما يحدث. لقد آليت أن أنهي كل شيء في الحال..

وركل الصبي. وقذف زوجته بالخشبة. ولكنها أخطأتها واصطدمت بالحائط.

وعلى صدى هذه الجلبة وهذه الأصوات، تجمعت النسوة المجاورات، وبقي الجيران الآخرون لاعتيادهم على صخب «نايدو» السكير.. ورأى الرجل تقاطر النسوة. فأطلق بعض الشتائم، ثم غادر المكان.

وبقي الصبي في مكانه لا يتحرك. وصرخت الأم وهي ترجف قائلة:

– يا ولدي.. حمتك السماء. لقد قتلتك!.

وعاونها الحاضرون على حمل الابن إلى فراشه، وأتوا له بجرعة ماء.. وكان الطفل مبهور الأنفاس.. لقد تلقى ضربة في الصميم. ضربة قاتلة!.

وبكت الأم في لوعة. وتساءلت في يأس: «ليت شعري هل يعيش!».

وقال الناس ساخطين: «هذا الشيطان المريد! هل يكون يكون الضرب بمثل هذه القسوة؟! لماذا يرخصون بقيام الحانات، التي يفقد فيها الناس عقولهم؟!».

ولم يمض إلا نصف ساعة، وإذا يد الطفل وقدماه تعروهما برودة الموت!.

وصاحت الأم: «يا لي من تعسة! يا بني الغالي.. ماذا تجديك المدارس بعد الآن!».

وانطلقت روح الغلام المعذبة.. انطلقت كطائر يتحرر من قفصه. انطلقت لتلحق بأمها العظمى..

(ترجمها من اللغة التأميلية إلى الانجليزية: و. بايجارو وامي).

تعريف بالمؤلف

* شكرفارتي راجاجو بالاتشاري هو رئيس وزراء ولاية مدارس وأحد أعضاء المؤتمر الوطني المبرزين في الهند. مدى الثلاثين سنة الأخيرة ومن أصدق أصدقاء المهاتما غاندي منذ سنة ١٩١٠.

*** ولد سنة ١٨٧٠ في هوسور بالقرب من مدراس، واشتغل زمناً بالمحاماة.**

*** انضم منذ سنة ١٩٢٠ إلى حركة العصيان المدني. ولما سجن المهاتما عهد إليه بكتابة افتتاحيات الجريدة التي كان يصدرها باسم «الهند الصغيرة» واختير في تلك السنة ذاتها سكرتيراً عاماً لحزب المؤتمر الوطني.**

*** توالت انتصاراته بعد ذلك إلى أن انتخب عضواً في الجمعية العامة لمقاطعة مدراس، عند إجراء الانتخابات العامة سنة ١٩٣٧ – وفي سنة ١٩٣٩ انتخب أول رئيس لحكومة مدراس. وفي سنة ١٩٤٨ تولى منصب الحاكم العام للهند.**

إنني أحاول.. ولكن، إذا لم أقو على نسيانك، فسآتي يوماً ما، وتملك بعيداً، بعيداً...

لحن لم يتم

بقلم: ب. ب. مهتا

قرأنا في رسالة من الهند بعث بها «جون لافاتشيك» أن تعدد الأزواج هو من العادات المألوفة لدى بعض القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية.. ولكن من حسن الحظ أن عدد أفراد هذه القبائل لا يتجاوز مائة ألف. وتبذل الحكومة الهندية قصارى جهدها الآن لتبصير هذه القبائل بمزايا المدنية. وأخذ المصلحون يجوبون أنحاء المناطق الجبلية الشمالية لإنهاض سكانها اجتماعياً واقتصادياً.

ويأمل هؤلاء المصلحون أن يؤدي رفع مستوى المعيشة بين القبائل إلى إقلاعها عن عاداتها الموروثة واقتناعها بعدم تعدد الأزواج، ولكن الزعماء السياسيين في الهند يعتقدون أن تعدد الأزواج عادة تأصلت بين أهل القبائل الجبلية في شمال الهند، ولابد من انقضاء وقت طويل قبل أن يقلعوا عنها.

وقد أقرت الأساطير الهندية القديمة عادة تعدد الأزواج، فقد ورد في «المهابهاراتا» – تلك الملحمة الشعرية العظيمة – أن «أرجونا» ثالث أبناء الملك «باندو» الخمسة، فاز «بدروبادي» إبنة ملك بانشالا. بأن أطلق خمسة أسهم داخل حلقة ضيقة معلقة في الهواء، ولكن أمه قالت له إن كل شيء يجب أن يكون مشاعاً. وهكذا اقترن الأخوة الخمسة بالفتاة، وعاشوا جميعاً في قصر واحد.

ولتعدد الأزواج في تلك المنطقة مزاياه الاقتصادية، ذلك أن قوانين الوراثة في الهند تقضي بتقسيم الأملاك بين جميع أفراد الأسرة، ولكن تعدد الأزواج في مناطق الشمال الجبلية – حيث المواد الغذائية قليلة –

يساعد الأسر على الاحتفاظ بأملاكها كاملة عدة أجيال، كما أنها تقلل عدد الذراري في كل جيل.

وفي عهد الحكم البريطانيكانت قبائل جوانسواريس التي تمارس عادة تعدد الأزواج، تعد من القبائل المجرمة التي لا يجوز لها الاتصال بسائر الهنود، ولكن الحكومة الهندية الحاضرة تحاول إخضاع هذه القبائل للقانون وإرغامها على الإقلاع عن عوائدها الموروثة.

وقد جرت العادة أن يتزوج الإبن الأكبر فتصبح زوجته زوجة لجميع إخوته.

وتتمتع المرأة بإخلاص أزواجها جميعاً، ولكل زوج وظيفته. فيقول الابن مثلاً: «أبي الذي يدير شئون البيت، أو أبي الذي يرعى الأغنام، إلخ...».

ولكن أفراد هذه القبيلة يتناقصون بسرعة عجيبة.. وكان عدد مواليدهم في العام الماضي كله مولوداً واحداً، ونسبة عدد الرجال إلى عدد النساءكنسبة أربع إلى واحد!.

والقصة التالية مستوحاة من عادات هذه القبيلة.

كان الجو بارداً.. والريح الشديدة المحملة بحبات الجليد تعصف كالقضاء العاجل، وتقصف كالرعد الصاخب، أو تزمجر كالوحش الهائج.. وتنطلق في الفضاء الواسع فوق تلك الهضبة المترامية الأطراف،

المنعزلة عن العمران، الرابضة فوق جبال الهملايا التي كادت تبلغ برءوسها عنان السماء!.

البرودة قاسية حادة كحد السيف.. والأعاصير مصطخبة مجنونة كثور هائج أطلق من عقاله، مندفعة كجيش من العمالقة الشياطين..

لم تكن هناك شجرة واحدة، ولا صخرة واحدة، ولا حتى دابة أو حيوان يعترض هجوم ذلك الإعصار البارد الجبار.

ووقفت «لاي» في مواجهة هذه الريح الثائرة، وقد غطت قطع الثلج قبعتها الجلدية وأكتافها، أو كادت، وبلل الجزء الأكبر من ثوبها الذي استطال طرفه حتى أوشك أن يغطي قدميها.. وحولها القمم المرصعة بالثلوج تطل برءوسها البيضاء على المنحدرات الممتدة أمامها، بينما ظهر على مبعدة، عند الأفق، ذلك المخروط الهائل الذي يعرف بـ «كيلاش».. لقد صار جبل الذكريات!.

كانت «لاي» في سن العشرين.. ولكن مسحة الكآبة التي ترتسم في عينيها الضيقتين تترجم قصة طويلة قديمة.. أقدم من سنها الحديثة.

أطلقت لاي تنهيدة عميقة ارتجف لها بدنها.. ولكن هل يكفي هذا لأن يزيل أحزانها أو يخفف من آلامها؟.

لقد عادت تطيل النظر، وحيدة، إلى الأفق الملبد بالغيوم.. أهي تحلم بالمستقبل أم تعود بذاكرتها إلى الوراء لتقلب الصفحات القديمة

المنسية من حياتها.. لقد تذكرت في وسط سهومها أن عليها أن تجمع الغنم قبل أن يحل الظلام ويوغل المساء، ولكن سرعان ما أقنعت نفسها بأنها لن تضطر إلى ذلك فهي مطمئنة إلى أن غنمها قد اعتادت أن تتجمع وتتبع الواحدة الأخرى إلى مكانها المعلوم، في الموعد المناسب.. وسرحت من جديد، تحدق في الأفق البعيد.

هذه هي حالها اليوم.. وهي تختلف عن حالها بالأمس.. في عهد الطفولة.. يا له من عهد سعيد، مضى وانقضى.

كانت هي الابنة الوحيدة لوالديها، وكانا شديدي الحنان والحدب عليها، شديدي العناية بها حتى كانا يحولان دون أن تمتد البرودة أو قطع الجليد إلى خديها المتوردتين، وتجعل الزرقة القاتمة مكان اللون الجميل.. وكانا يطهوان لحوم الضأن المختارة كلما ساقا أمامهما قطيع الغنم في رحلاتهما وراء الكلأ والمراعي، ويخصانها من كل ذلك بالنصيب الأوفى.. لم يدعاها بمفردها قط.. كانا يذهبان مع أفراد الأسر المجاورة، بحثاً عن الحشائش وفي كل مرة يبتعدان فيها عن البيت يوصيان الصبي «جوتام» ابن الجيران بأن يذهب إلى «لاي» ويبقى معها، حتى لا تحس بوحشة.

كانت أمها تقول لها:

– لاي؟.

– نعم، يا ماما.

– الطعام واللبن هناك، في ذلك الركن.. لا تنسي أن تأخذي منهما، لك ولجوتام.

– حسناً.

– ولا تذهبي إلى خارج البيت لئلا تضلي الطريق.

وتجيب الصبية:

– أجل ياماما.

فتعود تخاطبها موبخة محذرة:

– هكذا تقولين دائماً، ولكنك تذهبين مع جوتام بعيداً عن البيت، ولو أن الشيطان الثلجي رآكما لوثب عليكما وابتلعكما في جوفه!.

وتقول الصبية:

– حقاً حقاً.. لن أذهب إلى الخارج..

وعندئذ تدعها أمها وتذهب..

***

إن «لاي» حتى الآن، لا تدري لماذا تركت «جوتام يمسها، عندما رغب في ذلك.. ولكنك في هذا العالم لن تستطيع أن تجد سبباً لكل شيء تصنعه.. إن الحوادث تقع وأنت تتفرج فقط، لا تملك منعها ولا

تعليلها، في ذلك اليوم ذهبت لاي وجوتام ليستحما في النبع القريب.. وكان جوتام حينئذ في السابعة عشرة من عمره.. وعندما وصلا إلى الماء ضرب جوتام صفحة الجليد البيضاء بعصاه، فانفرج عن الماء الصافي الرقرار، واندفع كلاهما في العين الباردة.. وعندما خرجا من الماء كانا كقصبتين في مهب الريح، تصطك أسنانهما من البرد.. وكشأن رعاة التبت الذين لا يملكون مناشف ولا ملابس، جعل كل منهما يدلك جسم الآخر بيديه ليجف.. ولم تفهم «لاي» لماذا أخذ جوتام يحملق فيها كالسكران الذي أحمرت عيناه.. ولم ترنح إلى نظراته، وقالت تنهره:

– جوتام، لا تنظر إلي هكذا!.

وأجابها بخجل وقد أفاق إلى نفسه:

– أوه، لا بأس!.

وابتسمت «لاي» ابتسامة عذبة.

لم تكن «لاي» تعلم، عندما أخذ جوتام يدلك جسمها بيديه، هابطاً بهما من رأسها إلى خصرها، إنها لا ينبغي أن تسمح بذلك.. وهي حتى الآن لا تدري لماذا لم تفعل!.

ومرت تلك الفترة السعيدة سريعاً، كاللحظات السعيدة دائماً، ولم تمتد أكثر من شهرين اثنين.. ثم جاء فصل الصيف، وقدم إليهما ضيف عزيز، رحب به والداها أجمل ترحيب وأكرماه كل الإكرام، كما هي عادة

القوم في تلك الجهات النائية.. وكان هذا الضيف يقتني الكثير من قطعان الغنم، وكان له خمسة أخوه كلهم سعداء.. فأي فرصة مواتية هي خير من هذه الفرصة ينتهزها الوالدان لتزويج ابنتهما «لاي»؟.

وهكذا تزوجت «لاي»، في فصل الصيف، وذهبت مع زوجها إلى قريته النائية.

وحسب العادات والتقاليد المعمول بها في ذلك الجزء المنعزل من العالم، أصبحت لاي زوجة لهذا الراعي ولإخوته الخمسة أيضاً!.. وكان عليها وفقاً لعادة القوم أن تعد الطعام لأزواجها الستة، وأن تطعمهم، وتخدمهم وترعى شئون بيتهم!.

ولكن لاي على كل حال، بحكم العادة أو خلافاً للعادة، إنسان من البشر قبل كل شيء، ولم يكن في استطاعتها أن تحب جميع الأخوة بدرجة متساوية.

لماذا؟ إنه ليس لديها القدرة ولا البراعة لكي تبحث عن السر في ذلك.. في اليوم الأول ذاته، عندما رأت منزلها، الذي لم يكن إلا عبارة عن خيمة حقيرة، ورأت فيه هؤلاء الرجال يصطفون متجاورين في انتظار الطعام، لم تملك نفسها إلا أن تنظر إليهم نظرة المستنكف المتضرر.. كانوا يجلسون في هدوء، ولكن صورتهم لا تروق العين.. كانت أذقانهم وجباههم سوداء من طول التعرض للبرد والصقيع.. وكانوا فوق ذلك من

الوزن الثقيل.. مترهلي الأبدان، كل منهم يحملكتلاً من اللحم المكتنز موزعاً على كرشه وأجزاء جسمه المختلفة.

ولم تستطع لاي إلا أن تقارن بين هؤلاء الرجال الستة وبين «جوتام».. يا لها من فكرة عجيبة وخاطر غريب!.. لقد جهدت أن تطرد هذا الخاطر من مخيلتها، وحاولت أن تركز أفكارها في أشياء أخرى.. ولكن ماذا يستطيع المرء أن يفعل مع أفكاره إذا هي أبت إلا أن تخطر على البال متى تشاء، وكيف تشاء؟!.

كانت العادة تقضي بأن تقيم معكل من هؤلاء الستة مدة أسبوع.. وقد خطر لها وهي تستعرضهم أن تقارن بعضهم ببعض.. هذا الفتى «تالو» لا عيب فيه.. كم تود أن يكون هو أول واحد فيهم يقيم معها!.

ولكن، ما كل ما يتمناه المرء من حياته يدركه!.. إن «لاي» لم يكن في استطاعتها أن تخفي تحيزها للزوج «تالو».. لقد خيل إليها أن الغزال قد يعبر عينيه أحياناً لبعض الرعاة!.

ومضت الأحوال كما اتفق لها، لا كما أرادت.. وذات ليلة جاء دور أكبر الإخوة.. الذي أخذ يرفع عن يديه قفازه الجلدي، ثم قذف به في ركن الغرفة ودعاها قائلاً:

– لاي..

وأجابت بغير اكتراث!.

- نعم..

وقال بلهجة الأمر:

- تعالي..

ولكن لاي لا تستطيع أن تقترب منه، أو ترتمي في حضنه، لقد ازورت عنه ونأت بجانبها، منصرفة إلى ما يشغلها من عمل.

وذهب هو إليها..

وأمسك بها في عنف، وأدار وجهها نحوه وهو يقول:

- التفتي إلي..

وصرخت قائلة:

- لا، لا..

- إذن خذي.. خذي.. خذي.. خذي..

وصفعها بكفه الضخمة أربع صفحات قوية على خديها.

والتهب وجهها من الألم.. واخذت تصرخ، وتنتحب.

فصاح بها:

- أستكي..

واشتعل بالغضب، وأمسك بها من شعرها وجرها نحوه.. وبعد نصف ساعة، عندما زايلته ثورة الغضب، اقترب منها وقال معاتباً:

– أكنت ضربتك لو أنك سلكت معي كما ينبغي؟!. إنك تعنين بتالو وبطعامه، فلماذا لا تفعلين ذلك معي؟!.

ولكن هذا الدرس القاسي كافياً لأن يعلم لاي أن تكون حذرة متيقظة في علاقتها بأزواجها، وأن تتظاهر بالحب والاهتمام لكل واحد منهم.. على حدة.

وأصبحت بعد ذلك كلما أمضى هذا الزوج المسن معها أسبوعاً لم تذق الصفعات خلال الأسبوع إلا مرتين أو ثلاثاً!.

***

كان «تالو» نائماً ذات ليلة في تلك الخيمة التي لم يزد ارتفاعها على ثلاثة أقدام... وفتح عينيه ثم ناداها قائلاً:

– لاي..

وهرولت نحو فراشه وأجابت!.

– نعم يا تالو..

– أظنه قد ضربك كثيراً، أليس كذلك؟.

وكان بذلك يشير إلى أخيه الأكبر.

وقالت «لاي»:

– نعم، ومن غير سبب!.

– ها ها!.

وأخذ يفكر.. ومرت دقائق ساد فيها الصمت..

وعادت لاي تقول، بلا أمل:

– لماذا لا تتكلم معه في هذا؟!.

وتنهد «تالو»، وأجاب:

– لا يا لاي.. لا شيء يمكن عمله في هذه الحالة.

ومضت نصف ساعة، ساد فيها الصمت مرة أخرى، وفجأة تكلم «تالو»:

– لاي..

وقفزت لاي نحوه وقالت:

– نعم؟.

– لقد انقضى وقت طويل منذ أن كنت تضعين الزيت في شعرك، وتعنين بتصفيفه.

قال هذا، وأخذ يداعب شعرها بأنامله، ويسلكها بين ثناياه وابتسمت في دلال، لقد استبد بها الحنين إلى تلك الأيام الهانئة التي كانت تمضيها وهي في بيت أبيها..

والتفتت إليه وقالت:

– لقد انقضى الآن نحو ستة أشهر.. ومنذ أن غادرت بيت أبي لم أعد أستعمل زيت الشعر.. حتى المشط قد ضاع مني في مكان لا أعرفه!.

– هل تعرفين أن السوق التي تزور هذا المكان كل عام، ستقام قريباً.. وحينئذ سنذهب إليها، وتشترين أنت زيتاً لشعرك، ومشطاً، ومرآة إذا شئت؟..

– حقاً؟.. وأستطيع أن أشتري حتى المرآة؟..

وأضاء وجهها بالفرحة..

– نعم، مهما يكن مقدار الصوف الذي نبادل به!.

***

اعتاد تجار «بوهوتيا» الذين يقيمون عند الحدود الهندية، أن يجلبوا إلى تلك السوق التي تقام مرة في العام، الكثير من الأشياء الضرورية التي يحتاج إليها الرعاة، أولئك الذين يحيون في بيداء موحشة مرتفعة، ويقاسون البرد وشظف العيش، وهم ينتجون الكلأ لأغنامهم.

وتتكون السوق من نحو أربعين إلى خمسين خيمة، تطنب في مساحة صغيرة على مقربة من الأكواخ.. ويفد إليها الرعاة محملين بأصواف الغنم وجلودها، ويستبدلون بها الدخان والسكاكين والأمشاط والمرايا وأنواع الخردوات.. وفي مدى شهر واحد تتجمع لدى التجار أكداس الأصواف.. وفي خلال هذا الشهر تدب الحياة في القرية، ويزيد كل كوخ فيها وعاء أو كساء أو حلية أو صورة أو دمية أو مرآة!.

وابتهجت «لاي» أشد الابتهاج.. لقد ذهبت مع أزواجها إلى السوق وهي تمني نفسها بأن تبتاع أشياء جديدة كثيرة.. وإذا ما سعدت برؤية أحد من معارفها، مثل جوتام مثلاً، فستعرف منه أخبار أهلها.. هذه الآمال قد جعلت لعينيها بريقاً ولصورتها حدة، لقد ارتديت ثوبها الجديد خاطتها لها أمها في مناسبة زواجها، واشترت زيتاً لشعرها وصبت منه في تجاعيده فاسترسل ونعم ملمسه وراع منظره.

وهتف بها «تالو»:

– لاي..

وأجابته على الفور:

– ماذا؟.

– نحن الآن ذاهبون لنبتاع بعض الأشياء التي نحتاج إليها، إذا لم يكن لديك مانع.. هلا انتظرتنا هنا؟.

– حسنًا.. ولكن لا تنس المرآة..

وابتسم «تالو» وقال:

– بالتأكيد.. ولكن حذار أن تخبري أخي الأكبر..

وما كادت تلتفت في جلستها ناحية أحد مسالك الطريق، حتى رأت جوتام مقبلاً عليها.. إنه هو بعينه كما خلفته قبيل زواجها.. بوجهه السمح وعينيه الصافيتين، وسمرته المحببة وسحنته الشرقية وعوده الفارع وشبابه الغض..

وهللت كالطفلة هاتفة:

– جوتام..

وومضت عيناه بالفرح وصاح:

– لاي..

واقترب منها.. وجلس إلى جوارها صامتاً، يمنعه الخجل من الكلام.. ومرت خمس دقائق جهد خلالها كل منهما أن يسبق الآخر بالحديث.. أي حديث، وأخيراً قال الفتى:

– لاي..

– نعم؟

ثم ساد الصمت..

وعاد يقول:

– لاي..

– نعم؟.

– هل أنت سعيدة في حياتك الزوجية؟.

– وماذا يهم هذا.. ماذا يعني؟.

– إنه يعني كل شيء بالنسبة لي.

– ولكن عم تسأل؟.

– عن بيتك.. عن أزواجك..

وتأوهت «لاي»، ثم قالت:

– ربما كنت أحبهم.. بل إن علي أن أحبهم!..

– ماذا تعنين.. هل يضايقك أحد منهم؟.

– أجل.. الرجل الكبير يضربني مراراً.

– أوه.. هذا إذن سر المسحة الحزينة فوق وجهك الفتان.. إن برودة الهملايا سرعان ما ألقت ظلها وتركت أثرها في خديك وحول عينيك!.

– نعم، قد تكون هذه هي الحقيقة، لكن أنت.. هل أنت سعيد؟!..

– أنا؟..

– نعم..

– كيف أستطيع أن أكون سعيداً؟.. إن والديك وأفراد أسرتي ذهبوا معاً منذ شهرين نحو نجد آخر يبحثون عن المراعي..وبدا عليها الاهتمام لحديثه، وقالت له:

– وماذا بعد؟.

– وظهر لي على البعد «كيلاش».. جبل الذكريات وقد بدا لي تحت قرص الشمس مضرجاً بالدماء..

وقالت له بشغف:

– وهل تذكرتني عندئذ؟.

فقال في حماس:

– كنت أذكرك في كل وقت، في كل يوم.. كنت أرى ذلك الجبل عند الظهيرة يصطبغ بالحمرة. وفي الأصيل أراه يسيل بالذهب الاصفر، وفي المساء، عندما يرقص ضوء القمر فوق صفحته الثلجية، كان يبدو كقطعة ضخمة هائلة من السحاب، مكتسية بالزرقاء الصافية..

وعادت تستحثه على أخبارها بما هنالك بكل ما في جعبته:

– ثم ماذا؟..

– في النهار، وفي الليل، أظل محملقاً في ذلك المخروط الهائل.. جبل كيلاش، و..

– وماذا؟..

– وأتذكرك..

– ولكن لا ينبغي الآن أن تفكر في..

– هذا حق.. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ خداك المخمليان.. خصرك المرهف.. نظرات الحالمة.. شعرك الساحر.. كل شيء فيك يعيش معي في ذاكرتي، وفي ذهني..

– بل انس كل شيء..

– أجل إنني أحاول بالطبع، ولكن إذا لم أقو على نسيانك، فسآتي يوماً ما وأحملك بعيداً، بعيداً..

– بحق الوجود لا تتكلم هكذا كرجل مجنون!.. ألا تعلم أنهم ستة؟ ستة رجال؟!.. إنهم يقتلوننا شر قتلة!.. إنني يا جوتام أرجو أن أراك، وأن تأتي لتراني.. ويسرني أن أذكر لك أننا سنمضي الشهر القادم في كيلاش، وعلى التحديد في الجانب الشمالي منه، عند الجومفا.

– أفي تلك البقعة القصية؟.. إن ذلك يقتضي مسيرة يوم لكي أصل إلى هناك!

– لكنني أرجو حضورك..

أخذت لاي بعد ذلك، منذ غادرها رفيق الصبا حتى وصلت إلى الجومفا، تنتظر جوتام كأنها تتعجل الأيام..

فكلما هب نسيم المساء، خرجت من خيمتها ووقفت في ظلها تتطلع إلى المجهول، وتتوقع أن يأتي جوتام، وأن غيابه لن يطول.

وأخيراً جاء

– جوتام..

–لاي..

– ها قد جئت أخيراً، لقد كنت أنتظر مجيئك كل يوم!..

– نعم أتيت.. لأجلك.

وحملق في عينيها بشغف

– لما تنظر إلى هكذا؟!.

– أوه!.. هذا على الرغم مني.. إنك تبدين فتانة رائعة!..

– اتعود من جديد إلى مثل هذا الكلام؟!.

– أجل...

واندفع نحوها فجأة، واحتواها بين ذراعيه.

– لا، لا، لا،!.

وأسرعت تخلص نفسها من طوقه حتى أطلقها..

– دعينا يا لاي نذهب بعيداً، في مكان ناء، ناء جداً..

– هل أنت مجنون؟ إنني هنا في أحسن حال.. أما أنت فعليك أن تتزوج، فتنساني..

– أنت التي تقول لي هذا؟!.. إنني لن أستطيع أن أنساك، ثم إني.. إني..

وتحولت لهجته إلى نبرات حزينة، ثم قال:

– هل أستطيع أن أمكث معك الليلة؟.

– ما هذا الهراء؟.. إن هذا الاندفاع بغير تبصر ستكون عاقبته شراً مدمراً.. إنك تركب مركباً وعراً، خطراً..

– لا بأس يا لاي، كما تريدين، ولكن فكري جيداً في الأمر، فلعلك توافقينني على أن نذهب..

– لا.. أن على الإنسان أن يحتمل ما تأتي به الأقدار، وإن على أن أؤدي ثمن غلطتي..

– أصارحك القول لقد جئت وكلي أمل.. ومع ذلك فلن يدركني اليأس والملل.. سآتي إليك.. في العام، وسآمل أن آخذك..مرة أخرى!!..

وفي هذه اللحظة انفلت جدي صغير من الجداء والخراف وانطلق يعدو بين الشعاب.

وصاحت لاي مستغيثة.. إن فقدان رأس صغير من الغنم... رأس واحد، معناه سلسلة من العقاب والمهانة والصفعات ينزلها بها رجلها الذي لا يرحم.. الزوج الأكبر.. جزاء إهمالها.

وهدأ جوتام من روعها، وعدا وراء الجدي..

وقبل أن تزل أقدام الحيوان فوق المنحدر، انبطح الشاب فوق حافة الجبل، وأمسكت قبضته بإحدى أذنيه.

وصاحت «لاي» تحذره.. وحاول هو أن يستعيد توازنه ويعود أدراجه، ولكن الجدي المعلق في الهواء في الهواء كان بكل ثقله يشد الرجل نحو الهاوية..

وذاب الجليد من تحته، ولم يكن هناك نتوء واحد يعترضه، أو يحول دون وقوع الكارثة..

وفي أقل من لمح البصر انجرف المسكين والجدي في يده، نحو وادي الموت السحيق..

وعصفت الريح.. وولولت المرأة.. وأطلقت الكلاب نباحاً كالبكاء.

وعادت المرأة المنكوبة وقد عقد الحزن لسانها وغشيت الكآبة عينيها، وصارت كلما اصطبغ الجبل بلون الدماء تحت قرص الشمس، أو اكتسى بالظلام الرهيب عند أول الليل تفكر في دم الشهيد الحبيب، وتتمتم محزونة والهة «جوتام.. جوتام»..

وتنكفيء عائدة غلى خيمتها التي لا يزيد ارتفاعها على ثلاث أقدام، وتلقى بجسمها المكدود الهزيل فوق فراشها.. وتظل مسهدة لا تجد راحة البال، ولا تعرف راحة البدن!..

لا تقنطي من رحمة الله، ولا تستسلمي لليأس.. هيا ابحثي عن زوجك..

ولدي.. ولدي!

بقلم: سندرام

تمدد «هاري» كعادته تحت الأريكة في إحدى عربات القطار الذاهب إلى «بومبي».. لقد اعتاد أن يتخذ هذا الوضع، الذي يضطر إليه المتهربون من دفع أجرة السفر، خشية أن تمتد إليهم الأيدي الغلاظ التي لا ترحم، وتلقي بهم إلى خارج القطار.. والذين دأبوا على هذا العمل قد اكتسبوا خبرة وحذراً أصبحوا معهما في مأمن من التعرض لمثل ذلك الإجراء العنيف، وأمنوا في سربهم فلم يفكروا إلا في اللحظة التي هم فيما.. وقد أصبح «هاري» هذا على شاكلتهم، لا تعوزه الخبرة ولا يعجزه الزوغان في الوقت المناسب، ولم يعد في قلبه مكان للخوف أو الاضطراب، شأنه شأن كل خبير في مهنته، ولو كانت مهنة التلصص والاحتيال!. لقد زادت متاعبه في الشهور الماضية حتى أثقلت كاهله، وتضاعفت حتى جعلته كمن احتقن بالأم فغاب عن وعيه... وعن شعوره!.

كان القطار ينهب الأرض نهباً وهو يمر بالبلاد واحدة بعد الأخرى.. وأشار أحد الجالسين في الديوان إلى مصانع النسيج الكبريفي «ليندلو».. وذكر اسمها مقروناً بالاعجاب... وبالذكريات، وماكاد «هاري» يلتقط هذا الاسم حتى اهتز بدنه كمن مسته كهربا أو لدغته حية!.. وسرت فيه قشعريرة شملتكل جارحة من جوارحه.. وشرد فكره بعيداً.. وكانت هذه هي المرة الأولى – منذ شهور عديدة – التي يطلق فيها «هاري» لتفكيره العنان!.

عادت به الذاكرة إلى الفترة التيكان يعمل فيها في تلك المصانع.. لقد طرد منها ولكنه حتى الآن لا يجد سبباً يبرر هذا الطرد!.. كان ذلك

منذ أكثر من عام.. وكان صاحبنا حينئذ عاملاً في مصنع النسيج، أعزب يعيش وحيداً في غرفته المتواضعة القريبة من المصنع، وعندما اشتعلت نار الحرب،كثرت الأيدي العاملة، واقتضت السياسة الجديدة أن يخرج العذاب ليخلو المكان للمتزوجين.. وخرج هاري فيمن خرجوا، وبحث عن الزوجة الصالحة وتزوج.. ثم عاد بعد بضعة شهور باحثاً عن العمل في هذه المرة.. العمل الذي تزوج لأجله، فإذا به يفاجأ بأنه لم يعد هناك مكان خال، ومضى يجرر أذيال الخيبة، ويضمر شعور الاستياء.. وكان أمثاله المستاءون يتزايدون باطراد!.

وفي تلك الأيام كان الزعيم العمالي «براتاب سنغ» يزور تلك المنطقة، وخطب في إخوانه العمال يدعوهم إلى اليقظة والدفاع عن حقوقهم.. وقال لهم أنه من الظلم البين أن يشقى آلاف العمال أو يسخروا أو يستغلوا لينعم أفراد قلائل يكنزون المال أو ينفقونه في ملاذهم وعبثهم.. فليتحدوا وليتعاونوا على ألا يقعوا فريسة في أيدي السماسرة أو الجشعين، وليأبوا الهوان والظلم والسخرة في أي شكل من أشكالها.. ولو اضطرهم الدفاع عن كيانهم وحياتهم إلى محاربةكل خائن، وشنق الأطفال قبل الكبار.

وقوبلت كلمات الزعيم الحماسية بالترحيب الحار، واستقرت معانيها في بعض الرؤوس، ومن بينها رأس هاري نفسه.. لقد التهب بالغيظ، وجرى الدم حاراً في عروقه يطلب الثأر!.

وأمضى الأيام وهو يمرن عضلاته على العمل المقبل.. الخطير، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعمل باقتراح الزعيم «برتاب».. فقد كان ذلك يتطلب اتحاد جميع العمال، وهو لا يأمن أن يكون من بينهم طابور خامس.. غير أن الوصية بالدفاع عن الحياة ومقاومة السخرة والإفناء ولو بالشنق كانت لا تزال تفعل فعلها بنفسه، وتحتل جوانب تفكيره.. إن الغاية هي إشعار هؤلاء الظالمين بأن هناك شعوراً بالاستياء يتزايد ضدهم، حتى يكفوا عن التمادي في خطتهم التي تقوم على التسخير والاستغلال الظالم.. واختمرت الفكرة في ذهنه حتى انتهت به إلى قرار.. قرار بأن يلوي رقبة ابن «صاني لال» الطفل، للعظة والعبرة!.

وتأهب للفرصة التي تسنح له..

وبينماكان هاري يتسكع ذات يوم قريباً من المصنع، إذ لمح فرصته التيكان ينشدها.. قدمت زوجة صاني لال – الرجل الاستغلالي الظالم – وأطفاله، لزيارة المصانع، كعادتهم في بعض الأيام، وتخلف عنهم أصغر الأطفال وهو يتمسح بأحد جوانب السور الخارجي للمصنع.. ورآه هاري وهو يرفل في الحرير، ويتحلى بالذهب واللآليء!.

ولاح له أن الطريق خال.. ورنت في أذنيه من جديد كلمات براتاب واضحة قوية: «أعملوا أيديكم في رقابهم.. أولئك الظالمين الذين طردوكم.. وأطفالهم معهم.. لن يكون هذا عدواناً، فإن موت حفنة منهم أعدل من شقاء خمسة آلاف..».

وخطا الرجل بضع خطوات نحو الطفل.. ونظر إليه وهو ساكن ليس في قلبه شيء من الخوف.. نظر الرجل الذي يتحرك أمامه وفي ذهنه نية ارتكاب جريمة.. نية قتل!.. كان كل عضو من أعضائه يفشي قصده.

ولم يلحظ «هاري» والد الطفل وهو يقترب من ذلك المكان متفقداً تعريشة التفاح.. وقد حانت منه التفاتة نحوه فإذا تقاطيع وجهه وحركة يديه تدعو إلى الريبة، وحسب أن الرجل انما ينوي أن يسلب اللالىء والذهب من طفله، فصاح يستنجد بخدمه.

والتفت هاري مذعوراً، فوجد الرجال قد أحاطوا به والرئيس يقف أمامه وهو يتميز من الغيظ، فسقط على الأرض من تأثير المفاجأة.. وقذف الرجال به خارج المنطقة بعد أن هددوه بأنهم سيطلقون عليه الرصاص إذا ما اقترب من المصنع مرة أخرى.

***

وتقف «هاري» فجأة عن الاسترسال في الذكرى، عندما سمع وهو في مخبأه ذاك تحت الديوان آهة حزينة تأتي إليه من الجانب الآخر للديوان حيث الأريكة.. وخيل إليه أنه يعرف هذا الصوت ويألفه، ولما سمع الكمساري ينادي وهو يدخل: «التذاكر من فضلكم» عرف سبب هذه الآهة!.. والتفت بحذر ينظر من أحد الثقوب، فرأى الكمساري وهو يراجع تذاكر خمس من النساء وثلاثة من الرجال يجلسون على الأريكة

الطويلة.. ثم التفت إلى السيدة الشابة الجميلة التي تفترش أرض الديوان وتحمل طفلاً في حضنها. وصاح: «التذكرة؟».

واضطربت المرأة، وحاولت أن تقف ولكن خانتها قدماها.. وضعفها..

– أهذه أنت أيتها الفاجرة؟!.

وأمسكها من شعرها، وأدار وجهها الشاحب نحو الضوء لتيحقق منه، ثم أردف قائلاً:

– أتراك تنوين أن تتصيدي كل إنسان وتبذلي له جسدك؟! سأقذف بك عند أول محطة!.

وتململ هاري في جلسته في ضيق.. ولو وقع مثل هذا الاعتداء بالقول أمامه قبل الآن لأقدم على قتل هذا الرجل جزاء له على وقاحته.. أما اليوم فقد اعتاد الذل والهوان، والسكوت على الضيم.. بل اعتاد أن يوطأ بالنعال الثقيلة!.

ومر الكمساري بالقسم الباقي من الديوان ومضى بعد أن أدى عمله.. مضى من غير أن يلحظ «هاري» في مخبأة البعيد عن العيون.. وعاد «هاري» ينظرمن خلال الفرحة التي أمامه.. ورأى المرأة تسبل رداءها وتنخرط في نواح مرير، وراح طفلها يبكي ويصرخ. وتأثرت إحدى الجالسات – وكانت سيدة ثرية متقدمة في السن – تأثرت بما رأت، ورق

قلبها للمرأة، فالتفتت إليها ودعتها إلى الجلوس على الأريكة إلى جوارها.. وساعدتها على الانتقال من مكانها حتى تحاملت على قدميها، وجلست فوق المقعد وهي تتلفت وجلة هنا وهناك، كالغزال المذعور من ملاحقة الصائد!.

وقالت لها السيدة العجوز:

– إنك تبدين لي يا ابنتي فتاة لا ينقصها الجمال ولا الحسن والفتنة. فكيف اتفقت بك هذه التعاسة الباكرة؟ هل هجرك رفيقك أم خدعك أحد الذئاب؟ إن الكمساري قد استعمل في خطابه لك ألفاظاً قاسية نابية.. أتراه يعرفك؟.

ومر بعض الوقت قبل أن تستطيع السيدة الشابة الكلام، لتأثرها.. وحين تمالكت نفسها، أخذت تروي لها من خلال دموعها قصة حظها السيء..

– عندما ولد هذا الطفل، منذ سنة مضت، تركني زوجي.. لم يكن قادراً على أن يتكسب ما يكفيني ويكفيه، وكل جهوده أخفقت في النهاية، وترك المنزل في أحد الأيام ثم لم يعد!.. وأمضيت شهرين وأنا أعيش على إحسان الجيران، ولكن إلى متى يستطيع المرء أن يعيش هكذا؟.. بحثت عن عمل فلم أجد، وأخيراً هجرت أنا الأخرى البيت وليس في يدي خردلة واحدة!.. وصور لي غبائي أني قد أستطيع إذا رحلت عن «بنارس» أن أجد عملاً، أو على أسوأ الفروض أعيش على

إحسان المئات من الحجاج والسياح الذين يتدفقون على تلك الأماكن كل يوم.. وأرغمتني حالة المسغبة التي كنت فيها على ركوب القطار بغير تذكرة.. واستطعت أن أقطع في السفر تسع ساعات من غير أن يكتشف أحد أمري.

«وحدث في ساعة متأخرة من الليل وكان القطار يتحرك من إحدى المحاط، أن جاءني «الكمساري» وكان رجلاً فظاً أسود اللون ذا عينين جاحظتين وأنف ضخم، وطلب التذكرة، ولما لم يكن لي دراية من قبل بمثل هذا الموقف فقد تحسست قدميه وقلت له ضارعة إني جد فقيرة.. فقال بغير اكتراث: «ستنزلين في المحطة التالية».

«قالها ومضى.. ولكنه رمقني وهو في طريقه بمؤخر عينيه، وخصني بنظرة مريبة، فأدركت لتوي أن المتاعب لا شك في انتظاري، وفكرت في أن أقفز من نافذة القطار لا تخلص مما أنا موشكة أن أقع فيه.. ولكن هذا الطفل ورغبتي في أن أنقذه بأي ثمن قد صرفاني عن هذا التفكير.

«وعندما وقف القطار في المحطة التالية، أسرع الرجل إليَّ، ودعاني من الديوان وطلب إليَّ ان أغادر القطار وأن أنتظر تحت شجرة عند طرف الرصيف، وحذرني من أن أتحرك من مكاني الذي عينه لي، قائلاً إنني إذا تحركت فسيلقي البوليس القبض عليَّ، ولم يكن هناك بد من أن أطيع.

«وبعد أن تحرك القطار وجدت الرجل يأتي إليَّ ويطلب مني أن أتبعه إلى المدينة.

«ولم أكن آمنة على نفسي من صحبة هذا الرجل في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولما رأى ترددي وامتناعي، قال يهددني: «إذا لم تتبعيني فسأسلمك بغير تردد لأيدي البوليس.. وفي هذه الحالة قد يحكم عليك بعشرة أضعاف الحكم المعتاد».

وتبسم الوحش ابتسامة ماكرة تسفر عن غرضه الدنيء.. وكما قلت لك،كان همي منحصرًا في أن أنقذ طفلي!..».

وأمسكت المسكينة عن الكلام، وانهمر الدمع غزيراً على وجنتيها الشاحبتين..!.

وقطعت السيدة العجوز الصمت بكلمات تحمل آيات عطفها وإشفاقها..

– إذن فقد سقطت فريسة لهذا الوحش!..

وضاعفت هذه العبارة من انخراطها في البكاء، ولم تكن تدري أن روايتها قد أثارت عاصفة هوجاء في صدر شخص آخر.. لقد امتلأ صدر «هاري» – الذي كان يستمع إلى روايتها – بالغضب والغيظ، وأخذ جسده يتلوى ويتململ.. ولكنه تمالك نفسه ليصغي إلى المرأة وهي تستأنف كلامها.

قالت السيدة الثرية:

– وبعد..؟

– ماذا بعد؟.. لقد وجدت نفسي في صباح ذلك اليوم المشئوم ملقاة في فناء المحطة ومعي روبية في يدي.. لقد فكرت في أن أقذف بها في وجه الرجل، ولكن الطفل.. كان تفكيري في طفلي هو الذي يحملني دائماً على غير ما أحب، ويدفعني إلى ركوب الأخطار.. كيف كنت أواجه ذلك اليوم وليست معي هذه الروبية؟.. إذا منعت نفسي عن الطعام فلن يجد الطفل ما يرضعه!.

وتوقفت هنيهة لتمسح دموعها، ثم واصلت حديثها:

– ركبت القطار حتى وصلت إلى «بنارس» وهناك وجدت والألم يحز في نفسي إنكل إنسان يتحدث إلى بشيء من العطف إنما كان غرضه دنيئاً.. وأن كل فرد خبيث النية – وما أكثرهم – يفترض أنكل امرأة يصادفها لا تكون إلا ساقطة تبذل جسدها بغير حفاظ.. ويتطلع إلى كل واحدة بعينين شهوانيتين لا تشبعان وهو يمني نفسه بأنها لن تفلت منه ولن تتأبى عليه..!

«لقد تنقلت من باب إلى باب، لا مستجدية، بل طالبة عملاً وكان الحائل دائماً هو وجود الطفل، إنهم يريدون خادمة بغير حمل يشغلها، وكانت النسوة يتوهمن أني قد أتيت بالطفل عن طريق غير شريف، ويقلن لي متهكمات أن بيتاً بعيداً عن العيون هو أليق لي، لقد أسفرن عن خبث

طواياهن، وإني لأعلم أن الحظ وحده هو الذي حال بينهن وبين هذه البيوت المريبة!.

«وبعد لأي استطعت أن أحمل إحدى السيدات على أن تستخدمني عندها.. وظننت أن متاعبي قد انتهت عند هذا الحد.. كنت أظن ذلك إلى أن تسلل إليَّ سوء حظي مرة أخرى، في الشهر الماضي..

«عاد إلى البيت الابن الوحيد للسيدة التي أعمل عندها، عاد من «بورما» ليتزوج، وكان يبدو لي أنه رجل طيب الأخلاق ولذلك لم يتطرق إلى ذهني أي تفكير في أن أخشى على نفسي من اقترابه مني، وفي ذات ليلة دخل الشاب غرفتي، وحاول أن يمسك بي، ولما رحت أقاوم بدا ظلنا من خلال الضوء ممتداً خارج الباب، حيثكانت أمه ترقب حركة الظل وتظن بي الظنون، فما أن طلع الصبح حتى طردتني شر طردة!».

– إنه الطفل، أيتها المسكينة!.. هذا كل ما في الأمر، فاجتهدي أن تنسي كل شيء، فمن الواضح أن ما حدث قد وضع في ظروف خارجة عن إرادتك.

– من أين لي الراحة يا أماه؟.. إني لا أستحق أن أجلس إلى جوارك بعد أن فقدت أعز ما تملكه المرأة.. الشرف! لقد أضعته، ولذلك جرؤ الكمساري على أن يقول لي «يافاجرة» وأحسب أن بائسة مثلي لن تستطيع أن تطمع في شيء من هذا الشرف الذي لا يعادله شيء في الوجود!.

– يا بنيتي هوني على نفسك.. حقاً إن فقد الشرف أمر خطير يحطم القلب، ولكن الذي يظن أنه أضاعه يجب أن يراجع نفسه فيما إذا كان قد فعل ذلك راغباً أو راغماً.. لقد كنت في مأزق لا فكاك منه، على أن طفلك قد سلبك العقل والتفكير، فلم تفرطي في شيء بإرادتك ولا أنت استسلمت وأنت قادرة على المقاومة، بل كنت في المأزق كالمحاصر الذي قطع الناس عليه الطريق وسلبوه ما معه!.. إن ما وقع لك لم يقع إلا بسبب الدفاع عن النفس، دفاعك عن نفسك وعن طفلك.. فأنت – بهذا الاعتبار – لم تفرطي في شرفك ولا ابتذلت نفسك لأحد ولا استطاع أحد حتى هذا الوحش أن يخدش كرامتك أو يمس روحك أو يحول عواطفك أو مشاعرك نحوه، وحسبك هذا لكي ترضي عن نفسك ولا تحتقر بها، وتلتفتي لطفلك الذي ضحيت لأجله بكل ما تملكين، وذقت لأجل رعايته وحمايته كل هذا الهوان!.. هلا خبرتني عما إذا كنت عائدة الآن أملاً في ملاقاة زوجك؟.

فأجابت:

– لقد صرفت حتى الأمس آخر روبية تبقت لدي من نقودي التي كسبتها من خدمتي، وقد خطر ببالي فجأة أن أبحث عن زوجي في المكان الذيكنا فيه معاً، لعلي أجد الرجل الذي وفيت له ولطفله، قبل أن يستبد بي اليأس وأصنع بنفسي شيئًا أخرتني عنه الأحداث حتى الآن..

وقالت المرأة الثرية الطيبة القلب:

– لا تقنطي يا بنيتي من رحمة الله، ولا تستسلمي لليأس.. هيا ابحثي عن زوجك.. هذا الرجل البائس الذي هجرك.. رجلك الذي لا يقدر المسئولية ولا ينهض بالتبعة!.. فإذا لم تجديه فتعالي لأدبر لك ولولدك كل شيء..

قالت هذا، ثم نفحتها ببعض المال، وأعطتها عنوانها.

ووقف القطار، وخرج «هاري» من مخبأه وهو يتطلع إلصاحبة المأساة ليرى أي إمرأة هي.. ولشد ما كانت المفاجأة حين اكتشف إنها.. إنها زوجته، إنه هو الزوج..! الزوج البائس الذي هجرها، ولم يقدر المسئولية ولا نهض بالتبعة.. وشعر كأن كل كلمة من الكلمات التي سمعها مطرقة تدق رأسه وتحطم عظامه.. كان هو الآخر عائداً إلى حيث ترك زوجته ليرى هل هي ما زالت باقية على قيد الحياة، وماذا فعل الزمن والقدر بها.. وها هو ذا يراها أمامه بحالتها وسرها وسريرتها.. وأتيح له في مخبأه أن يستمع إلى الاتهام والدفاع، ولم يضع وقته في المقارنة والموازنة، بل أطلق العنان لعاطفته، ورأى بعد هذا العذاب الطويل زوجته الضالة تعود، وروحها الحائرة الشقية المعذبة تهتدي إليه، وتتخلص من أوضارها وترفرف حوله.

وكان لقاء حاراً لم يشهد الناس له مثيلاً!.

وحين التفت الرجل ليرى هذه المحسنة الكريمة، الثرية التي طمأنه فعلها إلى ذلك أن الخير قد يجد طريقه حتى بين الأغنياء، أدهشه أن يكتشف أنها ليست إلا والدة «صافي لال» نفسه.

سبحان الله!.. إن الخبز الذي حرمت منه الزوجة بسبب ما صنعه الابن، قد عاد إليها عن طريق الأم!.

لم يكن «حامد» يعلم أن زوجته الوفية ستخط في روايته فصلاً رائعاً، أو إنها ستختمه بنفسها أروع ختام

هذه هي الحياة

بقلم: ج. بير

هذا رجل قد لاح له من بين أحزانه، أمل جديد.. إن «حامداً» من زمرة الكادحين، يحصل على قوته من شق القلم.

إنه مازال كاتباً مغموراً يعمل عملاً متصلاً في إحدى الصحف، يتسقط الأخبار ويوافي بها صحيفته، ولا يكاد يجد فسحة من الوقت ليخلو إلى فنه، ويؤلف إحدى الروايات لكي تطبع وتنشر في كتاب!.

وضع «حامد خان» قلمه وأقنع نفسه بأنه قد أنهى يوماً آخر من حياته.. الشاقة!.

لم يكن أمامه سوى المقالة المطلوبة لطبعة يوم الأحد.. وحتى هذه المقالة كانت قد استوت له فكرتها، وكتبت سطورها الأولى، ولن تطلب منه قبل يومين، في حين أنه يستطيع أن يتمها في يومه التالي..

كان الظلام والصمت يخيمان على البيت وهو عائد إليه في المساء، فضلاً عن الوحشة المقبضة التي خلفها ذهاب «موشيراً»، زوجته الوفية!.

وصعد درجات السلم، ووقف في الممر المظلم، ونظر إلى الباب، باب المسكن الذي كان حيناً ما يحتويهما – هو وزوجته – ودفعه، وأضاء النور.

لقد اختفت الآثار التي كانت تدل على «موشيرا» زوجته، عندما كانت تملأ البيت.. الستائر التي تغطي النوافذ قد تغيرت، وأغطية

الوسائد استبدلت بها سواها، وملاءة السرير قد رفعت عنه ووضعت ملاءة أخرى لم تستعمل من قبل.. لاشك أن اليد التي فعلت هذا قد فعلته عن قصد، لعلها أرادات له أن ينسى الأمس،

– نعم، نعم يا حبيبي، إلى أن انتهى من تأليف الكتاب...

قالها متلطفاً معه، ثم أرسل آهة حرى.. كان من الصعب عليه أن يصارح الصبي بأن الكتاب لن يتم، وقد رأى الكذب عليه أهون من أن يفجعه في آماله.

وهكذا واجه حامد الحقائق.. فسعى إلى عمله منذ اليوم التالي لوفاة «موشيرا»، وكان موقف زملائه منه موقفاً حكيماً، فلم يتفجعوا ويتباكوا أمامه كما يفعل المراءون، واكتفوا بكلمات العزاء أو المواساة، وسارت الحياة عقب ذلك في مجراها الطبيعي.

***

خلع حامد ملابسه، وساورته الرغبة في أن يرى ولده ويطمئن عليه وهو في سريره.. ولكنه فضل ألا يزعجه، فربماكان غارقًا في أحلام سعيدة.. وجلس الرجل على سرير وراح يدخن، وأحس بشيء من القلق أذهب النعاس من عينيه، فأطفأ لفافته وهب واقفاً، ثم أتجه إلى الغرفة التي اعتاد أن يجعلها مكتباً له.

وفكر في أن يلقى نظرة على الصفحات التي كتبت من الرواية التي كان قد شرع فيها من قبل، وكان يضعها فوق ركن من مكتبه، منذ الليلة التي رحلت فيها «موشيراً»، قبل سبعة أيام.

كان الكتاب من وحي اقتراحها هي، وفكرتها.. قالت له ذات يوم بعد أن روى لها قصة زميل ألف كتاباً ولقي رواجاً «لماذا لا تؤلف أنت أيضاً رواية في كتاب؟» ولما أجابها بأن هذا عمل ضخم، وأنه لا يكاد يجد فسحة من الوقت للكتابة بعد عمله الشاق المرهق في تسقط الأخبار للجريدة، قالت له مشجعة: «إنك تستطيع بلاشك أن تفعل ذلك يا عزيزي، لا تتهيب ولا تتقاعس، فما عليك إلا أن تتخيل أنك تروي قصتك لي، لا للناس، وتكتبها بمثل هذه البساطة التي ترويها لي بها.. تفعل ذلك جزءاً فجزءاً، وتكتب بضع صفحات في كل ليلة...».

ولما رأته متردداً قالت له: «إفعل هذا لأجلي.. لأجل سروري».

عندئذ لم يملك إلا أن يشرع في وضع روايته..

وكان عملاً صعباً في البداية، وكان هو كثيرًا ما يفكر في أن ينحى القلم ويكف عن الكتابة.. ولكن «موشيرا» كانت وراءه دائماً، كانت تسنده وتشجعه وتحفزه على المصابرة والمثابرة، وكانت تقول له دائماً: «أروح إلى نفسك بأنك تقص عليَّ روايتك..».

ونجحت الفكرة، وتغلبت روح الأمل على نوازع اليأس، وأخذت الصفحات تطرد، وتتضاعف، وتكون هيكل الرواية أكمل تكوين، حتى اكتسبت المناعة ضد عوادي الفناء، وعوامل العفاء!.

كانت «موشيراً» فخورة بزوجها، تجلس إليه أو تقف بجانبه في كل ليلة، وكلما فرغ من كتابة صفحة، مرت عليها بعينيها، ولمعت فوق شفتيها ابتسامة الرضا، والاغتباط.. وكان هو لا يعبأ بمرور الوقت وهي بجانبه، حتى إذا نال منه التعب، رأها تقدم له فنجاناً من القهوة، فيرتشفه، بينما تتناول هي بعض أقراص الحلوى، ويدب في قلمه النشاط من جديد، ويسترسل في عمله..

وكانت تمني نفسها بأشياء كثيرة.. كانت لها آمال كبار، وقد رتبت في ذهنها كل شيء.. سيقدر لهما يوماً أن يشتريا منزلاً، وسيكتب حامد روايات أخرى، وسيغير من نظامه الراهن، فلا يظل من الكادحين المغمورين الذين يعملون بغير راحة ولا جزاء، عملاً مرهقاً في جريدة محلية.. وسيطوفان العالم يوماً ما.. ومعهما ولدهما..

أما هو فلم يكن لديه فكرة حتى ذلك الوقت عن أن زوجته الوفية ستخط في وقت قصير فصلاً رائعاً في كتابه ذاك، أو أنها ستختمه بنفسها أروع ختام، وأبلغ ختام.. لم يكن يعلم حتى آخر لحظة أن شريكة حياته وشريكة عمله وجهاده لن تعيش بعد ذلك.. ولا هي كشفت عما تعانيه، بل كانت كلما جاءتها الأزمة القلبية تكنم آلامها وتخفي داءها، وتتحامل

على نفسها لكي تبدو عيناها لامعتين دائماً، وصوتها متفائلاً ابداً، والبسمة المشرقة المشجعة تشيع في وجهها.. لا تفارقه!.

***

ألقى حامد نظرة على الصفحات التي فرغ من قبل من تدبيجها، ومرت لحظة رهيبة فكر خلالها في أن ينتزع هذه الأوراق ويمزقها جذاذات، ويلقى بها بعيدًا، ويكسر القلم فلا يسترسل في مثل هذا العمل الذي خيل إليه أنه قد جنى عليه وعلى هناءته.. كان الأحرى به عوضاً عن تلك الساعات التي أمضاها في كتابة مؤلفه، أن يمضيها بجانب زوجته التي راحت شهيدة الوفاء، وضحية الإخلاص!.

وبينما هو يهم بأن يصنع ذلك، إذ صافحت أنفه رائحة قهوة، القهوة التي اعتاد أن يتناولها من يد زوجته!.. ورفع رأسه وتشمم هواء الغرفة.. ليس هناك أدنى شك في ذلك، ولكن كيف يكون هذا؟ لقد انقضى العهد السعيد، ولحظات الهناءة التي كان يشرب فيها القهوة، ولم يعد في هذه الغرفة إلا ما خلفته الذكريات الأليمة.

وظل برهة لا يدري ماذا يصنع، ثم وقف واتجه ناحية المطبخ.. وهناك فوجىء مفاجأة أخرى..

لقد وجد فتاه الصغير «جاڤد» يقف بالبيجاما تجاه الموقد، وفوق البيجاما روب حريري أهدته إليه أمه في عيد ميلاده الأخير، حين كانت سنه لا تتجاوز التاسعة والنصف.

– ماذا تصنع هنا يا ولدي في هذه الساعة المتأخرة؟.. لقد ظننت أنك في سريرك، مستغرق في النوم!..

وأجابه الصبي وفي عينيه آثار النعاس:

– إني أصنع لك القهوة، يا بابا.. هكذا أوصتني أمي.

– القهوة، أوصتك بها أمك؟!!.

– نعم يا بابا..قالت لي «لاتنس كلما رأيت بابا ساهرًاً في مكتبه – يكتب ويؤلف – أن تعد له القهوة، وأن تقدمها له».. وهأنذا أعدها، وسأحضرها إليك في المكتب على الفور.. هل يرضيك هذا يا بابا».

وأجاب الوالد وهو ينتزع الكلمات من فمه في صعوبة:

– طبعاً. طبعاً..

وغادر المطبخ وعاد أدراجه مثقل الخطى إلى مكتبه.. لقد انقلبكل شيء رأساً على عقب.. لم يعد فريسة لليأس القاتل، أن يسلمه بعد الآن زمام نفسه، ويطلق الدنيا، ويحطم العمل الذي بناه، ومعالم المجد التي أقامها مع زوجته..

وأحضر جاقد القهوة، وقدم الفنجان فوق الصينية،كماكانت تفعل أمه، ومعهكوب اللبن ووعاء السكر، وخيل إليه أنه يرى طيف امه في

شخص جاڤد.. وقرب الطفل إليه في رفق، وطوقه بذراعه، وقال له وهو يحنو عليه:

– ولكن متى حدثتك ماما عن القهوة يا جاڤد؟

وتردد جاڤد قليلاً ثم قال:

– في المرة الأولى التي زارها فيها الطبيب.. لقد نادتني بعد ذهابه وقالت إنها ربما تذهب بعيداً، بعيداً جداً.. وأنها إذا ما فعلت ذلككان علي أن أحضر لك القهوة بدلاً عنها، وأوصتني بألا أنسى ذلك، إذاكنت أحبها حقاً..

وكان الصبي يروي هذه القصة والبكاء يكاد أن يغلبه.. وسالت دمعتان فوق خديه، وترقرقت دمعتان في عينيه.. فقد ذكرته القصة بفجيعته في أمه!.

– وهل ذكرت لك أيضاًكيف تصنع القهوة؟!.

ولم يقو الطفل على الإجابة في هذه المرة، وئز على أسنانه، وارتعش فمه الصغير وهو يتمالك نفسه جاهداً.

وقال الوالد يسري عنه، وهو يربت علىكتفه:

– أحسنت صنعاً يا ولدي.. إن بابا فخور بك.. تعالى يا حبيبي، تعالى اجلس إلى جانبي كماكانت ماما تفعل..

وقام إلى دولاب في الحائط، وملأيده بالحلوى، وقدمها إليه وهو يقول:

– ضع هذا «الملبس» في فمك وتحلبه، بينما أشرب أنا القهوة، فهكذا كانت ماما تصنع..

وأخذ الطفل أقراص الحلوى، وتناول واحدة وجعل يتأملها قبل أن يضعها في فمه.. تماماً كما كانت أمه من قبل تفعل.. ما أشبه الصبي بأمه!.. لقد ترك الوالد طفله لأمه لكي تتولى شئونه، وتتعهد بالرعاية.. وكانت هي تقول لزوجها أنه يشبهه، ولكنه الآن وهو يتأمله قد أيقن أنه شديد الشبه بأمه.. الملامح، والرقة، وحركاته الرشيقة، والعاطفة الفياضة.. كلها تذكره بأمه.. بل لقد شعر بأكثر من هذا.. شعر بأنه طالما كان جاهد في البيت، فإن شيئاً من أثر أمه، من روحها، ما يزال هناك يحس به إحساساً قوياً، ويؤمن به إيماناً أقوى!..

***

ولفت حامد وجه الصبي إليه، وقال له فجأة:

– جاهد، أتريد أن تذهب مع خالتك شيرين كما قلت لك من قبل، أم تفضل أن تبقى هنا، معي؟..

ونظر الصبي طويلاً إلى والده، واهتزت كل عضلة من عضلات وجهه، وجهد من جديد في أن يمسك دموعه وهي تطفر من عينيه، ثم قال:

– بل أريد أن أبقى هنا، يا بابا.. أريد أن أبقى معك لأرعى شئونك وأعد لك ما تطلبه.. إن ماما تحب ذلك..

ورفع حامد الطفل وضمه إليه، وطبع على خده قبلة أبوية حارة، وقال له:

– حسنًا.. ستبقى إذن معي يا حبيبي، وستظل بجانبي..

ووضع الصبي على ركبتيه واستأنف قائلاً:

– سترى أن الحياة لن تمضي في يسر يا بني.. إننا هنا وحيدان، غريبان في هذه الحياة، إننا روحان في قارب بغير دفة ولا مجداف، وسط بحر واسع متلاطم الأمواج، ولكننا سنملط الزمام على كل حال.. نعم، سنتغلب على كل العقبات، والصعاب والأخطار...وسنصل على الشاطيء معاً.. عن طريق ما.. وأول كل شيء سأعمل على أن أفرغ من كتابي هذا، ثم..

وفجأة رأى بارقاً جديداً من الأمل.. إنه ليس وحده، بل هناك «جاڤد» إلى جانبه.. سيعمل من أجله، وسيستمد منه القوة والصمود.. لا ينبغي أن يتم الكتاب من أجل «موشيرا» فقط، بل أيضاً لكي يعين

جاهد على مواجهة الحياة، والتغلب على الصعاب التي واجهت الصغير وهو يخط الصفحات الأولى من كتابه.. كتاب الحياة.. إن موشيرا سترقد حينئذ قريرة العين.

والتفت الطفل إلى والده وقال له في براءة:

– ولكن القهوة كادت تبرد يا بابا.

وقطع الرجل الذي عركته الأيام تفكيره، وقال ملاطفاً:

– نعم يا ولدي..

وأفرغ الفنجان في جرعة واحدة.. كانت قهوة عجيبة..بنها أكثر من اللازم، ونضجها أكثر مما ينبغي، ولكنه مع ذلك أحس بأنه أحلى قهوة وألذها مذاقاً، وأطيبها نكهة..

وناما ليلتهما ليستقبلا عهداً جديداً.. فهذه هي الحياة..

– لقد كانت غلطة يا أبي.. ما كان يحق لي أن أذهب بعيداً في عنادي...

عادت إلى زوجها

بقلم: ر. س. ماني

أعانت الأم طفلها على ارتداء ثيابه.. ولم تتركه حتى اطمأنت إلى هندامه وهيئته. ثم أجلسته فوق مقعد قريب وأمسكت بقدميه الصغيرتين وأدخلتهما في جوربه، وحذائه... وطافت بخيالها صورة والده، فأرسلت آهة حرى جهدت أن تخفيها عن طفلها «موهان»، الذي لم يكن يجاوز سن السادسة.. بينما أخذت تسوي شعره بيد مرتعشة، تمر بالمشط فوق رأسه، في رفق وحنان..

والتفت الطفل نحو أمه، «ناليني»، وشد ذيل ثوبها كعادة الأطفال، لتوليه انتباهها.. وسألها:

– إلى أين سنذهب يا ماما..؟.

وأجابته ناليني قائلة:

– إلى المحكمة يا بني..

– المحكمة؟.. وما هي هذه (المحكمة)؟..

– لن تعرف أمرها بسهولة يا ولدي.. هناك أناس كثيرون.. كل منهم يتشاجر مع الآخر، ويختلف معه.. و«قاضي» المحكمة هو الذي يستمع إلى حجج الطرفين ثم يعاقب المسيء أو المعتدي ويحمي البريء..

وأغمض الطفل عينيه وضم شفتيه، وهي عادة أخذها عن جده عندما يتظاهر الاقتناع أو التأمل، وقال:

– فهمت..

وما لبث أن عاد يسألها:

– وهل بابا سيكون هناك يا أماه..

– نعم..

– وهل سيحضر لي الحلوى واللعب..؟

– لا.. لن يحضر لك شيئاً.. والآن يا موهان لا تثرثر بمثل هذه الأسئلة السخيفة.. لقد كبرت.. ولا ينبغي لك أن تتشبث بالحلوى واللعب..

ولكن الطفل لم يلتفت إلى انتهارها له، وقال في إيمان وإصرار:

– إنني أعلم أنه سيحضرها لي.. لقد اعتاد أن يعطيني الحلوى والبونبون كلما طلبت ذلك منه.. اليس كذلك يا ماما..؟.

ثم استدرك قائلاً وقد غير من لهجته:

– ولكن قولي لي يا ماما.. لماذا لا يأتي إلينا في هذه الأيام..!.

– لأنه تشاجر معي يا حبيبي. ألم أقل لك ذلك في مرات عديدة!

– ولكن أنا لم أتشاجر معه، ولم أغضبه، كان من الممكن على الأقل أن يأتي إليَّ أنا..

ولم تدر ناليني أتضحك لهذه الملاحظة البارعة أم تبكي.. إنه لمن الغباء أن تشرح مثل هذه المسائل الدقيقة لطفل محدود الإدراك ومع ذلك كانت تشعر بأنها في حاجة إلى أن تفعل.. حتى تفرج – على الأقل – عن نفسها.. كانت مضطرة أن تقضي بكربها وخواطرها إلى شخص ما.

– إن بابا لا يأتي إلى هذا المنزل لأنني أنا هنا.. وهو لا يحبني.. لا يريدني.ز فإذا رغب في أن يراك فهو يراك فقط في الخارج.. وعلى فكرة.. إذا طلب أحد إليك أن تكون مع والدك، فهل توافق وتذهب إليه..؟.

– طبعاً.. إنه يعطيني هدايا جميلة..

وارتعدت ناليني لهذه الإجابة المفاجئة.. ولما تمالكت نفسها التفتت إلى وليدها وقالت تحذره:

– لا، يا موهان.. إذا سألك أحد أتحب أن تكون معي أم مع والدك.. فعليك بالطبع أن تقول إنك تحبني جداً وإنك تفضل أن تظل معي فقط.. أفهمت..؟ حذار أن تنسى هذا..!.

ولكنها أدركت خطأها على الفور، عقب هذا التلقين المصنوع.. إن الطفل لن يفهم أو يدرك شيئاً من هذا. وفي الواقع، لم يكن موهان مهيأ للفهم.. وبداكأنه لم يسمع حتكلمات الوصية.. وعوضاً عن هذاكان منصرفاً بكليته إلى شيء فوق رأسه.. إلى صورة والده المعلقة في صدر المكان. حتى ناليني قد انساقت هي الأخرى في نفس الطريق، فرفعت

عينيها ونظرت إلى الصورة.. وجعلت تتأملها وقتاً طويلاً.. ما أشد التشابه بين زوجها وولدها، في الشكل، وفي تقاطيع وجهه.. الملامح القوية المتميزة.. النظرة البعيدة العميقة.. الفم الصغير الدقيق.. البريق الذي يلتمع في العينين عندما ينتقل فجأة من موضوع إلى موضوع، وكأنه كشف عن سر خطير أو اختراع عظيم..!.

عندئذ تنازعها مشاعر الندم وتبكيت الضمير.. لقد أحست أنها ارتكبت خطأ بانفصالها عن «راميش» في لحظة غضب أو طيش عابر.. أن تصورها للذلة التي تنتظرها في ساحة المحكمة، وهي تقف أمام القاضي.. والاضطراب الذي سينتابها عندما تلتقي بـ (راميش) وجها لوجه بعد افتراقهما منذ بضعة عشر شهراً، وتخيلها مشهد انتزاع وليدها موهان منها، إذا ما سارت القضية في صف راميش.. هذه الخواطر والأحاسيسكان وقعها في ذهنها أخطر من أن تتلقاها بسكينة أو هدوء..

لقد وقعت ناليني مراراً عديدة فريسة لمثل هذه الخواطر، وكثيراً مافكرت في لحظات ضعفها فيما لو عادت من جديد إلى راميش – زوجها – وسلمت نفسها له.. أتراه في هذه الحالة يقبلها ثانية..؟ وهل تعود المياه إلى مجاريها ويستأنفان حياة جديدة من غير تفكير في الماضي أو نبش الذكريات لاستخراج هذه السابقة المزرية..؟ أيمكن أن تنسى تلك الكلمات الطائشة القاسية التي تبادلها في جو مشحون بالكهرباء.. في تلك الليلة المشئومة التي شهدها الشيطان ونسق جدول

أعمالها..؟! هذه الكلمات التي حملت بالشتائم والإهانات – أيمكن أن تطوي وتغفل فلا تعود إلى الذاكرة..؟.

إن وجنتيها قد صعد إليهما الدم من الخجل وهي تذكر تلك الليلة التاريخية.. لقد تطور بينهما النزاع حتى اتهمت زوجها بأنه الخائن الأثيم.. هذا الوصف بالذات!.. ورد هو عليها باتهام أشنع. كانت تتهمه وأصبعها في مواجهة عينيه.. وكان يهددها وهو ثورة غضبه بجمع يده.. لو لم يفته أن يترك آثار أظافر، فوق يديها.. وظل اللون الأزرق يصبغ جلها الرقيق مدى أسبوع بطوله.. وإنها لتذكر أن والدها عندما رأى آثار هذه البربرية، أمرها بألا تفكر مرة ثانية في هذا الرجل، راميش.. وأنه سيقاضيه أمام المحاكم.. ولكن راميش كان أسرع منه، إذ بادر إلى إقامة الدعوى، مطالباً بضم ابنه إلى حضانته..

وأحست ناليني بكراهية راميش من كل قلبها عندما تلقت إخطار المحكمة.. ولم تضمر له هذا القدر من الكراهية من قبل، حتى عندما صفعها على خدها، حتى وهي تتهمه ويتهمها بأقبح الصفات، أو يتقاذفان الشتائم والسخائم التي يتبادلها ملايين الرجال والنساء المتزوجين فيما بينهم.. في كل ركن من أركان المعمورة!..

***

وانتشلها الصغير من أفكارها عندما سألها قائلاً في اهتمام:

– ألم تنته المعركة بينكما يا أماه..؟.

وقالت الأم في يأس وندم:

– لا، يا بني..

فقال الطفل متعجباً:

– إنني كلما تشاجرت مع صاحبي الذي يسكن في الشقة المجاورة، لا ألبث أن أصالحه وأصافحه، ونصبح صديقين مرة أخرى في الصباح التالي. إنني أحبه جداً يا ماما..!.

وقالت الأم تعلق على كلامه:

– إنه ولد لطيف..!.

وانتقل الطفل فوراً إلى الموضوع الذي يستهويه دون سائر الموضوعات – الحلوى والبونبون – فقال:

– عندما أقابل أبي... سأطلب منه نصيبي من التوفي والشيكولاتة..

– لا ينبغي أن تفعل شيئاً كهذا يا بني.. إنك ستكون معي.. ووالدك لا يريد أن تتحدث إليه.. وإذا عمدت إلى مخاطبته فقد يغضب منك ويضربك..

والتفت موهان إلى أمه مستغرباً، ولم يزد على ما قاله شيئاً.. ولمح بالقرب منه دميته التي يتلهى بها، فجرى إليها، وشغل بها.. ما اسرع ما ينسى الأطفال..!.

وجاء والد ناليتي، وسألها هل أتمت استعدادها للخروج. وأجابته السيدة بالإيجاب.

– أين موهان..؟

– إنه هناك، في الغرفة المجاورة، يلعب بدميته.. وبهذه المناسبة قل لي يا أبي هل من الضروري أن يأتي معي..؟ إنه جد صغير بالنسبة لهذه الأمور. أليس هناك طريقة أخرى نستعيض بها عن اصطحابه..؟.

– لا أدري على وجه التحقيق يا ناليني.. ربما كانوا يرغبون في سؤاله عن ميوله..

وترددت ناليني لحظة، ثم قالت:

– أبي.. إني أرجو ألا يغضبك كلامي. لقد اعتزمت أن أسلم موهان لأبيه..

وصاح والدها قائلاً:

– ناليني.. ماذا جرى لك.. هل جننت..؟.

أما نالينى فقد راحت تبكي.. وتنتحب في حرقة.. وذعر الشيخ وأخذ يطيب خاطرها ويهدىء من روعها، وقال لها:

– نالينى.. يا عزيزتي.. ألعلك نادمة على ما حدث؟.

وقالت نالينى من خلال شهقاتها:

– أحسب ذلك..

– عال.. عال.. إذن أنت ترغبين في العودة إليه، بعد أن.. بعد أن..

– لقدكانت غلطة يا أبي. أرجو ألا تنظر إليَّ هذه النظرة، إنني مرتاعة.. مرتاعة.. ماكان ينبغي أن أوافق علىكل هذه الإجراءات.. وما كان يحق لي أن أذهب بعيداً في عنادي.. قد كان جديراً بي أن أتريث.. وأتعقل.

وسحب الوالد مقعداً في هدوء وجلس عليه.. واعتمد رأسه بيده، وساد بينهما الصمت، ولكن المرأة مازالت تنشج، والدموع تبلل خديها..

قال لها والدها:

– إن هذا الضعف يا نالينى هو الذي أطمعه فيك منذ البداية، وجرأه عليك..

ولم تجب ناليني .. بينما أخذت عيناها تشرق بالدموع وكيانها يهتز كقبضة في مهب الريح..!

وأخيراً قال لها:

– إلتفتي إليَّ يا ناليني.. إننا سنذهب الآن إلى المحكمة وسنرقب سير القضية.. إن علينا أن نتعرف على نياته قبلكل شيء..

وتوقف قليلاً، ثم استطرد قائلاً:

– إنني بالطبع لا أحب أن أوثر عليك إذا ماكنت ترغبين في العودة إلى زوجك..

– إذا لم أفعل ذلك فإلى أي مكان سأذهب؟ إلى من ألجأ..؟ إنني لا أرضى بأن أكون حملاً عليك..

وجاء الخادم وقال إن السيارة تنتظرهم عند الباب. واغتسلت ناليني مرة أخرى لتزيل أثر الدموع، وجملت وجهها بالبودرة.. وأخذت طريقها إلى الخارج وهي تحاذر أن تلتقي عيناها حتى بعيون الخدم..!.

***

وفي قاعة المحكمة.. عندما رأت ناليني زوجها وهو يسير متجهاً نحو مقعده، أحست بقلبها يتفطر إشفاقاًعليه.. لقد نحف عوده وزايلته

الحيوية والمرح، وذهب عنه اطمئنانه وسمات شبابه.. أين ذهب بريق عينيه وامتلأ خديه، ليحل بدلهما الشحوب واللغوب؟!.

وفي المرات القليلة، التي رمقته فيها نالينى، لم يحاول أن تتقابل العيون.. بل كان يدفن وجهه الحزين في الأوراق التي أمامه.. وبدأ القاضي ينظر القضية. وجعل كل من المحامي والمدعي يتهيأ للعمل ويتفاهم على الأوراق والأسانيد.. وظل القاضي يستمع إلى أقوال الطرفين في صبر وأناة.. وأخيراً نطق قائلاً:

– الآن تسأل المحكمة الطفل عن رغباته..

وكان موهان في تلك اللحظة يمسك بعلبة ملأى بالحلوى وقد صرف إليها اهتمامه، ويده تخرج منها القطعة بعد الأخرى.. وتضعها في فمه!.

وعاد القاضي يقول:

– التفت هنا أيها الطفل. هل تحب والدك..؟.

وأومأ موهان برأسه، وهو يولي صندوقه من اهتمامه أكثر مما يوليه لسؤال القاضي!.

– وهل تحب أن تقيم مع والدك..؟.

وأومأ الطفل برأسه مرة أخرى..

واعترض محامي الزوجة، قائلاً: إن هذا السؤال فيه إيعاز ضمني بالطريق الذي يسلكه.. وعندئذ غير القاضي من صيغة السؤال.

- إنتبه أيها الطفل اللطيف.أيهما تحب أكثر من الآخر؟ بابا أم ماما..؟.

وجاء الرد سريعاً، بعد أن ازدرد قطعة الشيكولاتة التي في فمه:

- أنا لا أحب أحداً منهما. إنهما دائماً في خصام وشجار.. أحدهما مع الآخر..!.

وصعد الدم إلى وجهها.. وجلس راميش وهو مطرق برأسه.. لقدكان هو الآخر قلقاً في جلسته:

وعاد القاضي يسأل الطفل:

- أيهما تحب أن تمكث معه يا بني؟.. مع أبيك الجالس هناك.. أم مع أمك؟

- أحب أن أمكث معكليهما..

وغيب في فمه قطعة جديدة من الشيكولاتة..

عندئذ وقف راميش وأسر إلى محاميه ببضعكلمات، ارتفع على أثرها حاجباه، لما فوجيء به..!.

وما لبث أن خاطب القاضي قائلاً:

– إن موكلي يسأل عما إذاكانت المحكمة تأذن له في أن يقول بضعكلمات للمدعى عليها.. على حدة..؟.

وسمع همس ولغط بين الصفوف على أثر هذه المفاجأة. وحرك القاضي شفتيه، ثم قال أخيراً:

– المحكمة توافق.. ولكن لابد من أن نعرف ما إذا كانت السيدة صاحبة الشأن توافق على هذا الطلب..

وقال محتمي الزوجة:

– إن موكلتي لا تمانع في ذلك.. وهي ترجو أن يكون الطفل أثناء هذه المحادثة في صحبتها..

فقال القاضي بوقار:

– لا مانع..

وانتظرت المحكمة كلها في قلق وترقب.. ولم تكن نتيجة هذا الإجراء واضحة في أذهان الحاضرين.. إن أحداً منهم لا يستطيع أن يتكهن بالنتيجة.. إن القانون يحاول في هذه اللحظة أن يجد له مخرجاً،

والعاطفة الإنسانية تحاول أن تجد لها مجالاً بين جفاف المواد الخرساء..

وبعد خمس دقائق ظهر راميش وناليني.. ومعهما موهان ينقل عينيه في ارتياب من أحدهما إلى الآخر..

وأشار القاضي بيده ليسود النظام.. ولاذ بكرسيه العالي.

وتقدم محامي راميش نحو المنصة، ثم قال:

– موكلي يسأل المحكمة أن تسمح بسحب الدعوى. لقد رأى أن يضم إليه زوجته ويستأنفا العيش معاً في سلام.

وقال القاضي، وهو يهم بالانصراف:

– لا مانع..

وأفرغ موهان صندوق الحلوى، وجذب والده من طرف سترته، طالباً المزيد..

لم تكن لديها فكرة ترسمها للمستقبل.. ولكن ما حاجتها إلى كد الذهن إلى هذا الحد؟...

عودي إليَّ

بقلم: ج. أ. كانث

كانت المرأتان البدينتان في إحدى عربات القطار الذاهب إلى وجهته تتشاجران وتختلفان فيما بينهما على بعض المقاعد التي ادعت كل منهما السبق إليها.. ولكنهما ما لبثتا أن تفاهمتا من جديد وجلستا جنباً إلى جنب تمضغان «اللبان» الهندي، وتثرثران بالأحاديث.. بينما راحت السيدة العجوز التي كانت تجلس خلفهما وتوجه إليهما العتاب كلما اختلفتا، ترقب في سكون سيدة شابة إلى جوارها تهدهد طفلها عساه يكف عن البكاء والصياح..

وقالت لها السيدة العجوز إن الطفل ربما كان يشكو ألمًا في معدته أو في جسمه، ورفعت «نيرانجيني» – أم الطفل – رأسها لترد عليها.. لقد بدت حسناء فائقة الجمال، ذات عينين واسعتين، وأنف صغير، وملامح فاتنة.

– لا أدري يا أماه.. لقد حاولت جهدي أن أرضيه وأسليه، ولكن يبدو أنه لا يريد أن يكف عن البكاء. ولست أظن أنه جائع.

وحملت السيدة العجوز الطفل عن أمه ووجعلت تداعبه.. قربت وجهها من وجهه، ثم رفعت رأسها إلى الخلف لتثير انتباهه. وطفقت تتحدث أمامه بكلام لا معنى له لتحمله على الضحك. وكف الطفل عن الصياح، وأخذ ينظر إلى وجهها الغريب، ثم يبتسم بين الحين والحين

في سكون ورضا. لقد شاع الابتسام على شفتيه كما يستلل شعاع الشمس من فرجة في السحابة المكفهرة!.

وامتدت يد العجوز لتمسح دمعتين ترقرقتا في عينيها، بينما اشتد وجيب قلبها وهي تنظر إلى هذا الطفل الجميل الذي رأت فيه صورة مصغرة من وجه ابنها العزيز.. وبدأت تروي لمن حولها من الجالسات قصة ابنها، وهن يصغين إليها لا بدافع العطف عليها، بل لأنه لم يكن أمامهن شيء آخر يفعلنه أو يقطعن به الوقت.

كان ذلك الولد يومئذ هو ابنها الوحيد. وكانت قدكرست حياتها وجهدها للعناية به، ولكنه مات.. وكانت هي التي ساقته إلى الموت..! نعم.. لقد جرت ابنها العزيز الذيكان أغلى من الحياة ذاتها، جرته إلى الموت!.

لقد جاء إليها ذات يوم وذكر لها أنه يرغب في أن يتزوج بفتاة تدله بحبها، ولم توافق على رغبته لأنها أرادت له أن يتزوج ابنة صديق الأسرة.. بل أنها كانت قد اتفقت فعلاً مع الصديق الغني «جردهار» على خطبة ابنته.

ولكن الابن أصر على ألا يتزوج إلا الفتاة التي اختارها لنفسه.. والتي لم يحب سواها.. سواء أكانت أمه راضية عن هذا الاختيار أم غير راضية.. وما إن رأت الأم ذلك منه حتى اهتاجت مشاعرها وتملكها الغضب، فراحت تعنفه وتشتد في عذله، قائلة له: «أهكذا يكون موقفك

من صنيعي معك وفضلي عليك؟!». ولم تنتظر حتى يجيب، بل صاحت به أن أخرج من البيت أيها العاق!.

وخرج من البيت..

ذهب.. وبدأت هي تحس الندم والخطأ.. ومضت تنعي على نفسها ما صنعته، وما تسرعت به.. لقد شعرت أنها لم تكن محقة في إنكارها على ابنها ما هو من حقكل إنسان أن يتطلع إليه، وهو الزواج بمن يحب، فاكفأت تضرع إلى اله لاقدير أن يعيد إليها ابنها.. واستجاب الله دعاءها.. ولكن بعد فوات الأوان.. عاد إليها وحيدها لا سائراً على قدميه ولا حياً يرزق، بل محمولاً مسجى، قد فارقته الحياة إلى الأبد.. إن الصراع بين عاطفة الحب لفتاته وبين عاطفته نحو أمه قد أعماه عن طريقه، فانساق وهو في هذه الحال إلى عرض الطريق، أمام سيارة مسرعة، وقضى على الفور!.

من كان يتصور أن هذه المرأة العجوز الحدبة،كانت هي السبب في موت وليدها الحبيب، وفي شقاء فتاة محبة لم ترها ولم تعرف عنها شيئاً؟!.

وعاد الطفل وقد استطاب مداعبة المرأة له، يمد أنامله الدقيقة نحو أنفها لتدغدغها،، وينفجر ضاحكاً ضحكة طويلة.. وجذبته هي نحو صدرها وقبلته في خديه وهي تقول:

«حماه الله، ما أجمل عينيه!.. إنه يشبهك فيكل شيء.. إلا عينيه فإني أحسب أنهما لا تخصان إلا أباه!».

وأطرقت «نيرانجيني» تفكر.. أجل، إن للطفل عينين ساحرتين.. إنهما فعلاً كعيني أبيه.. عينيه اللتين جذبتهما وأثرتا فيها..

وانطلق فكرها إلى الماضي.. إلى تلك الأيام التي بدأت فيها العمل بمصانع «رويال ميلز» بعد وفاة والدها الذي لم يترك لها شيئاً.. ولم يقدر لها أن ترى حتى وجه أمها، فقد ماتت وهي تأتي بها إلى الحياة، ولم يقبل أحد أن يكفلها إذ أعتبرها الجميع نديدة الشيطان لأنها أهلكت حياة أمها.

وذكرت الأيام التي قضتها وحيدة شريدة.. حتى أصبحت في السن التي يهفو القلب فيها إلى الصحبة، والحب،، وإلى الرفيق والأنيس، وتمنت أن تصبح عبدة لأي قادم يطرق باب قلبها ويبدي لها ولو بعض الميل.. ترى هل يكتب لها أن تتحسس ذراعي إنسان قوي تطوقان خصرها، بينا هو يسكب في أذنيها ألفاظ الشعر المعسولة التي تنتظرها كل فتاة من فارس أحلامها؟ هل يقع لها ان تتذوق بشفتيها القبلات الدافئة الناعمة التي يتبادلها المحبون من الشبان والعذارى في الليالي المقمرات؟!.

ولم يطل بها التساؤل والحرمان، فقد هيأ لها القدر كل شيء.. وساق في طريقها «راهول» الذي أسرتها عيناه ووقعت في غرامه والهيام

به.. وشيئاً فشيئاً نما تعارفهما وتحول إلى رابطة قوية من العاطفة المتبادلة، واعتادا أن يتمشيا وقتاً طويلاً بعد ساعات العمل في المصنع، مترافقين متعاطفين.. وكانا أثناء الطريق يأخذان في أحاديث شتى، متنقلين من موضوع إلى آخر، وأكثرها لا أساس له ولا هدف يرمي إليه، كما هي عادة العشاق الذي يحاولون من الحياة مداراة عواطفهم بعابر الكلام..

ومع ذلك فقد كانت عيونهما تفسيركل حديث، وتكشف عما يعتمل في قلبيهما من وجد وهوى!.

وفي أمسية جميلة، كانكل شيء فيها يستحم بضوء القمر، ذهبا معاً يسيران في شعاب الطرق على مهل.. وقادها الفتى إلى منحدر على طرف الطريق، قد تغطى من الجانبين بالأشجار الطويلة، وكان هناك مقعد تحت الظل الضافي، والقمر يرسل شعاعه فلا ينفذ منه بين أوراق الشجر إلا مثل الذبالة الموقدة في ردهة رحبة.

وقال لها الشاب بما يشبه الهمس: «هل نجلس قليلاً فوق هذا المقعد؟». ولم تجب.. بللم تكن تدري من حولها شيئاً سوى حبها «لراهول» وأنها في صحبته وإلىجانبه.

وكان الصمت الذي يلفهما يبدو لهما،كأنه صمت لا ينتهي!.. وفجأة استثارت العاطفة فتاها فأخذها بين ذراعيه.. وقبلها، ثم همس في

أذنيها قائلاً وكأنه يعتذر: «أرجو أن تسامحيني. إني لم أقو على التحكم في عواطفي».

ودفعته عنها برفق وهي تطيل النظر إليه بعينين مشدودتين.. أما هو فقد ظل مطوقاً خصرها بذراعيه.. وفي سكون التصقت به، وطوقته.. إنه الحب!.

إذن هو الهوى.. لقد جاء أخيراً!.

وتلاقت الشفاه.. وتحركت الغمامة فحجبت وجه القمر، وظللت العاشقين وهما متكئان وحدهما... أو مع الحب والليل..

***

وظلا بعد ذلك يلتقيان سراً تحت ضوء القمر، ويقضيان أكبر شطر من الليل في المناجاة والقبل.. وكانت تطلق الآهات الحرى كلما ذكرت إحدى قصص الغرام التيكانا يرويانها، أو الأوقات الهانئة التيكانا يمضيانها. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد بدا القلق يأخذ طريقه إلى نفسيهما.. أن هناك قطرة من المرارة قد تسللت إلى الكأس التي حسباهاكأس السعادة. إنها توشك أن تأتي بطفل:

لقد أخبرت فتاها بذلك ذات يوم، وهي تستند إلى ذراعيه.. وكانت في سكرة الحب فلم تدرك مغزى ما ارتسم على وجهه من معان.. لقد

بدا مضطرباً تعقد لسانه دهشة المفاجأة، وراح يسألها في غباء عما إذاكانت لاتمزح فيما قالت!.

وراحت السكرة.. وأدرك أن الأمر جد لا دعابة فيه، فقربها نحوه وتمتم قائلاً لها: «لا عليك يا حبيبتي.. لا تهتمي بشيء، إن كل شيء سيكون على ما ترومين».. وجذبها أكثر من ذي قبل، وغمرها بقبلاته الحرى.. وهو يقول لها: «إننا سنتزوج بالطبع.. سأتزوج بك بمجرد أن أحصل على العلاوة في مرتبي.. وثقي يا عزيزتي أني لن أتخلى عنك.. لن أتخلى عنك».

– إني أعرف أنك لن تتركني يا حبيبي.. ولكن.. ولكن..

– ولكن ماذا يا صغيرتي؟.

– الجيران!.. إنهم سيتكلمون، سيتهامسون. سيختلقون الشائعات ويتناقلونها، والإشاعات هي التي يصدقها الناس أكثر من الحقائق ذاتها!..

– أعلم هذا.. إننا سنذهب إلى مكان آخر حيث لا يعرفنا أحد، ولا نجد من يهمس أو يرتسم سؤال على شفتيه.. أنت. وأنا.. سنصنع منزلاً لنا معاً، وعندما يحل الوقت المناسب سنتزوج.. وأنت منذ الآن لن تكوني في حاجة إلى العمل. إن أجري الذي أتقاضاه سيكون كافياً لي ولك. وفي خلال أشهر قليلة ستأتي العلاوة، ستأتي في الوقت الذي يأتي فيه الطارق الجديد.. فما رأيك؟!.

ولم تجد ما تقوله سوى أن تسأله هذا السؤال الساذج:

– أحقاً تحبني.. أجبني. أأنت واثق؟.

وأجابها:

– إنني واثق من حبي ثقتك بي يا عزيزتي.. ألم أبرهن على ذلك؟ إذا كان الرجل مزعزع الحب، فهل يتصرف هكذا؟ هل كان يقدم، غير متردد، على قرار كهذا؟.. إنه على العكس كان يتهرب منذ الوهلة الأولى التي تظهر فيها هذه التجربة. إنني أحبك.. هل تسمعينني؟ إنني أحبك.

وصدقته.. من كان يملك ألا يصدقه؟.. كانت كلماته ونبرات وصوته تحمل معها قوة الإقناع.. ومع ذلك، فها هي ذي الأيام تمضي، فيخيل إليها في فترات يأسها أو ضعفها إنه إنما يسخر منها أو يضحك لسذاجتها من وراء ظهرها!.

***

وانتقلا إلى مسكن جديد.. وكانت الرابطة التي تربطهما وهنا بحالة الرخاء إذا تيسرت لهما في هذه الظروف.. ولكن «العلاوة» التي انتظرا حلولها بعد شهر أو اثنين لم تأت.. وبدلاً من ذلك حان وقت مجيء الطفل. وجاءها الفتى وقال لها أن عليه أن يذهب إلى مكان ما لبعض الشئون العاجلة ويتغيب عنها بضعة أيام. ورفض أن يذكر لها السبب

قائلاً: إنه لا يريد أن يشغل رأسها الصغير، وأن الوقت لم يحن – على كل حال – ليذكر لها كل شيء.

وتعهد لها بأن يعود سريعاً.. أما هي فبعد لاى وتمنع أذنت له في الذهاب..كانت تتمنع لا لأنها لم تكن تقوى على فراقه فحسب، بل لأنها أيضاً قد خامرها شعور غامض بأنه قد لا يعود!..

وتحققت شكوكها وظنونها.. انتظرته طويلاً.. وترقبته يوماً بعد يوم دون أن يظهر أثر لوالد الوليد المنتظر.. وتحطم قلبها.. وجاء الطفل وقدمت لها صاحبة الدار مساعدتها وعونها.. وراحت «نيرانجيني» تفكركيف يكون الحال لو أن تلك السيدة لم تمد يد العون لها في وحدتها، في الوقت المناسب.. لقد أظهرت عطفها وقدمت خدمتها وهي تلعن «راهول» هذا الذي ترك أم طفله في الوقت الذي كانت تحتاج إليه فيه أكثر من أي وقت سواه.

ولاحظت «نيرانجيني» بعد ذلك أن الجارات قد أخذن يتهامسن كلما رأينها ويهززن رءوسهن.. وفي سرعة البرق انتشرت إشاعة تقول أن زوج «نيرانجيني» قد هجرها إلى امرأة أخرى.

وعلى مر الأيام لم تعد الأم المحزونة تحتمل ما تلوكه السنة السوء ولا ثرثرة النساء وعيونهن المتلصصة من خلف النوافذ.

واضطرت بعد قليل أن تخلع حليها الذهبية وتقدمها لصاحبة المنزل لتعوضها عن خدماتها وتسدد أجر شهرين قضتهما في المسكن..

وتمنعت السيدة في باديء الأمر، ولكن ما لبثت أن مدت يدها وأخذت ما قدمته لها.

وذهبت «نيرانجيني» بلا وعي إلى محطة السكة الحديدية. واشترت تذكرة إلى محطة ينتهي عندها القطار قبل أن يغير طريقه، وهي لا تعرف هذه المحطة ولا تلك البلد!.. إنها تريد أن تهرب من وجه هؤلاء اللواتي عرفنها وأسأن إلكبريائها.. تريد أن تتناسى يعنيها أن تتحقق من المكان الذي تذهب إليه ما دامت ستبتعد عن الظلال والأشباح وتخلفها وراءها.. لم تكن لديها فكرة ترسمها للمستقبل ولكن ما حاجتها إلى كد الذهن إلى هذا الحد؟ لقد سلمت أمرها لربها وتركت له كل شيء.. وهو صانع القلوب، ومجمعها، ومحطمها أيضاً!.

لقد أحبت وحصلت على ما كانت تتوق إليه.. ثم لم يبق لها ما يذكرها بسعادتها الذاهبة إلا هذا الطفل وهذا القلب الذهبي الصغير، المعلق حول رقبتها، الذيكان «راهول» قد قدمه إليها، وكان يعتز به لأنه أخذه من أمه، من بين تحفها القديمة.

***

وفجأة أفاقت «نيرانجيني» من أحلامها على أثر قبضة من يد السيدة العجوز فوق كتفها، وراحت السيدة تحملق في وجهها، وفي صدرها.. وذعرت الشابة، أم الطفل، وسألت السيدة عما إذا كان قد حدث شيء، أو ارتكبت أمراً لا تقره، ورفعت السيدة يدها، وهزت

رأسها، وتحولت عنها ونظرت إلى بعيد. وتلاحقت بقية الرحلة والديوان ساكن بمن فيه، إلا من صوت أنفاس القطار واحتكاك العجلات بالقضبان!.

وعندما وقف القطار نزلت منه السيدة العجوز، وجاء دور «نيرانجيني» فنزلت هي الأخرى.. أن الناس في بعض الأحيان قد يأتون أعمالاً من غير قصد ولا استعداد سابق.. بل من غير أن يكون هناك مبرر معقول.. وهكذاكان شأن «نيرانجيني». لقد غادرت القطار وهي لا تعلم لماذا غادرته، ولا أين تذهب، وكانت السيدة العجوز تقف على الرصيف، وكأنها تنتظرها. وعندما رأتها صاحت قائلة: «أأنت هنا يا بنيتي؟ لم أكن أعلم أنك تعرفين هذا المكان.. أتراك ستزورين بعض أقاربك؟».

وتلجلجت «نيرانجيني» وقالت:

– لا يا أماه. أنا لا أعرف هذا المكان.. أنا.. أنا.. لقد جئت لأمكث مع عمتي. وسيلحق بي زوجي ههنا قريباً.

ولكن المرأة لم تمهلها، ولم تدعها.. بل طوقتها بذراعيها، وهي تقول والدموع في عينيها وصوتها تكاد تخنقه العبرات:

«لا يا بنيتي!.. بل أنت تنتمين إلى هذا المكان.. وإليَّ. لقد سمع الله دعائي، واستجاب أخيراً لرجائي. وبدلاً من الولد أعطاني ابنة.. إني أعرف كل شيء عنك.. أن هذه «الحلية» التي تلبسينها في رقبتك هي حليتي. هذا القلب الصغير أعرفه من بين المئات أمثاله. وقد عرفتك

وأدركت قصتك منذ اللحظة الأولى. تعالي معي يا بنيتي.. وعودي إليَّ، وهاتي لي حفيدي لأرى فيه صورة ولدي..».

مائة روبية فقط هي كل ما قدمه.. مع أنه كان مستعداً لأن يقدم الآلاف، لكي يمحو الدليل الوحيد على إدانته!...

هارب.. من العدالة

بقلم: مانوهار مالجونكار

كنت أحب أن أقدم لك نفسي.. ولكني لن أثقل عليك وسأكتفي بأن أتحدث قليلاً عن هوايتي.. وهذه الهواية بلا مقدمات هي «الرسم».. إنني مغرم بتخطيط الرسوم الكروكمية السريعة التي لا تطلب عناء ولا تدل على فن عميق أو موهبة أصيلة.. وقد نشأت معي هذه الهواية منذ كنت تلميذاً في المرحلة الأولى من التعليم.. كنت أمضي معظم وقتي في الدراسة في رسم الوجوه التي ألتقي بها.. وجوه التلاميذ، ووجوه المدرسين.. هذا كل ما توصلت إليه من هذا الفن الجميل الذي أتعلق به.. رسوم تخطيطية للوجوه وملامحها المتباينة.. لقد كان أكثر الناس عندما يرون رسومي يقولون ساخرين إنها أقرب ما تكون إلى الكاريكاتير الذي يرسم اعتباطاً، ولكن هذا النقد لم يعنيني كثيراً، فقد اطمأنت إلى أن كل من يرى رسمي يستطيع في يسر أن يتعرف عليها، ويميز بينهما، ويعرف الوجوه التي نقلت عنها.

بل لقد بلغ من إعجاب بعض أصدقائي برسومي، أن أشاروا عليَّ بأن أعمل على تنمية هذه الموهبة عندي..، هم إذن يدعونها موهبة»!.. ومع ذلك فإنني لم أكد أترك المدرسة حتى التحقت بالجيش.. وفي الجيش لا يجد المرء الوقت الكافي لممارسة هوايات كهذه..

وعلى الرغم من أني لم أكن أبذل جهداً يذكر لتنمية هذه «الموهبة» فقد كنت أحرص على أن أحمل معي في أكثر الأوقات كراسة لطيفة للرسم..كنت أصطحبها حتى وأنا ذاهب إلى الحفلات والمآدب!.. إني لم أكن أظن ان الناس مشغوفون برسومهم إلى هذا

الحد الذي رأيته، حتى ولو كان الرسام مجرد «هاو» مثلي!.. وأذكر بهذه المناسبة من اختباراتي في هذا المضمار أن أحدهم نفحني مائة روبية في مقابل رسم وجهه!.. وهذه فلتة لا ينبغي أن تمر مروراً عابراً دون أن أقدم لك تفاصيلها، فقد بنيت عليها حديثي كله معك.

والواقع إني كنت أتهيب أن أرسم وجوه الناس.. كنت أتوهم أن أصحابها لا يرتاحون إليَّ وأنا أرسمهم ولكن الحقيقة كانت غير هذا.. إن معظم الناس يرحبون بالظروف التي تهييء لهم أن يروا رسومهم وملامحهم على الورق.

تحققت من ذلك عندما كنت مريضاً في المستشفى المركزي رقم ٣٦٦ بالقرب من «كلكتا» وإن لم يكن أمراً ذا بال.. لقد علم بهوايتي بعض موظفي المستشفى، وبعض الممرضات، فأبقوني هناك تحت أنظارهم ثلاثة أسابيع.. ولا شيء يصنعونه في معظم الأوقات إلا أن يجلسوا أو يتمددوا على بعض السرة المرتفعة.. ويدعوني إلى أن «أرسمهم».. وقد كنت أرسم حتى وجوه زملائي المرضى، وقبل كل شيء كنت أرسم وجوه الممرضات.. الفاتنات. كانت الكثيرات منهن فائقات الجمال، وبعضهن كن من كواكب هوليوود أو هكذا خيل إلينا – نحن الذين لم نبتعد عن ثكنات الجيش ومعسكرات الصحراء – ونحن نراهن غاديات رائحات في أرديتهن البيض!.

ولم أكن أخشى شيئاً كما أن أسيء إلى وجه جميل من بينهن برسم غير جميل.. ومن حسن المصادفات أني كنت كلما رسمت وجهاً اقتربت

صاحبته مني ونظرت إليَّ تشجيع ثم قالت: «بديع.. بديع!.. وهل أنا هكذا جميلة؟» أو قالت شيئاً كهذا يعرب عن ارتياحها وسرورها.

وكانت نتيجة ذلك في نفوسهن أن تزداد عنايتهن بالمرضى.

والحق أني لم أكن أرسم الوجه بالدرجة المتقنة التي لا مأخذ عليها.. ولكنك إذا أعطيتني أنفاً كأنف (سيرانو دي برجراك) أو شارباً كشارب فالنتينو أو كلارك جيبل، أو حواجب كثة الشعر، فإن معظم هذه المعالم تكون عادة أظهر شيء في ملامح رسومي، بحيث لا تستطيع أن تتخطاها.. أو تخطئها أبداً!.

لقد رسمت بقلمي قبل أن أغادر المستشفى ما لا يقل عن دستة من الاسكتشات لكل واحد، وأرجو أن تصدقني إذا قلت لك أن واحداً أو اثنين ممن حصلوا على رسومهم قد وضعوا الصورة في إطار.. إن هذا يدلك على مبلغ غرام الناس بالرسوم!.

***

وهذا يأتي بي إلى الواقعة التي أشرت إليها.

لقد صدرت إلى الأوامر في هذا العام بأن أذهب مع كتيبتي للاشتراك في التدريبات التكتيكية التي أجريت في «بونا».. وانتهينا من هذه التدريبات في ١٣ من يناير، وفي اليوم التالي، أخذت مكاني في القطار الذاهب إلى «بومبي»، في طريقي إلى «ديولالي» حيث كنا

نعسكر.. وقبل أن يغادر القطار محطة «بونا» حضر زميلان أو ثلاثة من أصدقائي لتوديعي... كانت هذه المجاملة منهم تستحق التقدير، وبخاصة إذا ذكرنا أنهم وجميع الزملاءكانوا في الليلة السابقة يشهدون سهرة الاحتفال الذي أقيم في ختام التدريبات.

ولم ينصرف أصدقائي إلا بعد تهيأ القطار للرحيل.

وبعد أن أخذ القطار يشق ويطوي الأرض، وجدتني وحيداً في الديوان الذي وقع عليه اختياري، ومر رجل طويل القامة وأخذ يسترق النظر من خلال فتحة الباب.... ويدو أنه كان يبحث لنفسه عن ديوان مستقل، فلما رآني مرابطاً عند النافذة، رفع رأسه ومضى لسبيله، ولكنه ما لبث أن عاد ثانية إذ لم يجد بغيته، فأخذ مجلسه في المقعد المقابل.. وعندما جاوز القطار محطة «كيركي» ذهبت إلى «عربة الأكل» لأشرب القهوة، وحين عدت بعد نحو نصف ساعة، وجدت صاحبنا المسافر يغط في نوم عميق!.

وبينما كنت أتسلى بالقراءة، جعلت أتطلع إلى وجهه مرة أو مرتين من غير اهتمام.. لقدكان ذا وجه متميز الملامح، وشاربكشارب رونالد كولمان وأنف روماني كالخطاف.. وجه جذاب ينبئي عن جمال التقاطيع.. الأسنان البيض، والعيون السود.. وإن كنت لم أر منه وهو نائم أسنانه ولا عينيه.. أجل لقد كان وجهه يوحي إلى الناظر إليه بأن صاحبه قبطان مظفر، أو قائد عائد لتوه من غزوة ناجحة!.

وما إن رأيت هذا الوجه.. هذه المادة الصالحة لإجراء التجارب وتطبيق النظريات، حتى ركبني شيطان الفن.

وبكل حذر، ومن غير أن أحدث أي صوت، أخرجت كراسة الرسم وأقلام الرصاص من حقيبتي، ورحت أرسم وجهه..

ومضى بعض الوقت ثم صرنا نجاوز مدينة (لونافا) بقليل.. وقد أخذ القطار ينحدر نحو الوادي العميق.. وفي خلال ذلك يهتز اهتزازاً جعلني أكف عن مواصلة الرسم.. ولكني كنت قد انتهيت إلى حد فيه الكفاية، فقد نقلت إلى الورقة ملامح وجهه واضحة كاملة، وكنت على ثقة من أني أستطيع أن أضيف الرتوش الأخيرة بمجردأن أصل إلى «كارجات».

واستغرقت في النظر إلى هذا العمل الذي أتممته وأنا أحس بسرور زائد. فلم أنتبه إلى الرجل الذي فوجئت به يفتح عينيه بعد أن أفاق من إغفاءته.. وسمعته يوجه إليَّ الكلام قائلاً:

– معذرة لتطفلي.. ولكن ما هذا الذي تصنعه؟.

ونظرت إليه.. كان يرمقني بعينين واسعتين، وكما حرزت، وجدت عينيه سوداوين، براقتين كالمعدن، أما أسنانه فلم تكن بيضاء كما حسبت، بل كانت صفراء صدئة، ووجدته قد فقد أحدى أسنانه الأمامية.

وابتسمت له، وقلت مجيباً عن سؤاله:

– لقد كنت أحاول أن أرسم وجهك.. وأرجو ألا تكون مستاء..

ومرت دقيقة طويلة دون أن ينطق، ظل فيها يحدجني بنظراته، وأقلقني ألا أرى ابتسامة على فمه يحييني بها، فعدت أقول له:

– ارجو ألا يكون ذلك قد ضايقك.

فهز رأسه وتكلف الابتسام وقال:

– لا، لا بالطبع. ولكن هل أستطيع أن أرى هذا الرسم؟.

فوضعت الكراسة على النضد الذي يفصل بيننا وأريته الرسم، فانحنى على النضد ونظر إليه ملياً، ثم صاح قائلاً:

– يالله! أهكذا أبدو؟!.

وصدمت من هذه الكلمات.. فقد كنت أحسب أني أحسنت الرسم إذكان هو من أحسن محاولاتي في هذا الاتجاه. ولكني قلت مستخدماً لغة الفنانين:

– إن الناس لا يرون أنفسهم كما يراهم سواهم.. وبجانب هذا كنت أنت نائماً، فلم أتمكن من رسم العينين.

فقال معتذرًا بعد أن غير من لهجته:

– لا. إني لم أقصد هذا.. إن الرسم يشبهني شبهاً عجيباً.. حقاً إنه لرسم جيد!.

وتحولت عبارته إلى لهجة متوددة.. ولكن لم يزايلني الشعور بأنه لم يكن راغباً في أن ترسم صورته، ولذلك أغلقت الكراسة، وهممت بوضعها في مكانها من الحقيقة، ولكنه عاد يقول:

– الحقيقة إني أحب أن أحصل على هذا الرسم.

فاعترضت قائلاً:

– ولكنه لا يستحق كل هذا الاهتمام.. وفضلاً عن ذلك فهو لم يكمل بعد!.

– بل هو جميل جداً، وأنا موقن إن آية إضافة إليه ستفسده!.

– هل تحب هذا الرسم حقاً إلى هذا الحد؟.

فقال:

– بالطبع بالطبع.. وإني أرجو أن تعطيني إياه.

وكنت راغباً في أن أعطيه الرسم لولا أني لم أكن أريد أن قطع الورقة وأشوه شكل الكراسة.. لقد كانت كراسة فاخرة وورقها من نوع ممتاز وقد كلفتني ثمناً كبيراً.

ولمح الرجل ترددي، فقال لي على غير انتظار:

- إصغ إليَّ.. هل تبيع الصورة لي؟ سأعطيك خمسين روبية ثمناً لها!.

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها أن أبيع شيئاً من إنتاجي.. وكم كنت أتوق إلى إتمام هذه الصفقة!. فأنت تعلم إننا نحن ضباط الجيش لم نكن نحصل على القدر الذي يكفينا من المال.. وأن خمسين روبية في هذه الأيام تأتيك من حيث لا تتوقع لشيء له قيمته... ومع ذلك فقد قلت له:

- أنت ترى أنكراستي من نوع خاص. وأنا لا أريد أن أنزع منها أية صفحات. ولكن عندي حل، إذاكنت تعطيني عنوانك فإني أرسم لك واحداً آخر من هذا الاسكتش وأرسله إليك بالبريد.

فنظر إليَّ نظرة غريبة، وتململ في جلسته، ثم ابتسم قائلاً:

- إذن ليكن الثمن مائة روبية... وأظن أن كراستك مهما تكن قيمتها لا ترتفع إلى هذا الثمن؟.

وعندئذ لم يكن لدي ما أفعله سوى أن أقطع الورقة وأقدمها له وشكرني رفيقي في برود وطوى الورقة بعناية ثم وضعها في حافظته.. وبعد دقائق قام فجأة عن مقعده وحمل حقيبته وخرج، دون أن يلقي على

حتىكلمة تحية.. وشعرت بمرارة من جراء تصرفه هذا.. ولكني لم أعد أهتم بهذا الأمر.

وجعلت أعد نقودي.. أعد المائة روبية التيكسبتها في مقابل الاسكتش الذي لم يستغرق إعداده أكثر من نصف ساعة.. لقد جعلني هذا أحس بالثقة التي لا حد لها، في مواهبي، ومقدرتي الفنية..

***

وانقضى على هذه الواقعة نحو شهر.

وذهبت إلى «بومبي» لأقضي إجازتي السنوية.. وقد اعتدت أن أكون بصحبة صديقي «جوتام بوري» من رجال المباحث.. لقدكنا في المدرسة معاً.. والتحقنا بالجيش في وقت واحد، ولكنه في نهاية الحرب الأخيرة ترك الجيش ليلتحق بالبوليس.

وفي ذلك الوقت، وكان حوالي أوائل فبراير، وقع حادث سرقة خطير في «پونا»، جعلت الصحف تتحدث عنه طويلاً، وتتهم قوات الأمن بالتقصير والعجز، وهو حادث اختفاء «جواهر مستري» لقد فقد السيد «فاضال مستري» الذي يقيم في «پونا» عقداً من اللؤلؤ تتوسطه ماسة ضخمة غالية الثمن جداً ولم يعرف السارق بعد!.

وكنا ونحن نجلس أنا وصديقي لتناول طعام الافطار، لا يفوتنا أن نتحدث عن هذه السرقة وعن السارق الخطير الجريء..كنت أقول للسيد «بوري»:

– كيف تتركون الصحف والناس يخوضون في ذكر الحادث ويلوثون سمعتكم ولا تصنعون شيئاً؟!.

فيرد قائلاً:

– ومن أين لك أن تعلم أننا لم نصنع شيئاً؟.

– لوكنتم بحثتم ودرستم ودققتم لوصلتم إلى الكشف عن هذا الحادث الغامض..

فيقول:

– إذن دعني أصارحك بأننا قد توصلنا إلى الحل في هذه الواقعة.. لقد عرفنا من هو سارق الجواهر!.

وعندئذ قلت ساخراً:

– أتقول حقاً يا مستر «شرلوك هولمز»؟.

– أتراني أتكلم جزافاً؟!. إذن تعال معي إلى مكتبي وسأريك كل شيء..

وقمنا...

وفي الطريق شرح لي رجل المباحث «جوتام» كل شيء.. قال لي أن الخزانة قد وجت مفتوحة في مساء يوم ١٣ يناير، وكان جميع أفراد الأسرة يتناولون عشاءهم في خارج البيت. فاللص كان صاحب تدبير.. كان مستعداً وآمناً على نفسه.. ومثل هذا النوع من اللصوص لا يكون هاوياً ولا مبتدئاً.. بل لابد أن يكون ذا سوابق.. أي أن يكون له عندنا في سجلات المباحث التحريات الكاملة عنه وعن أوصافه.

وفوق ذلك فإن هذه العملية التي يستخدم فيها اللص يديه بكثرة، لابد أن تكون آثار البصمات فيها كثيرة.. ولا غرابة في أن يترك اللص بصمات أصابعه فإن القفاز الجلدي وغيره من الوسائل التي يستعين بها بعض اللصوص لم تكن معروفة في تلك الجهات في ذلك الوقت. وقد وجدت فعلاً على جوانب المكتبة بصمات معروف في المباحث، وله عندهم سجل حافل!.

قلت له:

– فلماذا إذن لم تلقوا القبض عليه؟

قال:

– لسببين: أولهما أن هذا اللص نفسه كان يزور السيد «مستري» قبل الحادث بأسبوع. ومن المحتمل أن تكون هذه البصمات قد تركت

في ذلك التاريخ، أو هذا على الأقل هو ما سيحتج به المحامون عن المتهم. والثاني أن اللص لن يعدم وسيلة للإتيان بمن يشهد بأنه في ليلة ١٣ يناير وقت السرقة لم يكن في «پونا» بل كان هنا في «بومبي» مثلاً..

قلت:

– وحاصل هذا الكلام أنكم لم تضعوا أيديكم على اللص.. أو أن عقد الجواهر لم يأخذه الشخص المشتبه فيه.

فقاطعني قائلاً:

– لا تسخر.. إننا نعلم علم اليقين أنه هو الذي أخذ العقد.. ولكن لكي نبرهن على إدانته أمام المحكمة لابد من الإتيان بقرينة.. وكما قلت، لا تكفي البصمات التي وجدت لإدانته، إن علينا أن نبحث عن القرينة التي تثبت وجوده في «پونا» ساعة وقوع الحادث، وأصارحك القول أنه ما لم نأت بهذه القرينة، فسيظل اللص بعيداً عن أيدينا!.

***

قلت له وقد وصلنا إلى المكتب:

– ولكن من يكون هذا الرجل؟.

قال:

–إن له سجلاً عندنا سأطلعك عليه، أما اسمه فهو «منصور جاداً».. إنه رجل وجيه يقتني سيارة «بويك» وينتمي إلى أحد النوادي الكبرى..

وأمر بإحضار السجل فأتى به أحد رجاله، وأخرج منه صورة فوتوتغرافية وضعها أمامي قائلاً:

– هذا هو منصور جاداً، الذي نوقن أنه هو اللص الحقيقي، إننا سنأتي به للمحاكمة ولكننا لسنا واثقين من النتيجة!.

وما كدت أرى الصورة، حتى صرخت. لقد كانت صورة الرجل الذي قدم لي مائة روبية مقابل الاسكتش الذي رسمته.. الرجل ذي الوجه المتميز والأنف الروماني، والشارب الذي يشبه شارب «رونالد كولمان».. تماماً كما رسمته!.

– أن هذا الرجل قد سافر معي من «پونا» إلى «بومبي»..

– حقاً؟.. ومتى كان ذلك؟

– دعني أتذكر.. انتهت التدريبات يوم ١٣ يناير وسافرت يوم ١٤ يناير.. نعم صباح يوم ١٤.

وكاد «جوتام» يقفز من مقعده. وصاح:

– لا تتحرك من مكانك، ولعلك لن تقول أنها إحدى دعاباتك السخيفة. إن معنى كلامك أنهكان في پونا ليلة حادث السرقة. هل أنت متأكد من أنه هو الرجل الذي سافر معك؟.

– كل التأكيد.. لقد رسمت وجهه!.

– يا للحظ السعيد!.. وهل أحضرت الرسم معك إلى «بومبي»؟.

– بل أعطيته له مع الأسف.. فقد عرض عليَّ أن يشتريه مقابل مائة روبية.

– أعطيته ماذا؟.. أيها الغبي.. ألا تعلم أنهكان مستعداً أن يقدم الآلاف لكي يحصل على الرسم، ويمحو الدليل الوحيد على إدانته.. وإلا فقل لي من هو المغفل الذي يقدم نقوداً في مقابل العبث الذي ترسمه!.

وفجأة صحت من جديد بعد أن تذكرت:

– إنتظر!.. أن لدي نحوستة رسوم له فيكراستي، لقد كنت على عادتي أجرب كيف أرسمه قبل أن أقنع بالنسخة الأخيرة.. النسخة الكاملة التي أخذها.

وقفزنا في سيارة بوليسية وانطلقنا إلى المنزل حيث أخرجتكراستي وأريته الرسوم.. ورأيت بعد ذلك صديقي رجل المباحث يأخذ مقعده في السيارة وهو في هيئة بطل من أبطال الروايات البوليسية!.. ولم يفته في أثناء ذلك أن يسألني قائلاً:

– وكيف تبرهن على أن سفرك كان يوم ١٤ يناير؟.

وقلت له بغير تردد:

– الأمر سهل.. لقد جاء إلى القطار بعض أصدقائي من رجال الجيش ليكونوا في وداعي.. وهم بالطبع أحياء يرزقون..

وقدم اللص للمحاكمة.. ومعه قرينة الاتهام.. فحكم عليه بالسجن مع الأشغال مدى أربع سنوات.

ولكن هذه النهاية لم تسعدني.. بل لم تكن تهمني بقدر اهتمامي بالاطمئنان على مقدرتي الفنية.. إني لا أستطيع أن أسلم بأن (منصور جاد) لم يدفع المائة روبية إلا لكي يستحوذ على الصورة ويعدمها!.. هل أراد حقاً أن يتخلص منها بأي ثمن؟.. أليس من المحتمل أن يكون قد اشتراها إعجاباً بها وشهادة منه بأصالة فني؟.

أردت أن أفتش حجرتها لعلي أعثر على ما كانت تكتبه، والتقطت ملفاً، وكان أول ما وقعت عليه عيني رسالة بإسمها!.

بذور الشك

بقلم: نيثيا

تسللت إلى إذني دقات الساعة من بعيد، في سكون الليل، إحدى عشرة دقة، وأنا أمضي على مهل في طريقي إلى البيت، حتى إذا وصلت إليه، رأيت النور ما زال يفشي أسرار المساء في الحجرة الغريبة. وشملني الاستياء، فقد أوصيتها مراراً بألا تنتظرني.. فإذاكان هذا حيلة منها لتلفتني إليها، فقد خاب فألها.. إنها مخطئة.. فلتنتظر حتى الفجر ولتر أية جارحة تهتز لها!.

لقد اجتزت الباب الخارجي، وعندما صرت أمام الغرفة المضيئة، حملني حب الاستطلاع على أن أسترق النظر إلى داخلها.. ورأيتها هناك تجلس إلى نضد كبير، وكانت تكتب!... إن الريشة في يدها تترك آثرها على الورق بسرعة عصفورة خائفة عجلي تلتقط الحب.. وكانت تتناثر حولها بلا نظام.. وهدأت أنا قليلاً.. إذن لم تكن ساهرة لتنتظرني...

ونظرت إليها من فوق كتفي وقلت لها في اقتضاب:

– ألا تذهبين للنوم؟.

ففوجئت بي وفزعت، ثم استمسكت وقالت:

– أهذا أنت؟.. إني سأذهب إلى فراشي عندما أنتهي من هذه الورقة.

– لقد أوشكت الساعة على الثانية عشرة!..

– حقاً؟.. لم ألحظ هذا قط!.

قلت مؤنباً:

- ولم تلحظي قدومي أيضاً..

فبادرت تقول:

إني آسفة، فقد كنت منهمكة...

قلت مقاطعاً:

- منهمكة حتى أنك لا تحسين باللص إذا اقتحم!..

قالت:

- لما شعرت بوطأة الحر وثقل الجو، تركت الباب مفتوحاً، ولكن لن أدعه غير مغلق فيما بعد.

واستأنفت الكتابة!.

لم أكن مشغوفاً بزوجتي «ڤارجا» فهي لم تكن فتاة أحلامي. لقد كنت أريد لنفسي «ينا» زوجة.. كان في استطاعتي أن أتزوجها لولا أن أهلها – وهي أيضاً– يؤمنون بالنجوم والطوالع، وفي حسابهم أن نجمي ونجمها لا يلتقيان إلا على نداء مأساة!.

وكنت أقول لـ «ينا» هذه: «أن الغربيين لا يلتفتون إلى لغة الفلك إذا تفاهموا بلغة الحب».

فتجيبني قائلة: «ولكن نحن شرقيون ونؤمن بهذه النبوءات».

وأعود فأقول لها: «وماذا عن المسلمين؟.. إنهم يتزوجون بلا حرج.. ولا يحرمون ما أحله الله».

فنقول: «ولكن هم مسلمون ونحن هندوس، ولهم عاداتهم وتقاليدهم.. ولنا عادات ومعتقدات..»

***

لقد ترملت أمي قبل أن أولد، وكنت أنا طفلها الوحيد.. وكانت تجد عزاءها في أن تراني فتى يافعاً متزوجاً، وقالت إنها لا تمانع في أن أتزوج الفتاة التي اختارها، ولكن بعد أن رفضت «ينا» لم أعد قادراً على الاختيار، فإن جميع الفتيات اللواتي رأيتهن كن في نظري أقل شأناً من «ينا».. وأخيراً فوضت إلى والدتي أمر اختيار العروس، فكانت «ڤارجا» هذه!.

وقالت أمي تزكيها عندي: «حقيقة أنها ليست بالجمال الظاهرة، ولكن قوامها جد بديع.. إن ڤارجا ليست مجرد إنسانة، إنها جوهرة، إنها تفوق اللآليء.. وأنت محظوظ أكثر مما تحسب بهذا النصيب».

وقبل زواجي بفارجا كشف لها عن نفسي وصارحتها بأمري.. ورويت لها قصة حبي لـ «ينا» وأوضحت لها أن ينا قد ملكت روحي وملأت قلبي.

وقلت لها: «أصارحك بأنني سأقبل هذا الزواج إرضاءً لأمي.. أما الحب وما يدخل في بابه فليس له موضع في هذا الاتفاق. فأنت لن تتدخلي في شئوني ولكن في الوقت ذاته ستظهرين أمام الجميع، وأمامي خاصة، زوجة طبيعية وقرينة سعيدة وفية.. ترى هل في مقدورك أن تقبليني زوجاً على هذا الأساس؟».

وتأملتني الفتاة المرشحة لإكليل القران، تأملتني بفضول، ثم أجابت: «إنك تبدو جديراً بالاهتمام.. وأنا أظن أنني أستطيع أن أقبل شروطك!».

وماتت والدتي بعد أسابيع قليلة من زواجنا. وظلت ڤارجا عندكلمتها لي. لم تتدخل قط في شئوني أو في عملي.. وكانت إلى ذلك ربة بيت لا بأس بها، لا تضايقني بشئون المنزل، بل تحرص على تحقيق رغباتي في سماحة وعناية.. ماذا يطلب الرجل أكثر من هذا؟.

***

وللمرة الأولى بعد زواجنا، أحسست أن «ڤارجا» ربما كانت لا تعبأ بي، وكان قد مر على الزواج ستة أشهر. لقد كنت دائماً أوصيها بألا

تنتظرني عندما أتأخر، ولم تكن قط تأخذ بالوصية.. أما الليلة فقد عاودتني الأحلام المزعجة، وفي اليوم التالي لم أكن أحسن حالاً!.

وانتابني قلق ممض.. وخرجت من مكتبي، ووصلت إلى المنزل بعد الظهر.. ولم تكن «ڤارجا» هناك. ولما أعملت مفتاحي الخاص في الباب ودخلت، عجبت ماذا عساها تفعل خارج البيت في هذا النهار القائظ!.. وخطوت نحو غرفتها، وكانت منضدتها الكبيرة هناك، مرتبة مع أثاث الغرفةكسائر ما في البيت، واستبد بي الفضول، وأردت أن أفتش حجرتها لعلي أعثر على شيء مما كانت تكتبه في الليلة السابقة، والتقطت ملفاً، وكان أول ما وقعت عليه عيني رسالة باسمها!.

وكانت رسالة من رئيس تحرير جريدة، بطاقة أنيقة يدعو فيها ڤارجا لمقابلته، ما دامت لن تدعوه إلى البيت.. لماذا ترى زوجتي أنها لا تستطيع أن تدعو أصدقاءها إلى البيت؟ هل هي تحسب حساباً لي وتفكر في أني قد أعترض على الترحيب بالأصدقاء في منزلي؟.. لابد أن أعرف جلية الأمر، وأتحدث إليها..

وعدت أتفحص الأوراق... هناك رسائل أخرى بهذا الاسم ذاته.. بعضها مسهب العبارة والبعض مقتضب، إنه يناقشها في مقالاتها.. كانتكلها رسائل بريئة، ولكن هذا نفسه قد أجج فضولي.. من هذا الغريم الذي يكتب أكثر من «دستة رسائل» في أقل من شهر؟ لقد أوحت إلى ظنوني أني أخدع، ولكني ضبطت مشاعري إلى حين..

وقرأت المقالات ذاتها. كانت من ذلك النوع الذي يوجه إلى الأطفال ويختص بشئونهم، مكتوبة بلغة سهلة مبسطة.. تشرح المسائل التي تبدو للأطفال معقدة يصعب فهمها.. وقلت لنفسي أخيراً: «يا لها من معلمة فذة!».

***

وسمعت وقع أقدامها آتية ترقى الدرج، فأسرعت أعيد الأوراق إلى مكانها، وأسرعت إلى حجرة أخرى وجلست فوق أحد المقاعد كأني لم أصنع شيئاً!.

وفوجئت بي إذ رأتني.. وقالت:

– متى أتيت؟.

ففكرت بسرعة وقلت:

– لقد أحسست بصداع..

– إذن ينبغي أن تتناول قرصاً من الإسبرين، وفنجانًا من الشاي الساخن وسآتيك بهما على الفور.

ثم استأنفت تقول في لهجة آمرة وهي تمضي في وهي تمضي في طريقها:

– إذهب إلى فراشك واستريح.

تماماً كما لو كنت طفلاً في سن العاشرة، ترشده أمه!.

وإلى يومنا هذا، لم أستطع أن أضع إصبعي على التاريخ الذي وقعت فيه الحادثة التي غيرت طبيعتي.. وأظن هذا التغير قد طرأ عليّ شيئاً فشيئاً.. إحساس بالقلق والضيق قد تملكني. وبلا قصد. وبلا قصد مني رأيتني مندفعاً إلى اتجاه معين، هو التجسس على ڤارجا، وتعقب خطاها. كنت أراقبها بعين متزمتة وأنا أتظاهر بالنعاس، وكنت فريسة الألم والاستئاء إذ أراها منصرفة بكيانها وذهنها إلى عملها الصحفي.. وحده.

وخطر لي أن أعلم هل هي تقابل ذلك الشخص، رئيس التحرير، وامتلأت غضباً، وكدت أسألها في هذا، ولكن كم يبدو هذا قبيحاً في نظري!.. وماذا يكون موقفي إذا أجابتني إجابة بريئة على كل شكوكي التي تكشف عن ضعفي أمامها؟!.

وذات يوم فاجأتها بهذا السؤال وقد رأيتها على عادتها مشغولة بكتابتها: «ما هذا الذي تشغلين به وقتك؟».

وقالت ڤارجا على غير استعداد: «إني أضع كتاباً للأطفال».

وقطبت حاجبي، وقلت في مكر وأنا أحاول أن أبدو طبيعياً:

– لم أكن أعلم أنك تتجهين وجهة التأليف!.. هل أرسلت الأصول للنشر؟.

وأجابت وهي تبدو طبيعية أيضاً:

- نعم.

وأغاظني هذا الجواب الذي لم يفصل لي شيئاً مما يدور في ذهني فعدت أقول في هدوء مقصود:

- هل تزورين أحداً من الأصدقاء؟.

فقالت في إيجاز بالغ:

-لا.

قلت:

- وماذا عن عملك.. ألا تلتقين بأحد من.. رؤساء التحرير مثلاً؟.

إذن لقد أفلت لساني! وصرح بما اجتهدت أن أخفيه عنها!.

قالت:

- هل تريدني أن أفعل؟.

- ولم لا؟.

قلتها وأنا أريد العكس.. ولكن التمثيل غلب عليّ، فتصيدت المتاعب.. وجعلت من نفسي «الأحمق» الذي يفتح الباب للشر ويرسل دعواته مباركة الجهل والغفلة!.

وبعد أيام وجدت ڤارجا تقف أمامي، مترددة وهي تهم بالكلام وسألتها: «ماذا هناك؟».

وقالت:

– أود أن أدعو صديقاً لي.. رئيس التحرير، لتناول العشاء.. لأني أرغب في أن نتناقش حول مقالاتي.

قلت:

– ألا يمكن أن تكون المناقشة في مكتبه؟.

– أظن أن هذا فيه شيء من الصعوبة.. إن جميع الكتب والمراجع هنا.

– هل تريدين أن أتناول عشائي في الخارج في الموعد الذي تدعين فيه.. صديقك؟.

وضحكت وهي تقول:

– لا مطلقاً..

ولم أجب على سؤالها بلا أو نعم..

وتوقعت في الأيام التالية أن تأتي إلى مرة أخرى وتتحدث في الموضوع.. ورتبت كلامي وإجاباتي.. ولكن المرأةكأنما قد نسيت... واضطررت أن أنقل الحرب إلى معسكر العدو. قلت لها:

- ماذا عن مأدبة العشاء الكبرى التي ستقام لتكريم صديقك المدلل؟.

فقالت في براءة:

- أي صديق تعني؟.

- رئيس التحرير أو من لست أدري..

- لقد فهمت أنك لم توافق، ولذلك أغفلت الموضوع.

- ولكني لم أقل لك شيئاً!..

قالت وكأنما تبغي أن تعمل على إرضائي:

- لا بأس. إذا كنت لاتمانع، فإنني أدعوه الليلة التي تراهامناسبة.

لقد وضعتني في القصص مرة أخرى.. «الليلة التي تراها مناسبة»!. مناسبة لبقائي في المأدبة أم للابتعاد عنها؟ إنه لمن الغباء أن أستفسر منها عن شيء من هذا!.

وكنت أنوي أن أكون بعيداً في هذا الموعد، ولكن الفضول ضمني إلى جانبه، فحرصت على البقاء في الموعد المعين، ورأيت رئيس التحرير شاباً في مثل سني، وكان يبدو عادياً لا من «الدقة القديمة» ولا من الطراز المتفرنج.. وقد جعل يثني على أعمالڤارجا في الكتابة، وسألني كثيراً في الموضوعات الأدبية التي تزاولها والتيكنت أجهلكل شيء عنها، فكنت متحيراً أشعر بالحرج، وظن هو من مسلكي أني لست إلا شخصاً مادياً لا يهمني إنتاج زوجتي بقدر ما يهمني الكسب، أو الأجر الذي تحصل عليه!.

ومرت الأيام، والأسابيع... ثم الأشهر، وڤارجا تبدو لي سعيدة هانئة مشغولةكعادتها بعملها.. ولكن عقلي الدائم التفكير لم يتركني في راحة.. وذات يوم جاءتني «ڤارجا» وقالت أنها دعت مستر راجان – رئيس التحرير – وزوجته للعشاء في اللية التالية!.

وسلمت أمري ليد القدر وقلت لها:

– لا بأس.

وتحولت عنها.. وضغطت على أسناني وأنا أقول في صوت مكتوم:

– هذه المرأة!..

وفي الساعة من تلك الأمسية الموعودة، رأيتني أرتدي ملابسي، استعداداً لمأدبة العشاء في البيت.. وصعدت إلى سطح البيت وجلست على مقعد أدخن، ووصل الضيف وزوجته ورحبت بهما ڤارجا ونادتني لكي أهبط.. ومن خلال ستار الظلام لمحت وأنا على عتبة السلم الضيفين وهما جالسان في حجرة الاستقبال.. وكذبت عيني وجعلت أفركهما بأصبعي.. هل هذا مجرد حلم جميل من أحلام اليقظة؟!.

كانت «ينا» هناك، تجلس إلى جانب ڤارجا. إنها «ينا» ما في ذلك شك.. ولكن ما هذا التغيير الظاهر الذي طرأ عليها في خلال خمسة أعوام فقط؟ لقد ثقل جسمها.. أكثر مما تتقبله الجاذبية والرشاقة.. ووجهها الجميل قد اختلفت هندسته أيضاً، وبقي لها الصوت.. صوتها الواضح الحاد لم يتغير ولأول مرة بدت لي ڤارجا بجانبها أكثر حلاوة وجاذبية!!.

ودخلت الحجرة. وقفزت «ينا» صائحة:

– رافي.. هل يمكن ألا تكون راقي الذي أعرفه؟!.

ورأيت في خديها نونتين أعرفهما جيداً.. هاتين النغزتين اللتين كانتا تهزانني هزاً فيما مضى.. أما الآن.. إنهما لم تعودا متسقتين مع الخدين المنتفخين.. العريضين.

وقلت لها في بساطة:

– إنني سعيد برؤيتك ثانية يا «ينا».

وتحادثا كالمعارف القدامى المتحابين.

والتفتت «ڤارجا» في اهتمام إليها وقالت لها:

– لم أكن أعلم أن اسمك «ينا»!.

وضحكت «ينا» وقالت:

– إن زوجي لا يحب هذا الاسم.. لقد استبدل به اسم «مينا».. «مي» زائد «ينا».

وعلقت ڤارجا قائلة في خبث:

– شيء جميل!.

وسألتني «ينا»:

– وهل غيرت أنت اسم زوجتك؟.

فقلت لها بلباقة:

– لا، إني أرى أن اسمها الأصلي «ڤارجا» اسم بديع.

وتناولنا العشاء.. وجعلت «ينا» تحملني على الحديث معها وأنا متحير!.. هذه هي الحبيبة ينا التي كنت إذا رأيتها تصل دقات قلبي إلى

أذني.. أما الآن!.. لست أشعر نحوها بعاطفة ما!.. هل تبلد حسي؟.. هل خمد قلبي؟.. هل تخلت عن روحي كل ما كانت تكنه لحبيبة الأحلام من شوق وشغف وعاطفة؟ الحق أن هذا قد يسرني ويرضيني.. ألم أكن أحاول أن أصل إلى هذه النتيجة.. ألم أكن في حاجة إلى أن أسلوها ما دامت لم تعد من نصيبي؟

***

وفي اليوم التالي كنت معنياً بأن ألاحظ مسلك فارجا... لم يكن هناك شيء ظاهر،ولكني شعرت أن هناك هوة واسعة، وأوسع جدًا من ذي قبل، ارتضت هي أن تعترض سبيلها إلي، وتباعد بينها وبيني!.. لقد انطوت فارجا على نفسها.. وجعلت لا تجيب على ما أريده إلا بتزمت واختصار.. ولم تعد تسألني أي شيء.. وتوقفت عن دعوة راجان وزوجته.... وأصبح التفاهم والود بيننا مفقوداً تماماً!..

وقد انزعجت لهذا التطور الذي زاد حالتنا سوءاً.. هل تظل هكذا مقيمة على النفور مني وكراهيتي؟ إن لها كل حق وسبب لأن تكرهني، ولكن هل هذا هو حقيقة شعورها؟.

هل تبرمت بي.. هل تحولت عني؟.. ماذا عن رئيس تحريرها الغالي راجان؟ هل تلتقي بهكثيرًا؟ هل توازن بينه وبيني؟ هل تضن بجزء من إخلاصها للزوجية لتخص به كائناً آخر؟..

هكذا كنت أتحرق واتقلب على جمر الشك، واكتوى بالنار! ولم أكن أقوى على أن أواجهها بمخاوفي أو شكوكي، وأسألها جلية الأمر وحقيقة الجواب!.

وبينا كنت في حالتي تلك، رأيتني ذات يوم عند العصر أتطلع إلى مدخل صالة الشاي، فأرى ڤارجا وراجان جالسين يتحادثان ويتناولان الشاي، في ألفة ظاهرة!.. وأسرعت فأخذت لنفسي مكاناً في الندى بحيث أراهما من غير أن يرياني.. كانا يبدوان في عيني كأنهما يجلسان وحدهما في جزيرة مهجورة، مشغولين بنفسيهما عما حولهما!.

وتجمعت سحب الشك وتعقدت وتواكبت وزحفت إلى عقلي.. هل هما –ڤارجا وراجان – يدبران أمراً؟ إن خيطاً من الأمل يبدو من بين الظلمات ليذكراني بأن ڤارجا إنسانة بريئة فاضلة، وأنها لن تتحول عن طبيعتها، ولكن مسلكي حيالها في الماضي وموقفي منها يبددان ذلك الأمل. ثم.. هذا هو راجان يبتسم. يا للقدر.. «يبتسم»!! هذا هو مرة أخرى يتطلق وجهه وتلمع عيناه! هذا هو يضحك من فرط السرور! وابتسمت هي أيضاً.. الابتسامة الرقيقة اللطيفة التي كست وجهها بجاذبية ساحرة!.

ووقفا.. وخرجا، جنباً إلى جنب يستأنفان الحديث.

وأكلتني الغيرة.. ربما كان راجان وڤارجا يناسب كلاهما الآخر.. ربما كان في مقدوره أن يكفل لها السعادة التي تفتقدها. ولكن عزة

نفسي أبت عليَّ أن أحتفظ بهذا الخاطر.. ألست أنا قادرًا على إسعادها.. ألست أنا أجدر منه بهذه الصحبة؟!.

ولكن هل فعلت؟ يا للخجل!.. لقد استبعدت في ذهني هذا الخلاف الناشب وساءلت نفسي: هل أستطيع الاستغناء عن ڤارجا في بيتي؟ إني إذن سأشعر بوحشة رهيبة، وانا أنطرح في داري مهجوراً مغلوباً على أمري... وهو وهي منتشيان في وجنتهما!.

***

وخرجت من الندى وجررت رجلي جراً إلى محطة الأتوبيس. لم يكن في الصف غير أفراد قلائل، ووقفت في مكاني. وإذ كنت مستغرقاً في أفكاري، سمعت صوتاً حاداً يناديني باسمي.. إنه صوت «ينا»... ورأيتها تقترب نحوي كمرمطون المطبخ.. وقالت معاتبة:

– إننا لا نراك إلا نادراً يا رافي.

واعتذرت بالاعتذار المألوف... شواغل العمل.. ظروف العيش.

– أظن أن ڤارجا تشتغل أكثر منك، ومع ذلك فهي تقوم بواجب الزيارة.

ونظرت إليها وهي مشغولة بمراقبة الأوتوبيس، ورثيت لها وأنا أقول لنفسي:

– مسكينة هذه المرأة «ينا» إنها بسيطة لا تعلم حقيقة الضربة التي تعد لها في الخفاء، في انتظار اللحظة المناسبة!.

وقلت لها وأنا أراها قلقة تريد أن تمضي:

– ولم هذا التعجيل؟.

واحمرت وجنتاها وهي تجيبني:

– إن زوجي ينتظرني، سنذهب معاً لنشتري بعض «اللوازم» والملابس الصغيرة...

وفي هذه اللحظة مرت سيارة، ورأيت عينين تسددان نظراتهما إلى كالحراب.. وبدت مع ذلك نظرات جريحة.. دامية.. يائسة!..

وشدت «ينا» معصمي وهي تقول: «وداعاً»...

ومرقت السيارة الأولى قبل أن أتمكن من اللحاق بها واتجه إلي صاحبة النظرات.. وذهبت السيارة الثانية تحمل المرأة التي ينتظرها زوجها، ويحمر وجهها حياء!.

وركبت السيارة، ووصلت إلى عملي، وأنا أفكر في قلق: لماذا تنظر إلى زوجتي هذه النظرات؟ ماذا فعلت؟.

وفي ساعة متأخرة من الليل عدت إلى المنزل.. ومررت بالحجرات أبحث عن ڤارجا.. وشعرت بالخيبة الشديدة عندما أدركت أنها ما زالت

خارج البيت.. وصعدت إلى السطح.. وكان هناك ضوء ضعيف من أشعة الهلال.. وعلى هذا الضوء لمحت شيئاً مكوماً فوق أحد المقاعد.. لمحت زوجتي تدفن وجهها في حجرها.. وتنتحب، وتنشج، وتغسل خديها بدموعها.. كان قلبها قد تحطم!.

وإلى اليوم لا تقوى مشاعري على أن أفكر في كيف أني تقدمت إليها وضممتها إلى صدري في حنان وحب، وطوقتها بذراعي.. وأنا أهمس في أذنيها بكلمات لا أجرؤ حتى على أن أذكرها لنفسي.. واسترخت ڤارجا بين يدي.. ڤارجا القوية المعتدة بكرامتها.. استرخت والتصقت بي، كالعنقود المحطوم.. وتمالكت نفسها وقالت:

– لقد كنت أؤمل أن تنسى «ينا» يوماً ما. ولكن يبدو أن حبها يسري في دمك لا يتحول عنه. وعندما رأيتكما تقفان عند الأوتوبيس بعد ظهر اليوم. أدركت أني كنت أنتظر وأؤمل سدى!..

قالت لي هذا الكلام الذي لم يكن له ظل من الحقيقة في نفسي!!.

وضممتها إلى أكثر من ذي قبل، وقلت:

– وأنا كنت أظن أنك وراجان تدبران أمراً في غفلة مني.. وقلت هو القرار!.

وذعرت ڤارجا وتخلصت من يدي وهي تتساءل مستنكرة:

– ما الذي جعلك تتجه في تفكيرك هذا الاتجاه؟.

قلت:

– لقد رأيتكما أنت وراجان بعد ظهر اليوم تجلسان في صالة الشاي.. وكان هو يضحك مبتهجاً..

وأخذا السحب تذوب فجأة وتتبدد، وبذور الشك تموت في مهدها تحت وطأة الحقائق التي تكشفت أمام عيني، حين رأيت ڤارجا تضحك ضحكة عالية وهي تقول:

«طبعاً.. إن الفرحة كانت تملك عليه أقطار نفسه.. إنه يتأهب لأن يصبح أبًاً.. وقد قال لي أنه ذاهب مع ينا ليشتريا بعض (اللوازم) والملابس الصغيرة، للطارق القادم».

حقاً.. «بعض اللوازم والملابس الصغيرة»! هذا ما قالته لي «ينا» أيضاً.. لقد وضحت لي الأمور الآن..

وقلت لها وقد صرنا كأهنأ حبيبين، وأسعد عاشقين:

– ربما قلنا مثلهما في العام المقبل: «نحن ذاهبان لنشتري بعض (اللوازم) والملابس الصغيرة».

من قال أن الحب لا يكون بعد الزواج؟!!.

– هل أنت أصم، يا مستر مالا أدرى اسمه؟ أي رجل أنت يا سيدي؟ هل كنت تريدني أن أموت وأنا مدين؟!!

طوبى للفقراء

بقلم: بروچين بهاتاشاريا

كان اليوم يوم نهاية الأسبوع.. والسوق لا حركة فيها، وكما هي عادتي ذهبت يومئذ لأقوم بجولة في هذا المكان الجديد.. إن مثل هذه الجولة قد تعين المرء علي إيجاد أصدقاء ومعارف حيثما ذهب. وهذا أمر أوضح ما يكون بالنسبة لأني كنت جديداً في هذه الجهة، فأنا مندوب تجاري متنقل، أو إذا شئت الدقة وكيل شركة أدوية، وأحتاج أن أعرف شيئاً عن الناس وأحوالهم في هذه المنطقة التي يتزايد فيها العمل.

ولما كنت لا أعرف أحداً وليس بي ميل لأفاضل بين لقاء هذا الرجل أو ذاك، فقد اخترت الدخول إلى أول دكان صادفني في طريقي، وكان مخزن عطارة، أو «صيدلية شعبية».

وما كدت أخطو إلى الداخل حتى هممت بمغادرتها، غير أن هذا العزم جاء متأخرًا، فقد أطل شخص هزيل طويل الرأس غائر العينين من خلف قطعة مهلهلة من القماش لعلها كانت ستارى يوماً ما.. ورمقتني عيناه من هامتي إلى قدمي، وتحركتا في جوف الظلام حركة يمكن ترجمتها بأنها تشير إلى أن انتظر.. ثم قال:

– نعم يا سيدي؟ ماذا أجهز لك؟ مريتا سنجياني؟ ساريبادي؟ سلسلات؟ دراكشا ريستا؟ أم تريد تحويجتنا المشهورة.. «الموداك»؟

قلت:

– لا، لا شيء من هذا، لا تتعب نفسك.. إنما أريد فقط أن أرى «الحكيم« صاحب المحل.

فقال على الفور:

– لا عليك يا سيدي. أنا هو «الحكيم».. تستطيع أن تطمئن إلي، وتصارحني بما تريد. إننا نشخص المرض ونعرف الأعراض من أول نظرة، ونعالج من الأساس..

– أنا لا أعاني من حالة مرضية يا سيدي، ولا أنا أريد شيئاً من وصفاتك العظيمة. إني مندوب شركة بنغال الحديثة للعقاقير الطبية قلت هذا على الفور حتى لا يشطح في ابتئاسه.

واسترسلت قائلاً:

– إنني أنزل في فندق «بهوواتي» عند ناصية الشارع إلى اليمين، وقد فكرت في أن أعرج على هذا المكان لنتسلى بالحديث..

فنظر إلى الرجل نظرة لا تخلو من خيبة الأمل، ولا تخلو من الغضب، وقال بما يشبه التهكم:

– هذا تلطف منك يا سيدي، مستر مالا أدري باسمه، مندوب العقاقير الطبية.. أن مندوبي العقاقير الطبية أرفع بألف قدم منا نحن حكماء العطارة المساكين، وما كنت أعلم أن تتنازل فتزورني، لمجرد التسلي بالحديث!

واعتمد بهوجانج موهان سن – وهذا اسمه كما قرأته على اللوحة – اعتمد بجانبه على تختة خشبية واستأنف قائلاً:

– لطيف منك يا مستر – معذرة ما هو اسمك؟ نعم سابود ميترا.. لعل زائر جديد هنا، أليس كذلك؟ إني أعرفكم جميعاً، فأنتم تأتون إلى هذه المدينة ثلاث مرات في العام. تسألني كيف عرفت؟ سلهم هم يا سيدي عن ذلك، فهذا أفضل!

ونظر الرجل في هذه المرة نظرة ماكرة، وقال:

– إنهم وكلاء عقاقير وأدوات طبية.. ولكنهم لأجل شيء واحد يأتون إلي، أنا الحكيم المسكين، ألا تصدق؟ إني ذاكره لك.. إنه «الموداك».. هو الذي يأتي بهم إلى هنا..

واتجه الحديث وجهة لم أكن مستريحاً إليها.. وبخاصة أنني بشم مختنق من جراء ترديد ما أختزنه من أوصاف وعبارات أزكي بها ما تقدمه الشركة من الفيتامين بي كومبلكس، والكالسيوم، والهيد بروتين، وقلويات معادلة الحموضة، والأمصال، والفاكسينات..

وقد رأيتها فرصة سانحة بعد هذه الوقفة القصيرة أثناء تبادل الحديث، لأحاول أن أحوله عن الاسترسال في هذا الموضوع الذي أضيق به، وأجعله يأخذ في موضوع آخر، وأخذت أفكر في موضوع يكون أكثر استهواء له فخاطرت بسؤال وجهته إليه قائلاً:

– أحسب أنه لابد أن تكون لك أسرة.. ولكني لا أرى عند أحداً من أولادك..

فانصرف باهتمامه إلى ما قلته وعقب عليه قائلاً:

– أسرة؟ وأولاد؟ إني أعترف بأنه تساؤل طبيعي في الصميم ولكن هل تظن أني أستطيع أن أمدهم بما يحتاجونه إذا أبقيتهم هنا؟ لا يا سيدي.. إنني بالجهد أحصل على ما يكفيهم في وجبتين فقيرتين طول اليوم في بيتنا الريفي. ولهذا أقول أنك، أقصد عقاقيرك الإنجليزية، هي المسئولة عما نعاني منه من ضنك..

وظهر عليه ما يشبه الألم والحسرة وهو يقارن بين حال طائفة من «الحكماء البلدي» وبين أصحاب الأدوية المستوردة.

وقلت له محاولاً التسرية عنه:

– أجل هو ذاك.. ولكن ماذا تستطيع أنت أو أستطيع أنا أن نصنع في هذا الزمن من الـ..

وبدا لي أني اخترت الكلام المناسب.. وفعل هذا الكلام فعله في نفسه، فغرق «الحكيم» في مقعده وأطلق تنهيدة طويلة. وقال:

نعم، أنت على صواب يا صديقي الصغير.. أي عصر هذا الذي نعيش فيه! أن ثمن الساري الواحد أصبح لا يقل عن عشر روبيات!

***

واستعان بذاكرته على استعادة ما كان في تلك الأيام الذهبية البعيدة، حين كان القنطار من الأرز يشترى بخمس روبيات والساري الجميل بروبيتين!

وذكرته تلك الأيام الجميلة أيضاً بالدخان الوطني الرخيص الذي يؤدي مهمته بغير أن يرهق الجيب.

ونظر نظرة يأس وضيق وتنهد مرة أخرى.. لقد كان من الواضح أنه يشكو من قلة الدخان.

وجعلني هذا الخاطر أنا أيضاً بالحاجة إلى التدخين، ولما أخرجت علبة سجائري رأيته يرمقها بنظرة متلهفة لم يفعل مثلها أحد من قبل!

وقدت له سيجارة، وجعلت أشعل لفافتي عل مهل. وبينما هو ينتظر عود الثقاب بفروغ صبر، رأيته يتمتم قائلاً:

– إني لا أحب هذه الأشياء الأجنبية.. ولكن على كل حال ما دمت قد قدمت لي سيجارتك..

هكذا قال، ومع هذا رأيته يرتشف أنفاسها بتلذذ ونهم.. وامتنان!

واستأنف يقول:

– إني آسف لأني لم أقدم لك شيئاً مناسباً.. ولكني أظن أني أستطيع أن أعد لك قدحاً من الشاي.

والحقيقة أني لم أكن راغباً في البقاء أكثر مما بقيت، ولكنه أصر بقوله:

– لا يا مستر ميترا؟ هذا ما لا أسمح لك به.. فلا أنت بعميل ولا أنت من سكان المدينة.. ويجب علي أن أكرمك بقدر ما أستطيع.

واختفى خلف الستار، ورحت أنا أستعرض الأسماء المكتوبة على بطاقات الزجاجات المغطاة بالأتربة.

***

وبعد نحو عشر دقائق دعاني إلى الدخول عنده.

وكان ذلك المكان يذكرني بشكل الجب المظلم.. كان في جانب منه موقد مشتعل.. ولما اعتادت عيني الرؤية في ظلمته، رأيت شيئاً يشبه السرير السفري المتداعي للسقوط، وتحته صندوق من خشب وصفيح صدى.. وفوق حبل مشدود تتدلى بعض الملابس القذرة التي يخيل إلي أنها لم تعرف يوماً الطريق إلى الغسل والتنظيف.

وكان الجو مشبعاً بخليط من الروائح المنفرة.. رائحة الأعشاب الطبية، والزيت، والقذارة، والرطوبة والطعام المتخلف.. ولعل الرجل قد أدرك ما أعاني فعرض أن يأخذ أدوات الشاي إلى خارج هذا الركن.. وكانت هذه الأدوات تتكون من وعاء أظنه يستعمل في طهو الأرز أيضاً، وكوزين من الصفيح ذهي طلاؤهما وظهرت فيهما الندوب، وقطعة متسخة

من القماش هي في الغالب «المصفاة»، وربطة صغيرة مفروض أنها تحول السكر.. أما اللبن فهو الذي بدت آثاره على الأرض مع نفاية الشاي!

ولما فتح الرجل اللفافة برفق، رأيتني أتقزز وأنا أراه قد أخرج منها قطعاً من «الجلاب» الأحمر الرخيص، عوضاً عن السكر!

وربما كان الرجل الكريم قد أدرك في تلك المرة أيضاً ما كان يدور بخلدي، فمد يده مسرعاً إلى علبة صغيرة يبحث فيها عن قطعة من النقود ليشتري بها بعض السكر.

وبعد البحث الطويل، أدركت من نظراته أنه قد أخفق وأكدها هو بإشارة يائسة وقال:

– لم أجد شيئاً يا سيدي، ليس لك حظ فيما أظن.. لم أجد مليماً واحداً (بايس) وما عليك الآن إلا أن تتناول الشاي كما أفعل أنا.. بالجلاب بدل السكر.. إني لا أستطيع أن أحصل على ضرورياتي.. لقد اعتدت أن أروض حتى الجوع..

وأشار بيديه موضحاً كيف استطاع أن يروض نفسه على الجوع وسارعت فقدمت له قطعة نقود ذات ثماني أنات؛ أي نصف روبية، وهي التي وقعت في يدي وأنا أدسها في كيس نقودي.

وشاعت الغبطة في وجهه، وهرول إلى الخارج وعاد في طرفة عين، ومعه حفنة من السكر لا تساوي إلا أنة واحدة، وجهز الشاي بعناية.

ولكن الرائحة كانت لا تحتمل، في حين ناولني الرجل نصيبي من الشارب وأنا لا أطيق أن أتجرعه.. وجعلت أفكر ماذا أصنع لأتجنب هذا العذاب وأتخلص من هذا المكروه.. ومن رحمة القدر بي أن «الحكيم» بنفسه قد أتاح لي الفرصة من حيث لا يدري، فقد فرغ من ارتشاف شايه وانهمك في غسل وعائه مولاً إياي ظهره، فأسرعت وصببت وعائي في البالوعة وأشعلت سيجارة لأطرد عن أنفي الرائحة.

واعتدل الرجل ثانية وأخذ «الكوز» بعيداً، وقطب جبينه مصطنعاً الإباء وطلب سيجارة ليدخنها، بلهجة تمثيلية يدار بها غبته، جعلتني أوشك أن أنفجر ضاحكاً، لولا أنني كزززت على شفتي وأخفيت حركة فمي. ولم يلحظ هو شيئاً فقد كان في واديه الحالم يتلذذ بأنفاسها!

أمضيت لديه نحو الساعة، واستعددت لكي أنصرف وأنا أفكر فيما تبقى من نصف الروبية، لماذا لم يعد إلي!

واضطررت أن أتلكأ عنده أكثر من خمس عشرة دقيقة أخرى وأنا أشر من بعيد إلى ما قد يحمله على رد الأنات السبع، ولكنه كان قد أغفل المسألة تماماً. وإذ فقدت الأمل في الحصول عليها، أقنعت نفسي بأن الرجل قد فعل ذلك عامداً.

وبينما أنا أهم بالانصراف رأيته ينادي بائع الخضر، ويساومه محتجاً على غلاء ثمن البطاطس!!

***

وجاء يوم زاولت فيه العمل الروتيني المعتاد، حتى فرغت من التحدث إلى آخر طبيب زرته، ومن محاولة إقناعه بفاعلية أدويتنا وأفضليتها على ما عداها، ما دامت تحمل ماركة شركتنا التي ليس لها مثيل، ورحت أقوم بجولة للقاء الصيادلة وسؤالهم عن طلباتهم من الشركة.

واندمجت في مناقشة حارة مع نجل أحدهم إذ كان يجاهر بأنه يفضل البضاعة الأجنبية غير المضمونة على بعض الشركات الوطنية غير المعروف ما دامت تقدم له عمولة كبيرة، ولا يهمه أننا نستطيع أن نقدم له البضاعة المضمونة بالثمن المناسب!

وتوقف الإبن فجأة في أثناء كلامه الذي يتمسك فيه بوجهة نظره، وخطا إلى الخارج ليحتفي بقدوم «زبون» ظاهر الوجاهة والثراء.

ولكني كنت مخطئاً في حدسي.. فليس هناك عميل مهما تكن درجة غناه يمكن أن يظفر بمثل هذا الاهتمام وهذه الحفاوة من مستر «بيلاس سنج» الصغير. أهو صديق له أذن؟ ربما.. أنني لم أكن متأكداً.

وبعد نحو نصف ساعة خرج الوجيه متبوعاً بالمستر بيلاس، والبهجة بادية على وجهيهما.

ولما تجاوز الزائر الجديد الظل وهو يخطو خطواته إلى الخارج، إلى أن أصبح في مواجهتي، فوجئت به وشدهتني رؤيته.. فقد كان هو زميلي القديم في الكلية «دبين جانجولي»!

وإذا هو يهتف بي قائلاً: «هالو!.. أيها الصديق القديم، ألا تعرفني؟».

كان هو أيضاً قد فوجئ بي، فما كاد يراني حتى تطلق وجهه اغتباطاً بهذه المصادفة.

– من كان يحلم بمثل هذه المصادفة التي لا تعقل.. تعال يا «ولد». ماذا جاء بك إلى هنا؟!

ولما شرحت له عملي عقب قائلاً:

– يا الله!.. الطيور تقع على أشكالها. ولكن لا، مازالت المقارنة مختلفة. فأنت تقيد «الطلبيات»، أما أنا فمهمتي التوريد.. وأقول لك حتى تكون على علم من أحوالي أني مورد كبير للأدوية.

وغمز بعينه وهو يشدني معه إلى عربته..

ولما حاولت الاعتذار ألح علي قائلاً.

– لا، لا مجال للاعتذارات، تعال إلى الفندي لنحمل منه حقائبك ولم يكن أمامي إلا أن أطيع، فذهبنا إلى النزل وحملني الرجل على حزم أمتعتي، والتفاهم مع مدير الفندق لترك الغرفة، وجاء الحمال فنقل الحقائب.

كان البيت جميلاً حديثاً مؤسساً أحسن الأثاث ومزوداً بأفخر الرياش.. وكانت «لدبين» زوجة صغيرة ورقيقة، اشتركت معه في الترحيب بي أحمل ترحيب، ولم أكن حتى ذلك الوقت قد واتتني فرصة لأساله كيف وصل إلى هذا الجاه العريض والثراء الكبير في فترة قصيرة لا تتجاوز عشر سنوات.

وكان ينبغي في الظروف الطبيعية أن أحسده وأغار مما سمعت من قصة نجاحه. ولكنه كان طيباً ولطيفاً معي إلى درجة أني نفيت من صدري كل عاطفة غير كريمة، وتمنيت له كل خير..

***

وقد قمت أنا أيضاً بعمل طيب لم أكن أنتظره، فعن طريق نفوذه الشخصي ومكانته أفدت كثيراً من مصاحبتي له في جولاته.. فهذا الابن ايلاس سنج نفسه الذي كان يعاركني ويتهرب مني، قدم لي مبلغ ٥٠٠ روبية عربوناً لبضاعة، وكثير من الأطباء ممن لم يكن لديهم وقت لمقابلتي، قابلوني بترحيب وأبدوا سعة صدر وهم يصغون إلى ما أعرضه عليهم، مظهرين موافقتهم واقتناعهم بكلامي. ونجحت في معظم جولاتي وشعرت بأني مدين بالشكر والنجاح وعرفان الجميل لهذا الصديق العظيم.. «جانجولي».

وشيئاً فشيئاً بدأت أعلم أنه كبير الأعضاء في المجلس البلدي، وله اليد الطولى في كل عمل محلي، وصديق شخصي حميم للمأمور، وذو نفوذ كبير في دوائر البوليس!

وكنت سعيداً إذ استطعت أن أمد أيام إقامتي في المدينة، وكان عندي المبرر الكافي لهذه الإطالة، فعملي في هذه المنطقة مطرد في النجاح والشركة قد سرها أن توافق على رغبتي.. ولكن مضت الأيام وبدأت أتأهب لمغادرة المدينة على غير رغبة مني، لأتنقل من محطة إلى محطة.. حيث لا مفر من دفع ما لا يقل عن خمس روبيات كل ليلة لطعامي ونومي!

في تلك الليلة دعاني «جانجولي» إلى غرفته الخاصة:

– حسناً يا عزيزي، إذا لم يكن لديك مانع فاذكر لي كم تتقاضى من هناك.. أقصد من الشركة التي تعمل فيها؟..

وابتسمت وقلت:

١٥٠ روبية زائداً ٨ روبيات علاوة يومية، ثم أجر السفر.. وفكر قليلاً، وقال:

– فهمت، إنك لا تكاد تتمكن من توفير شيء من العلاوة اليومية!

وشعر

– بل إن علي أن أفعل، فلدي أسرة تتطلب الكثير من النفقات، كما لعلك تعلم.

– نعم.. نعم..

وعاد يفكر وأخرج قلمه الذهبي وأخذ يرسم به أرقاماً، ويحسب.. ثم نظر إلي في وجهي مباشرة وقال بلهجة جادة:

– لم لا تلتحق إذن بشركتي؟ سأدفع لك ضعف هذا المبلغ، فضلاً عن عمولة بواقع واحد في المائة عن صافي البيع.

لقد مرت بي أوقات هممت فيها بأن أرجوه أن يجد لي عملاً.. أما أن يجيء العرض منه هو فإن ذلك كان مفاجأة لي، ومع ذلك منعت نفسي لكي لا أندفع وأفقد رباطة جأشي، ورحت أحاول الرد:

– ألتحق بعمل عند صديق؟.. هذا كما نعمل...

ولكن الدم اندفع إلى وجهي، وهرب مني الكلام..

وأسرع هو يشجعني وضرب المنضدة بقبضة يده وقال:

– لا.. لا يا سابود، فإنما أنا أحتاج إلى شخص أمين موثوق به! وأنت تحتاج إلى عمل مناسب يعود عليك بكسب أكبر، أليس كذلك؟ هيا هيا يا فتى. العمل عمل. أنا لا أصنع إحساناً. هل تفهمني؟

وقرب علبة سجائره إلي، وأخذت سيجارة بغير أن أدري ماذا أقول..

– حسناً. أنت الآن معي. عال، ستكون أنت المسئول عن مصنعي

وقلت متعجباً:

– أي مصنع؟ لقد قلت أنك تاجر مستورد...

– نعم أنا كذلك بكل تأكيد. ولكن كيف أتصرف لأكون هكذا؟ إن علي أن أعيد تعبئة البضاعة للبيع. أليس كذلك؟..

واعتدل في جلسته وأضاف بلهجة جادة:

والآن إلى العمل يا صاحبي.

– ولكني لا أعرف شيئاً عن عمل المصانع..

– لا يهم يا رجل. فلدي رجالي المدربون لهذا العمل. إن مهمتك ستنحصر في الإشراف على عملية تلبية الطلبات وإتمام التوريد في المكان والزمان المتفق عليهما.

ثم استرسل قائلاً:

– والآن كما أخبرتك، سأكون صريحاً معك. أنت درست الكيمياء في هذا الفرع ذاته، ولذلك فستنهض بهذا العمل على أفضل وجه. إني واثق من هذا..

واستطرد وأنا أصغي إليه مشدوهاً والسيجارة تهتز في فمي:

– إن مهمتنا الرئيسية هي مليء الزجاجات الفارغة والعلب كيفما كانت وحيثما وجدت.. ثم نلصق عليها البطاقات..

وحسبت أنه يهزل معي. ولكني نظرت إلى وجهه فوجدته جاداً صارماً!

وعاد هو يقول:

– يظهر أني لم أوضح الأمر تماماً. حسناً، إني أجمع الزجاجات والأوعية الفارغة مما يأتي مع البضاعة الأجنبية، وأملأها أنا ببضاعتي.. بالدواء الذي أعده في مصنعي، وأبيعها على أنها بضاعة مستوردة، مع تخفيض في الأثمان، هل هذا واضح؟

واضح نعم.. واضح وضوح الماء المقطر الذي يعبأ في بعض الزجاجات مع الحقن!

وانقشع الضباب الكثيف عن عيني، وغلا الدم في عروقي. وبغير أن أشعر رفعت «تقالة» الورق وهممت بأن أقذف بها في وجه الرجل بكل قوتي.. ولكني أمسكت يدي وجلست محنقاً أتفجر غيظاً..

ونظر إلى «جانجولي» بعض الوقت ببرود، ثم قال في سخرية:

– أنت ضعيف.. في منتهى الضعف كما يبدو لي..

وحاولت أن أدمغه بكلمة «قاتل.. مجرم»، ولكن الموقف كان قد عقل لساني..

ونهضت في النهاية كالسكران، وأفضيت إلى الشرفة، وهبطت السلالم إلى غرفتي لأخذ حقائبي..

وطلبت من سائق «الركشو» أن يسرع بي إلى محطة السكة الحديدية، وكنت مشتت الفكر غائباً عن وعيي فلم أكن أدري أي طريق أسلك..

***

ودفعة واحدة وجدتني أعود إلى نفسي عندما توقف السائق بي فجأة..

ورأيت «الحكيم» الهزيل يقف في مواجهتي يهزني ويحدثني..

ورأيته يدس قطعة نقد من ذات الثماني أنات في يدي، ويقول:

– هل أنت أصم، يا مستر ما لا أدري اسمه؟ أي رجل أنت يا سيدي؟ هل كنت تريدني أن أموت وأنا مدين؟!! أين اختفيت كل هذه المدة، هكذا فجأة؟

وبينما رحل أعتذر له كانت عيناي وذاكرتي تستعرضان حانوته الحقير الفقير المحمل بالأعشاب التافهة والبضاعة الرخيصة..

حانوت قذر رخيص حقير، ولكنه لا يحوي فيما يحويه أي غش، أو خداع، أو كسب حرام..

فقير، أجل... ولكن... وطبى للفقراء!

– يا بنيتي... لقد كانت ثورة شباب... ثورة طائشة كنت أنا وقودها... وأنا قربانها!...

أنا حرة

بقلم: برسي إدواردز

«يا للسخرية!»

«إلى متى يتسلط علينا الرجال، ويحتكرون لأنفسهم جميع الحقوق، وينكرون على المرأة أي حق وأية مزية؟!

«للرجل أن يختار الفتاة التي تروق في عينيه، لكي يبني بها، ولو كان دميماً أو هرماً أو ذا عاهة.. والمرأة صامتة تساق إلى جلادها كشاة تساق للذبح!

«للرجل أن يخرج من البيت ويدخل كما يشاء، وأن يحب ويكره ويأمر وينهي، وأن يطعم وينام حيث يشتهي... والمرأة تصدع بالأمر أو تقبع في البيت أو تنهض للخدمة من غير توقف أو شكوى أو اعتراض.. كحيوان أخرس!

«للرجل أن يرتب مقابلاته وزياراته الخاصة على الوجه الذي يحلو له، بلا حسيب ولا رقيب.. والمرأة لا تلتفت إلا بإذن ولا تتحرك إلا بمقدار، ولا تنقل قدميها إلا معززة برقابة تكتم الأنفاس!

«للرجل الحرية والتسلط والامتياز والتوقير.. والمرأة مسلوبة الحرية والإرادة والاختيار والكرامة!

«وأخيراً أعطى الرجال لأنفسهم – هكذا بكل غطرسة وأثرة – حق العقاب والطلاق والفراق.. أي حق تشريد المرأة والقضاء على مستقبلها، كإنسانة كان ينبغي أن تعيش مطمئنة عزيزة، ناعمة البال.

«وتسألهم في ذلك مراجعاً، فيتشدقون بألفاظ التقاليد.. العرف.. العادات!!

«أية عادات وأية تقاليد؟

«ألم تضعوها أنتم أيها الرجال مراعين وقد انفردتم بالحكم أن تحابوا أنفسكم.. أليست هذه شريعة الغاب حيث الغلبة للوحش المفترس، وحيث الغدر والمفاجأة والافتراس هي العرف السائد الذي لا أعترض عليه؟!

«لماذا لا تنعكس الآية وتصبح الحقوق التي استأثر بها الرجل لنفسه هي حقوق المرأة وحدها؟

«أو لماذا – على الأقل – لا يكون من حق المرأة أن تفعل مثلما يفعل الرجل، فتتمتع بالحرية، والمساواة، وإبداء الرأي؟

«لماذا لا يكون لها – هي أيضاً– حق الاعتراض.. حق الفيتو تلوح به في وجه الرجل إذا اكتشفت أنه لا يناسبها كزوج، أو عمد إلى تهديد أمنها أو مستقبلها؟

«إذا كنت بنات جنسي لم يستطعن إلى الآن أن يكتسبن هذه الحقوق، فأنا لها!

«إن هذه الخطوة الجريئة التي تجفل منها سائر الفتيات وسائر الزوجات لن تخطوها إلا إنسانة فدائية مضحية، تتقدم الصفوف وتهب نفسها لشتى الاحتمالات والأخطار..

«وأنا هي تلك الإنسانة!

«سأنطلق كالشعلة اللاهبة، والصيحة المدوية، وأنتزع حق بنات جنسي انتزاعاً ولو فقدت هناءتي وحطمت قلبي وقدمت نفسي قرباناً على مذبح المباديء التي أرتضيها لهن.

«سأثور منذ اليوم.. أنا الفتاة المشرفة على سن الثلاثين، إنني أخب في ثياب العرس، وأفتح عيني لأول مرة على بيت الزوجية!

«أجل سأثور.. سأجعل العصمة بيدي أنا الزوجة، دون الزوج.. ولنر أهي ثورة شباب، أم هي ثورة حساب وعقاب..

«أجل.. سأثور!..»

***

كانا جالسين في جانب من الشرفة يتحادثان، تظللهما زروع الحديثة الكبيرة بأفنانها وثمارها.. واستندت «شيلا» إلى مقدها المستطيل ترقب «روبين» وهو يطلع على قائمة المدعوين الذين سيحضرون إلى حفل زفافهما القريب.. كانت قائمة طويلة حاشدة بالأسماء والصفات، من بينها عدد من زملائها وزميلاتها في وقت

الدراسة الجامعية. ورأته يمر بعينه مسرعاً إلى نهاية القائمة.. كانت واثقة من أنه لا يعرف إلا أسماء قليلة منها.

وفجأة سألها روبين «من هذا؟»

وقرب إليها القائمة، مشيراً إلى أحد الأسماء.. كان مكتوباً لم كشط ووضعت مكانه علامة استفهام.

وقربت «شيلا» وجهها من القائمة، وقالت:

– هذا اسم عمتي «مونيشا»..

– ولماذا علامة الاستفهام، ولماذا كشط الإسم؟

– ماما هي التي وضعت علامة الاستفهام، وبابا محا الإسم كله.. لقد كنت أود أن تحضر حفل الزفاف، ولكن..

– ما خطب العمة مونيشا هذه؟ مرض معد.. أم شيء آخر؟

– لا شيء من هذا ولكن.. لقد سلكت سلوكاً معيباً..

فالتفت روبين باهتمام إلى خطيبته، وقال:

– إذن هي الشاة الضالة.. «الشاة السوداء» في الأسرة.. أليس كذلك؟... ماذا اقترفت من خطيئة لم تغتفر لها حتى الآن؟

– لا أعرف تماماً تفصيل ما حدث، فقد كنت حينئذ في سن التاسعة، وانقضت الآن إحدى عشرة سنة.. لقد هربت!

– هربت؟!!

– أجل تركت زوجها وذهبت بعيداً.. قيل لي أنها ثارت على الوضع الذي أرادوه لها، فقد اكتشفت بعد الزواج أن الزوج لا يناسبها وأنها لا تحبه.. كان زوجها رجلاً غنياً له في البلدة جاه ومركز مرموق، وكان صديقاً حميماً لأبي، ومن هنا اشتد سخط أخيها عليها، وأنكر فعلتها، وتنكر لها منذ ذلك الحين.. أما هي فمضت في خطتها إلى النهاية، وتناقلت النساء أنباء ثورتها وخطتها وهن متحفظات، وقلن إن هي إلا ثورة شباب.

وشرحت له فلسفة هذه الثورة، وكيف أن النساء مظلومات هذا العالم وأن ليس لهن حقوق، حتى حق اختيار الحياة التي هي من شأنهن وحدهن..

وختمت كلامها قائلة:

– ولعلك تدرك الآن السر في كشط اسمها من القائمة!

فسألها روبين:

– وأين هي الآن؟

– لم يكن من حقي أن أعرف مكانها، ولكنني عرفته.. إنها تعيش هنا، في كلكتا..

وذكرت اسم شارع تبينت أن روبين لا يعرفه

– وهل يعلم والدك أين تقيم في كلكتا؟

– لا أدري، وإن كنت أرجح أنه لا يعلم..

والتفت إليها الشاب، ونظر إلى عينيها، وقال بلهجة جادة:

– إن هذا هو حفل زواجك. أليس كذلك؟... من حقك «أنت» أن تدعي إليه من تشائين.

– ولكنه متكفل بالأمر على كل حال.. وتخيل أنت كيف يكون موقفه مني لو خالفته.. إنني لم أسمعه يذكر اسمها منذ ذلك الحين، ويبدو أنه تشاجر معها وخاصمها ألد الخصام.. لقد رفضت بإصرار أن تعود إلى زوجها، وكانت تريد الطلاق، ولكن الزوج رفض أن يطلقها..

– إني أرى أن هذه هي الفرصة المناسبة للتحدث إلى والدك في هذا الموضوع.

واتعرضت شيلا قائلة:

– إنك إذن لا تعرف بابا كما أعرفه.. لا تنس أن هذا الوقت غير مناسب لأن نثير فيه نزاعاً عائلياً من جديد.

ثم وثبت من مقعدها على قدميها، وشدته من يده وهي تقول:

– هيا بنا، الشمس تسرع إلى المغيب، فلنتمش قليلاً في الحديقة.

***

وبينما هما يتهاديان جيئة وذهاباً، ابتدر الشاب خطيبته قائلاً:

– ترى...

– ترى ماذا؟

واستدرك من هذا الخاطر، فقال على الفور:

– لا شيء.. لا شيء

قالت:

– بل قل كل شيء، فلا حجب ولا أسرار بيننا..

– أريد أن أقول أن هذا النعيم الذي أنت فيه بين والديك، وهذه المجالي والمفاتن التي قد لا تتوافر في بيت شاب ناشيء غير ميسور الغنى مثلي، قد تحول بينك وبين الحياة التي ستقبلين عليها.. أنا نفسي أحب لك أن تكوني ذات شخصية ورأي مستقل، بل أفضل أن تكوني الشاة السوداء – إذا احتاج الأمر – على أن تظلي شاة بيضاء عزيزة الصوف مسمنة بلا غاية!

وتحيرت الفتاة وهي تفكر فيما قاله لها فتاها.. هل تكون الفوارق المادية بين الأسرتين سبباً في القطيعة أو الجفوة؟ حقاً إن الأسرتين مختلفتان جد الاختلاف!.. إن أباه ليس إلا موظفاً عادياً في إحدى الشركات، أما والدها فهو يشغل منصب المدير العام لشركة التصدير البنغالية، وهو يدير أيضاً نصف دستة من الشركات التجارية الأخرى.. المال، المركز الاجتماعي، التأمين، كل هذه أشياء كانت في متناول يدها دائماً، ولم تفتقد شيئاً منها قط. أيكون هذا هو ما يعنيه الشاب بكلامه، وهو يتصور أنه لن يستطيع أن يهييء لها مثل هذا الجو ومثل هذا القدر الذي اعتادته؟.. إن الشيء الوحيد الذي تتشابه فيه الأسرتان هو أنهما تدينان بالدين المسيحي، وكان هذا هو الذي دفع بهما إلى اللقاء الأول.. فلم يكن لقاء «روبين» و«شيلا» وتعارفهما إلا في الكنيسة!

والتفت الشاب إلى خطيبته وقال:

– حدثيني أكثر عن عمتك مونيشا.. أن أمر النساء الغريبات الأطوار يستهويني دائماً..

– لقد تزوجت وهي صغيرة السن، وكان زوجها واسع الغنى والثراء.. ولكن الغنى لأيكن هو بغيتها.. وكان زوجها أيضًا شخصية مرموقة في البلدة.. ومن أجل هذا استطاع أن يكون صديقاً لأبي.. لم يكن هذا الزواج من النوع الذي تطمح إليه، فما كادت تعاشره حتى نفرت منه واختفت عن الأنظار.. أما لماذا تركته وكيف تركته فهذه تفاصيل لم يخبرني أحد بشيء منها غير ما رويته لك منذ قليل.

- وزوجها؟؟

- لقد مات بعد ذلك في حادث قطار

وصمت الشاب قليلاً ثم قال:

- إنني أظن أنه ينبغي أن تحضر عمتك حفل الزفاف في الأسبوع القادم يا شيلا.. لقد خرجت على التقاليد الموروثة.. أجل، ولكنها عوقبت بما فيه الكفاية!

وهزت شيلا كتفيها كمن لا يملك أن يصنع شيئاً وقالت:

- لقد وضعت اسمها في القائمة كما رأيت، ولكن...

- قولي لي الآن: هي تريدينها حقاً؟.. هل مازالت تحبينها؟

- أرجوك يا روبين، لا تثر هذا الموضوع الآن.. إن بابا لن يسمح بمجيئها، ولن ينفعنا التعرض لهذه الأمور.. بل قد يضر بنا!...

- لا داعي للتفكير في هذه الاحتمالات.. إن موضوعنا ينحصر في أنك تريدين أن تشهد عمتك حفل زواجنا.. فدعيني أذهب إلى والدك لأحادثه في هذا الشأن..

وأخذها من ذراعها، وعاد بها إلى المنزل، ودخلا إلى المكتبة حيث كان يجلس والدها مستر «بنرجي».

قالت شيلا:

– بابا، لقد كنا نتناقش في بعض الأمور. إن روبين يرى أن ندعو عمتي مونيشا لتحضر حفل التكليل.

ولم يتغير وجه الرجل، ولكن بعض الدم صعد إلى جذور شعره الذي وخطه الشيب، وقال:

– إنه رأي! مجرد رأي، أليس كذلك؟

ورمق ابنته بنظرته، ثم تحول إلى الشاب الذي كان يقف أمامه وقفة المعتد بنفسه، الضابط الصغير في القوات الجوية، روبين وبلل شفتيه ثم استأنف قائلاً:

– إنها مسألة عائلية أيها الشاب، ولا أظن أنها تخصك في شيء..

فقال روبين:

– ولكنه الحفل الذي يعقد فيه قران شيلا يا سيدي، وأنا أحسب أنه ينبغي أن يؤذن لها بدعوة الأشخاص الذين تحبهم هي!..

فرفع الرجل يده وقد تجهم وجهه، وقال محتداً:

– أنا لا أريد أن أناقش معك هذه المسألة

ولكنه ما لبث أن ضبط أعصابه وعاد يقول في هدوء:

– إنني لا أدري كيف نستطيع أن نتناقش فيها.. أنك لست في مركز يمكنك من معرفة التيارات العائلية ومشاكلها الدقيقة مثلما نعرفها.. وأنا موقن أنك ستدركها يوماً ما. أما الآن..

وفي هذه اللحظة دخلت الأم وهي تقول:

– ما الخبر يا شيلا

وقال الرجل الكبير:

– لا شيء يا نيلليما

ورددت الإبنة قوله:

– نعم يا مامي. لا شيء..

ولم يجرؤ أحد على استئناف هذا الحديث في ذاك اليوم.

***

لم يشر أحد إلى موضوع العمة طوال الأسبوع الذي سبق الزواج، ونسي الرجل كل شيء وعاد إلى طبعه السمح، وكان يتحدث إلى خطيب ابنته في أمر العلاوة التي سيضيفها إلى المصروف الذي يختصها به.

واعترض الشاب الشهم ورفض أن تقبل عروسه علاوة من أبيها أو مصروفاً.

وقال الرجل:

– في الوقت الحاضر لابد من أن يستمر مصروفها، ريثما تقفان على أقدامكما.. وتستطيع أنت أن تصعد السلم، فتصبح قائد جناح.. قائد سرب.. إنك لا تعرف الفتاة التي ستتزوجها. لقد اعتادت أن تحصل على أي شيء تريده!

وأمن الشاب على كلامه، وشكره.. وانصرف

وتواعد الشاب وخطيبته على أن يلتقيا في الليلة التي تسبق يوم الزفاف، ليخرجا للتنزه.

وفي الليلة الموعودة ارتدت شيلا ثياب الخروج، وكانت أمها في حجرتها، فسألتها شيلا:

– هل حضر روبين يا أماه؟

فقالت الأم:

– إنه هناك في المكتبة مع والدك

فعادت تقول:

لم هذا الكتمان؟ أهو سر من أسرار الرجال؟ أليسا هما يتنازعان بشأني مرة أخرى، كأنني فرس تعرض للبيع؟!

وأجابت الأم:

– لعلهما يتناقشان بشأن مصروفك الجديد..

– إذن هيا بنا إلى المكتبة، سأدفعهما إلى الخارج..

وهبطتا الدرج وهما تتضاحكان

وما أن رآها روبين حتى تهلل وجهه وقال:

– هاللو شيلا.. لقد جئت منذ قليل، وانتظرتك هنا مع «عمي»..

ونظرت إلى والدها، فإذا هو يقول:

– أجل، هو ذاك

وبعد خمس دقائق كان الطائران المرحان منطلقين في شوارع المدينة الواسعة في السيارة الفخمة التي أعارهما الوالد إياها

***

ومالت الحسناء برأسها على كتفه، وما لبث أن استسلمت لنسمات الأصيل المخدرة، فراحت في إغفاءة لذيذة، تتخللها الأحلام الجميلة.

وعندما وصل ربين في النهاية إلى منعطف عند طريق «جوبي موهان داتا»، كانت قد فتحت عينيها، وقال لها رفيقها على غير انتظار:

- ذلك الرجل الذي هو أبوك.. إنه لرجل!.. والعظيم فقط هو الذي يكتشف الخطأ ويعترف به!

وحسبت الفتاة أنه يتحدث عن العلاوة المالية التي ستظفر بها من أبيها فقالت له:

- إذن لقد كسبت. أليس كذلك؟

- لا، لم أكسب، طبيعته الخيرة هي التي كسبت!

وتنبهت شيلا إلى أنهما توغلا في طريق المدينة فقالت:

- أين نحن الآن؟ لقد كنت أظن أننا سنتناول عشاءنا في مطعم «فربوس»!

- سنذهب أولاً لزيارة صديق قديم لك.

- صديق؟!..

- شخص عزيز عليك..

وفجأة تذكرت شيئاً، فتعلقت برقبته وهي تقول:

- روبين!.. هل نحن في طريقنا إلى...

- نعم.. نعم..

– ولكن كيف عرفت؟!

– ليس الأمر عسيراً.. لقد ذكرت لي اسم زوجها، واسم الشارع الذي تقيم في أحد منازله.. وببعض التحريات عرفت الباقي..

وأمسكت شيلا بذراعه وسألته:

– هل هي بخير؟

– إنها تشكو من داء النقرس – التهاب المفاصل – وفيما عدا هذا هي بخير. إنها تنتظر قدومك..

ووقفت السيارة، وهبطا منها وصعدا درج المنزل ودقا الباب. وكان لقاء حاراً تجمعت فيه أشواق السنين عدداً، فيها البعد والفراق والحرمان والتجارب. وكان أول شيء اهتمت به شيلا أن تدعو عمتها لتشهد حفل الزفاف، وإن كانت مترددة وجلة لما تعلمه من مغبة استجابة عمتها للدعوة..

وقالت العمة مونيشا:

– كان بودي أن أحضر وأبارك زفافكما، ولكن أباك لم يوجه إلي الدعوة..

قالت شيلا:

– إنك لست في حاجة إلى مثل هذه الدعوة يا عمتي، فأنت ذاهبة إلى بيتك وإلى ابنتك..

– إنني لا أستطيع أن أتجاهل العرف والتقاليد.. اسمعي يا ابنتي نصيحة امرأة عانت من التجارب أحد عشر عاماً: لا تخالفي العرف، ولا تتخطي التقاليد.. إن التقاليد هي تراث الآباء والأجداد، وخلاصة الحكمة التي اكتسبوها على مر الأزمان، والخبرة التي تعلموها بالمران والمثابرة والدرس والبحث، وهي العمد التي يستند إليها نظم المجتمع كله، بها يقوى ويشتد، وينمو ويزدهر..

– ولكن يا عمتي.. لقد كنت أظن غير هذا.. لقد سمعت من قبل شيئاً آخر.. سمعت عن الثورة التي تزعمتها..

ومسحت العمة بكفها قرب عينيها وقالت:

– يا ابنتي، لقد كانت ثورة شباب.. ثورة طائشة، كنت أنا وقودها، وقربانها!!

وأخرج روبين من جيبه بطاقة مذهبة جميلة، تحمل اسم العروسين معنونة باسم «مونيشا».. وقدمها روبين وهو يقول: «هذا الرجل العظيم.. لقد انتصرت طبيعته الخيرة!»

وقرأت في ركنها عبارة بخط أخيها يقول فيها:

«عودي إلينا يا مونيشا، عودي الليلة إلى مكانك القديم وغرفة نومك الشرقية!!».

وهتفت العمة متهللة:

– إذن لقد عفا عني!!

لقد فكر في أن ينتقم.. فكر في أن يعاقبها عقاباً يضارع هول الحادث.. هل يقتلها إذن؟.. إن القتل لا يكفي!..

القرار الأخير

بقلم: جانا باتي

لاحت على ثغرها ابتسامة عابرة، أو شبه ابتسامة، وهي تسند ذقنها فوق راحة يدها، وتضع ذراعها على حافة الباب الصغير.. كانت تنظر إلى الشارع المقفر الضيق، في ملل، ثم الفتت باهتمام عندما لمحت فجأة شخصين متلازمين يستحثان الخطى عند طرف الشارع.. وتبعتهما بنظرها إلى مدى الرؤية، ثم ارتدت إلى نفسها، وأطقت تنهيدة طويلة.

لم تكن تدري كم من الوقت مضى وهي تقف وقفتها تلك.. حتى أفاقت على صوت جرس الدراجة يحركه صاحبها وهو يمضي بحذر في طريق متعرج ليتجنب الاصدام بشابين يسيران في وسط الطريق، وهما يضحكان بصوت عال لبعض النكات..

ونزل «رامانوجام» عن دراجته وحيا زوجته بابتسامة عريضة، ولكنه ما لبث أن أدرك أنها لم تكن ملتفتة تماماً إليه.. بل كانت لم تزل تنظر بعيداً..

– هيا ندخل.. ما كان يصح أن تقفي خارج الباب في هذه الساعة.. إنك بذلك تعرضين نفسك للإصابة بالبرد!

ودخلا معاً، لم يكن مسكنهما إلا جانباً من مرفق بيت كبير في هذه القرية، بدلا فيه قليلاً بحيث يصلح للسكنى، وكان الزوج قد بذل جهداً كبيراً حتى استطاع أن يحمل «آيانجار» صاحب الدار على السماح له بهذا الركن الصغير المتواضع القائم عند طرف السور الكبير!

وفي أول مرة جاءت زوجته إلى هذه الضاحية، وخطت إلى هذا المكان، بذلت هي الأخرى جهداً كبيراً لكي تحمل نفسها على الإقامة في هذا المكسن المقبض المهجور.. ولم تقبل الحياة في هذا المكان إلى بعد نزاع فيما بينها وبين نفسها.. إنها تعلم أن حياة المدن كثيرة التكاليف، وزوجها قد حصل بالكاد على عمل متواضع.. ولكن هل يهم بالمال، ألا يغني الحب عن سائر ما يكلفه المال من أشياء ومظاهر؟.. ألا يغني الغنى في الحب عن الغنى في المال؟.. لا شك أن الحب أمر جوهري تبدو سائر الأشياء حياله مجرد قشور لا قيمة لها!

***

قالت لها «أمبوجا» وهي تدعوها إلى الجلوس في الحجرة الفاخرة بالمنزل الكبير الذي يملكه والدها «آيانجار» الذي ذكرنا اسمه من قبل:

– إن الإنسان ليكاد يجن من وطأة الوحدة وهذا السكون المخيم على كل شيء.. وأظن أنني أستطيع أن أتناسى هذه الوحدة إذا جلسنا معاً نتحادث بعض الوقت.. وهذا ما شجعني على أن أدعوك اليوم لزيارتي.. إنني أرجو ألا يؤخرك ذلك من أداء عمل البيت.

وقالت ألاميلو على الفور:

–لا.. مطلقاً، إني أصارحك القول بأنني أنا أيضاً قد أحسست هذا الاحساس!

– إنني سعيدة حقاً.. فنحن نستطيع أن نتعاون على التخلص من هذا الشعور بالوحدة كلما التقينا..

وضحكت أمبوجا، وضحكت ألاميلو وعادت الأولى تقول:

– إن أبي كذلك يحس بالوحدة والوحشة.. يا له من مسكين.. إنني لن أطيق أن أبقى طويلاً في هذه القرية.

واعتادت ألاميلو كل يوم بعد ذلك أن تبكر بأداء أعمالها المنزلية، وعند خروج زوجها وقت الذهاب إلى عمله، تندفع هي إلى الباب الكبير لتقابل أمبوجا صديقتها، إنهما متعادلتان في السن، وأكثر من هذا فإنهما يتفقان في الذوق، وكثيراً ما تتفق وجهتا نظرهما كلما تناولتا موضوعاً أو تحدثتا في أمر ما!

والتفتت أمبوجا فجأة وقالت لضيفتها: «أليس اليوم هو يوم العيد، فكيف أراك بغير «ساري» جديد؟».

وضغطت ألاميلو على شفتيها لتخفي ما انتابها من تأثر وألم وأدركت أمبوجا على الفور خطأها، وأحست بالندم على ما بدر منها وهي تبدي هذه الملاحظة التي جرحت صديقتها، فبادرت إليها ووضعت يديها برفق وحنان فوق كتفيها واصطحبتها إلى غرفة الزينة محاولة أن تسري عنها وتزيل ما علق بنفسها.. ولم تقو ألاميلو على أن تقول شيئاً، فتبعت مضيفتها في صمت.

وقالت أمبوجا تعتذر:

– إنني آسفة على ما أبديت من حماقة.. وأنا في الواقع لم أكن أقصد إلى شيء من هذه الإهانة..

وتركت ألاميلو في وسط الغرفة وأسرعت تفتح دواليب الملابس.. كانت كلها مليئة بالملابس الفاخرة من بلوزات وجونلات وساري مرصعة بالقصب أو النقوش.. وحملقت ألاميلو في هذه الأثواب ببلاهة، وعقدت الدهشة لسانها فلم تدر ماذا تقول، وذرعت أمبوجا الغرفة مرة أخرى وسحبت عدداً من الصناديق التي تحتوي على «تشكيلة» وافرة من الحلي والأحجار الكريمة، والتفتت إلى ألاميلو وقالت:

– هيا بنا نرى أي هذه العقود والثياب يناسبك لكي ترتديه معي اليوم.

واستطردت قائلة:

– إني لا أدري ما إذا كنت ستجدين من بينها شيئاً يلائمك، فأنا لا أحسن الاختيار، ولا أطمئن إلى ذوقي..

– ولكن..

– لا، لا تعترض فأنا لن أسمح لك بالاعتراض.. ولا تنسي أننا كالأخت وأختها، إني أصر على أن ترتدي ما يحلو لك منها اليوم.

وغادرت ألاميلو غرفة الزينة وهي في زيها الجديد.. امرأة رائعة الحسن أبرز الثوب محاسنها وجمالها، وبدت في الساري النفيس والعقد الثمين فاتنة ساحرة، قد ازداد سحرها وفتنتها مائة ضعف!

وأطرت المضيفة حسنها قائلة:

– ما شاء الله!.. إنك رائعة!.. تعال يا أبي واشهد.. انظر من ترى عندنا.. هل تعرفها!.. هل تستطيع أن تميزها؟

ودخل آيانجار إلى القاعة ووقف مبهوتاً!..

وشعرت ألاميلو بالخجل واقتربت من صديقتها.. ولكن الخجل قد ترجمه الحسن على وجهها في صورة ضاعفت من جمالها!

وصاح أيانجار:

– يالك من حورية نزلت إلينا من الجنة!...

وازدادت ألاميلو حساء وتضرجت وجنتاها باللون الأحمر.. وشجعتها أمبوجا على أن تبقى بهذا الزي طيلة يومها، حتى إذا جاء المساء انصرفت إلى بيتها.

حملق زوجها رامانوجام فيها عند عودته وهو لا يكاد يصدق عينيه!

وقالت له ألاميلو:

- انظر.. انظر ماذا فعلت لي أمبوجا اليوم..

وخطا الزوج نحوها، وأخذ وجهها بين راحتيه، ونظر في عينيها وقال:

- لم أكن أعلم أنك يمكن أن تبدي بمجرد تغيير زي، بمثل هذا الجمال الأخاذ!.. إنه الله قد وهبني أجمل امرأة، ولكنه لم يهبني ما تحتاج إليه لإبراز هذا الجمال!

وأمنت ألاميلو على ملاحظته قائلة:

- حقاً.. ما أبعد الفرق!

وراح الرجل يردد في تدبر:

- حقاً

وعادت ألاميلو تقول:

- لن أعود إلى لبس تلك الثياب الخشنة!..

***

وفي إحدى زيارات ألاميلو لجارتها قالت لها الجارة:

- لقد اعتزمت أن أسافر عائدة يوم السبت القادم.. إنني أمضيت هنا ما يقرب من شهرين أحسست كأنهما سنوات عديدة!

وصدمت ألاميلو بهذا الخبر.... لقد حزنت نفسها عندما علمت بهذا الفراق الوشيك.. إنها منذ عرفت أمبوجا قد ائتنست بها وشعرت كأن لقاءهما الأول لم يكن إلا أمس.. وقد صادقتها بإخلاص واطمأنت إليها، ولم يعد الفراق في المركز الاجتماعي لكل منهما يؤثر فيما تكنه كلتاهما من صداقة وود للأخرى.. وأمبوجا هي صاحبة الفضل في هذا كله.. ولكن ها هي ذي تنهض فجأة لتلحق بزوجها، كما يستيقظ الإنسان فجأة من حلم جميل!

وفي يوم تالي بينهما كانت ألاميلو في منزل صديقتها، أشارت أمبوجا إلى لوحة زيتية معلقة في الحائط، تحمل رسم امرأة وقور بالحجم الطبيعي وقالت:

– هذه هي أمي.. لقد ماتت منذ بضعة أشهر فقط قبل أن تحضري وتقيمي مع زوجك في هذا المكان.. كانت سيدة محبوبة فاضلة... وقد كانت وفاتها نكبة شديدة لوالدي، وخاصة أنه رجل اجتماعي بطبعه!

وتوقفت قليلاً ثم استأنفت قائلة:

– ليته يتزوج مرة ثانية!.. إن الأشخاص الذين على شاكلته يفقدون كل استمتاع بالحياة عندما تكتب عليهم مثل هذه الوحدة.. وهو لحسن الحظ في حال صحية جيدة، وروحه لم تزل شابة..

ثم تحولت إلى صديقتها وخاطبتها قائلة:

– سأغادر هذا المكان في الصباح يا ألاميلو.. وإنني لسعيدة جداً بأنني قابلتك وتعرفت بك.. مسكين والدي.. سيعاني الوحدة من جديد.. إني أرجو ألا تنقطعي تماماً عن هذا المكان بعدما أذهب يا عزيزتي.. حاولي أن تأتي بين حين وآخر وأن تسألي عن أبي، فإن هذا قد يخفف عنه بعض ما يعانيه.

وانحدرت على خدي ألاميلو دمعتان حارتان..

***

حين لقيت ألاميلو الرجل في بيته ذات يوم، براً بوعدها لصديقتها، قال لها في شيء من الجرأة:

– إن أمر إسعادي أمانة في عنقك..

وابتسمت ألاميلو.. ابتسمت في سذاجة..

وفي اليوم التالي عندما خلت ألاميلو إلى نفسها جلست تجتر عبارة الأمس التي بدرت من الرجل، واحتدم في نفسها صراع داخلي يشبه الحرب، ولما التهب رأسها وأحست بالتعب أوقفت هذا الصراع ولم تعد تفكر في الأمر أكثر مما فعلت.

وعادت ألاميلو إلى بيتها ذات أصيل محملة بالهدايا

وقال ألاميلو لزوجها:

– إن أيانجار قد أصر على أن أتقبل منه هذه الهدايا.

حلي وملابس وهدايا!.. إن زوجها قد أدركته الحيرة من هذه الأشياء، ولكنه الزوجة ذكرت له السر:

– لقد قال لي أن اليوم هو ذكرى ميلاد زوجته.

وتعجب رامانوجام وهو يفكر هل ذلك الرجل كريم إلى هذا الحد؟..

وما لبثت الإشاعات عن زوجة رامانوجام تنتشر في كل مكان، والرجل غير مستريح.. وبجانب ذلك كان يشعر ببذور الشك تمد جذورها في باطن عقله، وكانت إجابات زوجته وإيضاحاتها له غير مقنعة.. وكثيراً ما عول على أن يسألها تفسيراً صحيحاً كاملاً، ولكنه كلما نظر إليها ورأى وجهها البريء، ولمح في عينيها بساطة الطفولة عدل عن المضي في وساوسه..

***

ولكن الشك صار يتزايد في نفسه كلما رآها تأتي بهذا الشيء أو ذاك إلى البيت.. ولم يعد يحتمل هذا العذاب الفكري وهذا الكبت المضني، ووقع ما لم يكن بد من وقوعه، إذ انفجر في وجهها ذات مساء مهدداً..

وغضبت ألاميلو وصاحت قائلة:

– هكذا الشأن مع الرجال دائماً.. هل وجدتني لا أحبك بما فيه مقنع؟.. هل لاحظت علي تحولاً من جهة حبي لك واهتمامي بك؟

حقاً، ليس هناك تغيير أو تحول.. فهي هي كما كانت دائماً.. اهتمام، وحب، وعناية.. لقد اطمأن إلى هذه القرينة واستراح لهذا الخاطر، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى قلقه وثورته وأصر على أن يتلقى إيضاحاً وتفسيراً..

وصمتت ألاميلو لحظة، ثم تكلمت:

– يحق لك أن تعرف كل شيء، ولكن تذكر شيئاً جوهرياً، هو أن ضميري لم يسمح لأي شيء بأن يؤثر على حبي لك.. إنني دائماً لك بكليتي.. قلبي وروحي، ولكن الحب شيء والضيق الذي يتعرض له الشخص في مثل حياتنا كل يوم شيء آخر.. إن هذه الأشياء اللازمة للحياة وغيرها مما يستعين به الإنسان على جعل الحياة محتملة لا يغني الحب عنها فتيلاً.. وقد رأيت كما تعلم أننا لا نكاد نحصل على ما يكفي حتى لبعض هذه الضروريات، فضلاً عن الكماليات.. وما كان أمامنا إلا أن نذوي ونفنى من جراء ما نعانيه من فاقة وما نتشبث به من أنفة كاذبة. وقد تجنبت منذ البداية هذا المصير بقبولي الهدايا التي قدمها إلي آيانجار، وترتب على ذلك أننا أصبحنا أفضل بكثير مما كنا عليه.. ونحن مازلنا يحب كلانا الآخر.. نحن سعيدان يتوافر لدينا بعض الراحة وبعض اللوازم..

– ولكن كيف يحدث أن يكون ذلك الرجل كريماً معك وحدك؟ لماذا لم ينثر هداياه ذات اليمين وذات الشمال لكل شخص؟!

– كدت أفهم ما تعني!.. أظنك تتشكك في براءة العلاقة القائمة بيني وبين آيانجار؟ حسناً، وماذا يكون إذا قلت لك الحقيقة؟ إنني فعلاً على صلة به!

وصرخ الرجل بكل قواه كالملدوغ:

– ماذا؟!

والتوت رقبته، وثقل رأسه، وترنح في وقفته، وأكملت ألاميلو اعترافها:

– أنا لا أظن أنني كنت مخطئة.. إني لم أسمح قط بأن يحول أي شيء دون قيامي بواجباتي كزوجة..

وهاج الرجل كهياج المجانين وصاح:

– أنت أيتها الـ...

– استمع إلي.. لا فائدة من أن تحاول أن تكون أحمق أو غبياً.. إن الحكمة تقتضي أن نكيف حياتنا ونكيف أنفسنا، وننتفع بخير ما في الحياة.. لقد فكرت أنا أيضاً طويلاً في هذا الأمر وفي النهاية اقتنعت بأنه

ليس فيما فعلت ضرر ما.. إننا على الأقل قد تولد عندنا بعض الأمل في المستقبل..

– إنني أستطيع أن أقتلك الآن أيتها السافلة وأشرب من دمك.

– لا فائدة من هذه الثورة، قلت لك!.. لقد اقتنعت واخترت.. هذا هو قراري وهذا هو اختياري كما بسطته.. والآن جاء دورك أنت لتختار.. إن علينا أن نتفاهم ونتفق.. فكر في المسألة كلها بهدوء وروية قبل أن تستقر على رأي، ولا تكن متهوراً.

قالت هذا بجنان ثابت، ونبرة متحدية، ثم تركته وانصرفت إلى شأنها!

***

بقي رامانوجام نهباً لتيارات مختلفة تتقاذفه وتتعاوره.. وامتد به التفكير يوماً بعد يوم فيما واجهته به ألاميلو.. إنها مصرة على ما رآه، ثابتة على قراراها، لقد شعر بأن النكبة أفدح من أن يحتملها.

ماذا يفعل؟

لقد فكر في أن ينتقم.. فكر في أن يعاقبها عقاباً يضارع هول الحادث.. هول اعترافها.. هل يقتلها إذن؟.. إن القتل لا يكفي.. إن قتلها لن ينسيه الحادث، وبينما هو يتعذب تكون هي قد استراحت من الحياة والأحياء.. فقد أراد أن تذوق جزاء فعلتها، وتشعر بحقيقة جرمها،

وتتلقى الجزاء الذي تستحقه.. بحيث يلحقها العار وتتبعها اللعنة والفضيحة.. والهوان، والحرمان.. أينما كانت، وتعرف حياة أفضل منها الموت!..

وفكر، وقرر..

ولم يلبث أن نفذ وعيده.. وشاهد جميع الناس في ذلك اليوم رجال البوليس، ورجال الإنقاذ، والمحققين، والجيران وغير الجيران يتجمعون ويتطلعون، أو يدخلون إلى منزل الرجل ويخرجون منه..

أجل، لقد قتل.. نفسه!

وكان هذا هو قراره الأخير

– كأنما هو مغناطيس قد جذبنا أحدنا نحو الآخر، أو قل.. مظلة!

مصيدة الرجال

بقلم: ماندي

كان هناك مقعدان خاليان في المنتدى الإيراني.. المنتدى الذي يلتقي فيه عند الأصيل كبار الرجال من ذوي الشهرة والجاه العريض.. وقد دلف مستر «دوسو جيجي بوي» إلى المكان متجهاً إلى أدنى المقعدين إليه.. وكانت حركاته تشبه حركات سلحفاة بشمت يأكلها فتثاقلت خطواتها وأن جهدت أن تلحق بزاد جديد! وتنفس بارتياح إذ قدر له أن يصل إلى هذا المقعد قبل غريمه اللدود، مستر «فيروزي بتليفالا».

وأخرج من جيبه منديلاً فاخراً ملوناً وعصر به أنفه، وألقت الشمس على صفحة وجهه بعض شعاعها الهادىء الذاهب فبدا شحوبهما قريباً من قريب!.. وهبت نسمات رقيقات يصافحنه من كل جانب، وهن آتيات من طرف الخليج.

واستكمل مستر جيجي بوي أسباب راحته.. فك أزرار معطفه بطول الجزء الذي يغطي كرشه، وأرخى حزامه المشدود حول وسطه، ومد ساقيه وأسلم نفسه للإغفاء والاسترخاء.

كان من عادته أن يتابع بنظراته الحالمة أفواج المارة في عرض الطريق وهم يهرولون إلى أماكن الركوب بعد انقضاء سحابة نهارهم في العمل المتصل الشاق.. إن إحساسه بأنه يملك مثل هذه الجلسة المريحة، ويملك مع ذلك البيضة التي تدر عليه رزقاً ثابتاً، بينما يضطر كل هؤلاء الكادحين أن يصلوا ليلهم بنهارهم في جهاد لا ينتهي.

– هذا الإحساس كان يملأ نفسه رضاً وارتياحاً.. ولم تكن نظراته تحرم أحيانًا من أن تصادف «سارياً» زاهياً ينعشه ويثير فضوله، وأحياناً كان يزعجه ويبدد أحلامه نباح جرو أو خصام كلبين، أو صرير فرملة عندما تقف سيارة فارهة فجأة في جانب من الطريق، كأنما تنبه الناس إلى قدوم صاحبها.. في هذه الحالة كان يستعيض من واقعه المزعج بالهروب إلى الماضي المشرق.. الماضي الذي خلف فيه الشباب.. والربيع.. والحب!.. كان يستعيد ذكريات الماضي أمام مخيلته كبقرة طاعمة تجتر في وحدتها وليلتها ما طعمته.

ذكر السنين العديدة التي قضاها في متجره بالقرب من ترسانة السفن، والسنين التي أخذ فيها يرتقي السلم شيئاً فشيئاً إلى الإثراء والرخاء، والمتجر المجاور لترسانة السفن الذي أنفق على صنعه مما حصله بذكائه واجتهاده.. وذكر ابنته البدينة «فرين»، ذات العينين الضيقتين واللسان الحاد، وشغفها بالتمثيل وبأفلام آفا جاردنر، وذكر ابنه المتحذلق المتأنق «مينو».. مينو المبذر المتلاف العاطل الذي يحتال دائماً على أن يصنع كل ما يشتهيه.. وذكر زوجته المتوفاة وحماته العجوز الشمطاء السليطة اللسان، والببغاء الذي يقتنيه، ومسكنه المريح في «كولابا».

وعندما تأهبت الخيوط المتلكئة من شمس الأصيل لكي تنفلت ذاهبة وراء الأفق، وآبت أسراب الطير إلى أماكنها في أعالي الأغصان لتعقد برلمانها المغرد الصداح، تلاشت تلك الأخيلة وانفرط عقد

الذكريات فضاعت في عتمة المساء، واتجهت أفكاره إلى الأكلة الشهية الدسمة التي لا شك أن «فرين» قد أعدتها لتستقبله بها عند عودته إلى البيت.. وبحركة غير إرادية أخرج ساعته.. ساعة الجيب العتيقة المثبتة في سلسلة ذهبية، ونظر فيها، ورأى بعد هذه النظرة أن يكتفي بما أمضاه من وقت، وأن يأخذ طريقه إلى البيت.

وبينما كان يهم بالوقوف ويستدير بوجهه، لمح خلف المقعد مظلة صغيرة رشيقة، ومال وتناولها بيده.. وتأملها فرأى بطاقة ملصقة بها عند طرفها، ودفعه الفضول إلى أن يفحص هذه البطاقة فمسح زجاج نظارته وقرب طرف المظلة إليه، فإذا هي تحمل بضع كلمات مكتوبة باليد:

«إذا فقدت – هذه المظلة – فإني أرجو إعادتها إلى مس ليلا – كي، منزل هيرالال، ولكشوار رود، بومباي»

وما لبث أن تمتم قائلاً:

– عال، عال!.. أية امرأة هذه التي تترك أشيائها عند مقعد في مكان عام؟

وبدافع مما أوحى به خياله، أسرع فوضع المظلة تحت إبطه، واستقل مركبة توصله إلى البيت.

***

في الليلة التالية تغيب مستر جيجي بوي عن مقعده المختار في المنتدى، فقد كان في ذاك الوقت ذاته تائهاً في مسالك «لكشوار» في بومباي يتلمس الطريق إلى منزل هيرالال، ويتلمس الأسباب للقاء مس ليلا – كي. لقد وجد نفسه تضطرب شيئاً ما وهو يمسك المظلة المفقودة بأصابعه كلها.. ووجد قلبه يخفق خفقاناً تكاد دقاته تصل إلى أذنيه، وأحس بتأثير ذلك في ارتجاف أطرافه وجفاف حلقه وتتابع أنفاسه!

إن الأربع والعشرين ساعة الأخيرة منذ عثر على المظلة حتى انتهى إلى منزل صاحبتها، كانت بالنسبة له من أعجب فترات حياته!.. فقد ظل يحلم بمس «كي» طوال هذه الساعات.. عندما تناول طعام الإفطار لم يستطع أن يركز انتباهه في صحيفة الصباح، وتنبهت ابنته «فرين» إلى حالته فسألته بقلق عما إذا كان يشكو من وعكة أو انحراف في المزاج. وذهبت شهيته فلم يتم وجبته، ولما جعل يحلق ذقنه جرح وجهه مرتين! وفي الأوتوبيس الذاهب إلى ولكشوار رود لم يستطع أن يخفي انفعالاته، حتى أن جاره، وهو من كبار طائفة البارسيين التي ينتمي إليها، ظنه مخمورًا.. وعلى طول الرحلة كان تقلص وجهه وتجهمه يبددان الأحلام السعيدة التي كانت تراود خياله!

وبعد جهد كبير وصل إلى ما كان يبحث عنه.. وقرأ في لوحة الأسماء المثبتة عند مدخل البيت أن شقة مس ليلا –كي تقع في الطابق الثالث.. ولم يكن هناك مصعد كهربائي، وكانت درجات السلم وعرة أمام المرتقى الذي يكون في مثل سنه.. وفي أثناء الصعود نجا مستر جيجي

بوي بأعجوبة من حادث جلل؛ فقد وطئت قدمه قشرة موز وانزلقت دون أن تقع الكارثة، ولم يسلم بعدها من قطة مصعرة الخد جعلت تحاوره وتنفلت ذهاباً وجيئة بين قدميه متمسحة فيهما، حتى الطابق الثالث!..

والتقط أنفاسه وتلكأ في خطاه قبل أن يستأنف الصعود.. وبرزت لخياله من بين هذه المتاعب صورة جذابة فاتنة.. عادت إليه أحلام الليلة السابقة تزف إليه مس ليلا – كي في صورة حورية من السماء جاءت لتنتشله من صحرائه ووحدته وخريف حياته.. كان من قبل اكتحال عينه بهذا الطيف بلا أنيس ولا معين، ولكنه الآن يلمح من خلال الضباب الذي يكتنفه، طيفها الساحر كما يتخيله.. إنه يتصورها حسناء شابة ذات شعر ذهبي وعينين رزقاوين واسعتين، وشكل جذات كالرسم الذي يضعه الحلاق في صالونه لحسناء يابانية، تتوثب له مشاعره كلما ذهب إلى هناك ليقص شعره!

من تكون مس ليلا – كي؟.. هل تكون ابنة مليونير؟ ولو أن السلالم التي يرتقيها يكفي مظهرها لاستبعاد هذا الفرض – هل تكون إحدى كواكب السينما؟ هل تكون أميرة من أميرات التاريخ، أو أميرات الأحلام والأساطير؟ هل....

وأخيراًوجد نفسه أمام باب الشقة مستحيياً مضطرباً.. ومسح أنفه ونظف نظارته بعناية، ثم استجمع شجاعته، و.. وضغط الزر.

وفتح الباب في أقل من دقيقة، وظهرت أمامه امرأة يبدو في عينيها معنى التساؤل.. كانت ترتدي جونلة حمراء فضفاضة حول الذراعين بارزة عند الصدر، وكانت عيناها تشبه زهرة متفتحة يلتمع فيها الندى، ولم تكن بيضاء تماماً مع أن شعرها كان هو الشعر اللامع الذي تخيله.. كانت على كل حال تشبه الصورة التي صورها خياله ومثلتها أحلامه وزادت عليها حلاوة وخفة ورشاقة وجاذبية! ولم يستطع أن يحكم من مظهرها أهي نصف أوروبية، أم هي مثله باريسية، أم أجنبية قصرت شعرها على طريقة بني جنسها.. ولكن شيئاً واحداً قد استطاع أن يتحقق منه؛ لقد تحقق أنه قد أخذ بجمالها ووقف مشدوهاً أمام فتنتها وسحرها!

وحاول جاهداً أن يخفي اضطرابه وهو ينطق باسمها ويحدثها قائلاً: «هل أنت.. أعني هل أخاطب مس ليلا – كي؟».

قالت: أجل..

– لقد سمحت لنفسي بأن أحضر إليك مظلتك هذه.. وجدتها على مقعدي في الليلة الماضية، ودلتني البطاقة الملصقة بها على عنوانك..

وأجابته بصوت عذب رقيق، فيه حلاوة وإغراء:

– ما أجمل كرمك! هل لك في الدخول لتجلس عندي قليلاً، فأكافئك بفنجان من الشاي.. أو ربما تفضل الـ«شيري»؟.. إن لدي نوعاً جيداً حلو المذاق ولكنه ممتع.. أؤكد لك..

ولم تمض دقيقة واحدة حتى كان صاحبنا ينبعج فوق مقعد كبير مريح، وحملت مس ليلا عنه المظلة وغطاء الرأس.. وعاد إليه هدوءه وثقته بنفسه وهو يخاطبها قائلاً:

– اسمي دوسو جيجي بوي..

وقالت على الفور:

– دوسو؟.. إنه أحب الأسماء إلي!..

وناولته كأس الخمر.

ودار بعينيه في أنحاء الحجرة.. لقد رآها أحسن ما تكون الحجرات وأعجبه الأثاث الأنيق والسجادة الكشميرية والستار الملون الذي يغطي النافذة، والببغاء اللطيف المطل على سيدته من قفصه الصغير..

ورفعت المضيفة كأسها إلى شفتيها ورشفت رشفة، وقالت تحييه:

– كيف وجدت هذا الصنف؟

– لطيف جداً يا مس..

– بل ادعني ليلا – كل أصدقائي يرفعون معي التكلف..

وقال وفي نبرته بقية من حياء:

– يبدو أن لك أصدقاء عديدين يا ليلا..

– أنت تعلم يا دوسون أن «بومباي» تفتح صدرها للجميع.

قال يجاريها:

– لقد أمضيت في هذه المدينة كل حياتي، وحب بومباي يجري في دمي ويحيا في عظامي..

أطلق الشراب له العنان، فلم يكد يمضي بعض الوقت حتى كان قد روي لها قصة حياته منذ بدايتها.. قص عليها كيف كان حال متجره بالقرب من ترسانة السفن، يحصل على رزقه من هذا الطريق، وتحدث عن زوجته المتوفاة، ومتاعبه وشئونه، ومحاصيله الزراعية والروماتيزم الذي يثقل على مفاصله أحياناً.. قص عليها كل هذا بطلاقة ولباقة حتى بدا له أنها قد سرت من جلسته.. واطمأن كل منهما إلى صاحبه وراح يحدثه بغير تكلف، وعندما وصل صاحبنا إلى الكأس الثالثة أوحى إليهما الشيطان بأن يتحدثا عن «مقالب» الببغاوات، ونوادرها!

وأدرك جيجي بوي أن مضيفته تتمتع بأوفر قسط من الذكاء والألمعية وسرعة الخاطر كما تتمتع بالجمال والفتنة، وشعر بارتياح كبير وهو يجلس في حضرتها، وجعل يتنظر بتمعن إلى عينيها العميقتين، وهاتين الزهرتين المتفتحتين، اللتين يلمع فيهما الندى!

وأحس أن الصهباء قد لعبت برأسه وفعلت مفعولها.. وخشى أن يفقد السيطرة على نفسه، ففكر في أن يغادر المكان قبل أن يرتكب حماقة من حماقات الناس.. وأخرج من جيبه ساعته.. ولاحظت هي أنه يتأهب للانصراف، فقالت:

– أحقاً يا دوسو تنوي أن تذهب بمثل هذه السرعة؟

– إننا الآن في منتصف الساعة الثامنة يا ليلا.. ينبغي ألا أتأخر عن موعد طعامي.. إن «فرين» ستكون قلقة وغاضبة.. إنها في مثل هذه الحالات لا تهادن ولا تتروى.. بل تبدو كالنمرة التي ترينها في حديقة «بيكولا» للحيوان!

وقف، وهو يضحك سروراً بهذا الحديث، وهذه الفكاهة.. وخاطبته بكل رقتها وعذوبة صوتها:

– عزيزي دوسو.. هل ستعود قريباً مرة أخرى؟

– سأجتهد يا ليلا.. إنني أشكرك بكل جوارحي على هذا الوقت الممتع وهذه الفرصة الجميلة..

وقالت ترد تحيته:

– كأنما هو مغناطيس قد جذبنا أحدنا نحو الآخر.. أو قل.. مظلة..

وقادته إلى السلم، وتصافحا بالأيدي مصافحة حارة.. وكان هو يشعر كأنما يسير على الهواء.. إنه منذ زمن طويل لم يشعر بمثل هذه السعادة.

وبعد ثلاثة أيام، خلا مقعده في المنتدى مرة أخرى.. لقد كان في ذلك الوقت يرقى درجات السلم للمرة الثانية.. السلم الذي يقود إلى مسكن مس ليلا – كي!

كان يحمل في إحدى يديه باقة من الورد الجميل، وفي يده الأخرى علبة فاخرة مليئة بالشيكولاتة.

ولم يكن في ذاك اليوم قد أمضى نهاره في سلام.. فقد كانت ابنته فرين مهتاجة غاضبة، وكان ابنه مينو قد أصر على أنه يكلفه دفع ثمن هدية بمائة روبية.. إن هذه المضايقات قد حببت إليه أن يكون في هذا المهرب.. اللذيذ!

لقد ارتدى المعطف الذي كان عند الكواء وعاد لتوه.. وحرص على أن يقص شعره، ويسوي شاربه، وينظف أظافره!

***

ومرة أخرى مسح أنفه، ونظف نظارته، وضغط الزر.. وفتح الباب، وظهرت مس ليلا ورحبت به ترحيباً حاراً، وهي تتشح بثوبها الجميل..

– دوسو؟.. إني سعيدة بأن أراك ثانية..

وفي استحياء قدم لها باقة الورد، وصندوق الشيكولاتة.

ونظرت إلى الورود وقالت:

– ما أجملها!.. إنك ملاك يا دوسو.

والتفتت إلى الببغاء وقالت:

– أليس كذلك يا بولي؟

وصاحت «بولي» بالجملة التي تحفظها:

– العفو.. العفو..

وعلقت السيدة قائلة:

– أيتها الغبية.. أليس عندك إلا ترديد الصدى!.. والآن استرح يا دوسو وخذ حريتك.. إنني سآتيك ببعض الشراب.. إنه «الفودكا» في هذه المرة، لقد قدمها إلى زائر روسي كهدية عزيزة عليه يؤثرني بها.

وقال جيجي بوي:

– أنا لم أذق الفودكا قط.

وفكر قليلاً.. أتراها تكون في تأثيرها كشراب الـ«شيري»؟

وعادت هي تقول:

– إنه مشروب عظيم يا دوسو.. أحسن من الشمبانيا؛ إنها تجعلك تفكر في ضوء القمر.. وفي مجالي الصيف، وفي القبلات الحالمة تحت لألاء النجوم!

وتأمل الزجاجة ثم قال:

– يبدو أنها كذلك..

وقدمت له الكأس.. وتلاقت كأسه مع كأسها وشرب بشغف وتلذذ... وجلست بجانبه فوق مسند المقعد الوثير، وأمسكت بيده وضمت عليها يدها الدافئة...

ولكنها ما لبثت أن صاحب به:

– دوسو.. إن يدك باردة.. باردة جداً!

– إنني رجل كبير السن يا ليلا!

ولم يدر لماذا نطق بهذا الكلام.. لقد بدأت عبارته مستهجنة قذف بها في غير موضعها.. وفي اضطرابه مد يده وتناول كأساً آخر.. وقالت هي:

– ولكن هذا غير صحيح يا عزيزي دوسو.. إن لي أصدقاء عديدين أكبر منك سناً، وهم لا يعتقدون على الإطلاق أنهم كبار السن.

– إن الإنسان يكون كبره بمقدار ما يشعر به..

لقد وجد الفودكا مرة المذاق قاسية لا تحتمل، وقد أثرت فيه تأثيراً سيئاً جعلته كمن أصيب بداء السوداء!

وعادت تقول:

- وهل أنت تحس بالكبر؟!

- أحياناً، يا ليلا..

- إنه بسبب بنتك فرين والجو المقبض الذي تعيش فيه.. إنك في حاجة إلى أن تنسى نفسك أحياناً.. إنك تحتاج إلى قبلة لذيذة..

وقبلت جبهته برفق.. كأنها فراشة تهوم بجناحيها فوق ورقة شجر.

وابتسم مغتبطاً..

- تصور يا دوسو إنك تبدو في عيني الليلة أصغر بسنين كثيرة منك عندما جئت في الليلة السابقة ومعك مظلتي!!

ولم يفق هو من تأثير الفودكا السيئ، فلم يستطع إلا أن يقول باقتضاب:

- لقد قصصت شعري لا ليلا..

كان من تأثير الشراب يفكر في كل شيء إلا التفكير في «ضوء القمر.. وفي مجالي الصيف.. وفي القبلات الحالمة تحت لألاء النجوم!».

وسحب يده من يدها، وقال:

– هل أستطيع أن أذهب إلى غرفة الحمام؟

– طبعاً، إنها هناك، سر إليها عن طريق غرفة النوم.

واتجه إليها، ولما عاد بعد خمس دقائق، أحس بأنه أحسن قليلاً من ذي قبل، ورأى مرأة صغيرة على مقربة منه فنظر فيها، هاله أن يرى وجهه قد شحب، وأن السنين كلها قد جاءت بكلكلها وحطت عليه..

وأخرج منديله ومسح العرق عن جبينه.. لقد اهتز وهو يرى وجهه في المرآة.. وتمتم لنفسه: «إنني مسن.. إنني كبير.. إنني كهل..».

ورفع حاجبه ونظر إلى مرآة التواليت التي انعكست عليها صورة ليلا وهي جالسة في ثوبها الرشيق وشبابها المزدهر.. ولمح إطاراً مستنداً إلى المرآة، يحمل صورة خيل إليه أنها ليست غريبة عليه، وحملق فيها، فإذا هو يقرأ في طرفها:

«إلى حبيبتي ليلا.. مع عواطفي وحبي».

– مينو دوسو –

مينو!.. إن سحابة ثقيلة من الحزن أخذت تحط فوق قلبه.. إنه ليس حاقداً على مينو ولا غاضباً من نفسه لأنه «عجوز» واهن القوى!

وعاد أدراجه في شجاعة إلى الغرفة المجاورة.. حيث كانت ليلا تجلس.

– هل أنت بخير يا دوسو؟

– لا أخفي عليك إنني لم أعتد الفودكا.

قالها بنفس محطمة، وقلب حزين.

وقالت ليلا معقبة:

– مسكين دوسو!

– أجل.. يا ليلا.. مسكين دوسو.

وفي هذه اللحظة رن الجرس.. وهرولت ليلا لتفتح الباب، وسمع جيجي بوي من خلال الحوار صوتاً لا يبدو غريباً عليه.

وأغمض عينيه، ولكن الصوت ظل يتسرب إلى أذنه:

– هل سيدتي: مس ليلا – كي؟

– أجل..

– لقد سمحت لنفسي بأن أحضر إليك مظلتك هذه.. وجدتها على مقعدي في الليلة الماضية.. إن اسمي بتليفالا – فيروزي بتليفالا... لقد دلتني البطاقة الملصقة على عنوانك فجئت.....!!!..

إن الخير قد يحني رأسه للعاصفة، ولكنه يخرج من صراعه ع الشر منتصراً في النهاية، ما في ذلك شك!..

كيد النساء

بقلم : راماني موتانا

غادتان في ربيع العمر، من زهرات المجتمع، أخذتا مجلسيهما في الغرفة الأنيقة وجها لوجه.. ولاحت ابتسامة هادئة على شفتي "راجيني"، إحدى الفتاتين، بينما بقيت عيناها جامدتين.. متحديتين.

وما لبث أن قالت لجليستها:

- أحسب يا عزيزتي "بينا" قد التقينا من قبل.

وابتسمت "بينا"، وهي تغالب إحساسها بالقلق والضيق.. أن التقاءها براجيني بعد السنوات العديدة التي مرت بها منذ عرفت كلتاهما الأخرى لم يكن في حسبانها ولا هي توقعته قط!..

أن تعارفهما يعود إلى الماضي البعيد،، إلى عهد طفولتهما .. كانت الأسرتان تعيشان متجاورتين. وكان والد راجيني رجلاً موسراً يتبوأ منصباً في إحدى المصالح الحكومية، وقد اعتاد ألا يضن على راجيني وحيدته بمال أو بإعزاز وغيثار.. في حين كان والد "بينا" بالنسبة إليه لا يسلك إلا في عداد الفقراء.. فقد كان كاتباً بسيطاً في المصلحة ذلتها، ومع ذلك كانت الأسرتان متوادتين كتعاطفتين.. إن "بينا" لتذكر جيداً تلك الأيام، حين كانت معتادة أن تصحب أخوتها وأخواتها وتتجه معهم إلى منزل الجيران، ليقضوا الوقت كله في اللعب مع "راجيني" في فناء الدار، أو في غرفتهما الجميلة الملطفة الجو، بما هيئ لها من وسائل التهوية.

وكانت تحس أن دخولها تلك الغرفة كدخولها أرض العجائب، فقد كانت للغرفة رفوف تمتد بعرض جدرانها الأربعة، ويصطف عليها عدد لا

يحصى من اللعب المختلفة الأنواع والأحجام.. كان والد راجيني كلما ذهب في رحلة من رحلاته العديدة لم يفته أن يحضر معه بعض هذه اللعب.. هذه الدمية من شينا باتنا، وهذه العلب الخشبية من ميسور، وهذه الأنابيب والأدوات الملونة من كشمير ومن.. ومن..!

ولم تكن بينا، تهفو إلى شيء أكثر من أن تتاح لها دائماً زيارة هذا المعرض الصغير.. وكان جيرانها يدعونها كلما جاء أحد الأعياد لتمضية وقتها مع راجيني، فكانت تقبل على أنواع الحلوى تزدرد منها ما شاءت، حتى إذا عادت إلى بيتها جعلت تستعيد في مخيلتها الأشياء التي طمعت، واللعب التي رأت..

وفي مناسبة من هذه المناسبات، أرتها صاحبتها، عروسة كبيرة من الباغة كان أبوها قد أحضرها لها حديثاً من اليابان.. كانت عروسة عجيبة ترتدي ثوباً بديعاً ولها خصلات من الشعر الحقيقي تغطي رأسها وتنسدل على كتفيها، لقد كان من الميسور غسلة وتضفيرة. وكان لها أربعة اثواب أخرى لتبديل زيها، وضعت داخل دولاب صغير خاص بها. لقد نظرت إليها "بينا" مشدوهة، ولم تكن تتصور وهي في ربيعها الثامن شيئاً أجمل منها يمكن أن يتمناه الإنسان لنفسه! يا لها من فتاة سعيدة!

لماذا لم يحضر والد "بينا" مثل هذه اللعب لها؟!.. لقد كانت تعامل معاملة إنسان كبير، بحكم أنها أكبر إخوتها.. فكانت دائماً تعاون والدتها في القيام على حاجة أخوتها الأطفال من اغتسال وتغيير ملبس، وتعني بشئونهم في غيبة أبويها، وترعاهم وهم يلعبون خارج الدار.. وإذا

اتفق أن جاء والدها بهدية لهم فلن تكون إلا من نوع علب البسكويت أو المربى.. حتى في عيد ميلادها التاسع لم تتلق دمي كدمية راجيني.. كيف يستطيع عقلها الصغير أن يستوعب أحكام الميزانية أو يدرك أن الطعام والملبس لهما أولوية على مثل تلك الكماليات التي تفكر فيها!

وهكذا لم يكن أمام "بينا" وأخوتها إلا عروسة "راجيني" تستهوي أفئدتهم وتجذبهم إليها ليقضوا معها الساعات لاعبين هائئين مبتهجين حتى إذا انقضى النهار النهار وضعت "راجيني" لعبتها في صندوقها وحملتها إلى مكانها فوق الرف، وعادت "بينا" إلى البيت ناعمة مسرروة.

وفي ذات يوم واد، بعد الظهر، كان على راجيني أن تقوم بجولة خارج البيت.. فدعتها والدتها وذهبت وهي غير راغبة.. وبقيت بعيدة عن الدار وقتاً طويلاً. وامسكت "بينا" بالدمية بين يديها وجلست تنتظر فقي عنبر. ومرت فترة طويلة من الوقت وراجيني لما تعد بعد.. وأخيراً قامت وخرجت من الغرفة تبجث عنها.

لقد تبينت أن صاحبتها قد ذهبت بعيداً بالسيارة مع والديها وضيوفهما، ونسيت "بينا" تماماًّ! وعندما وصلت هذه إلى الباب الخارجي تنبهت إلى أنها مازالت تمسك بالدمية. والتفتت خلفها ناحية البيت، ولم يكن أحد هناك فيما بدا لها.. كان الخدم جميعهم منصرفين إلى شواغلهم.. عنئذ خطر ببالها خاطر، فإذا هي تعدو نحو بيتها وكان قلبها يخفق عالياً في اضطراب.. واتجهت إلى حجرتها وأخفت "العروسة" في فراشها.

وهدأت "بينا" بعد لأي يء ولكن جسمها كان يسري في أوصاله تيار من الخوف والقلق.. كان سر الدمية المخبأة يكاد يعصف بقلب الصغيرة. وأخيراً أصبحت اللقية من نصيبها.. كان لدى راجيني لعب كثيرة، ولذلك أملت ألا تفتقد عروستها اليابانية!

ولم تكن تستطيع أن تستجمع شجاعتها وتذهب إلى منزل راجيني في اليوم التالي، وعندما جاءت بنفسها إليها لتسأل عنها صعد الدم إلى وجهها وخيل إليها أن عيني صديقتها الصامتتين تتهمانها! لقد اكتشف فعلاً أمر ضياع اللعبة، ولكن الاتهام قد انصب على أحد الخدم في دار راجيني أما اسم بينا فما خطر ببال أحد في ذلك الظرف قط.

ولكن والدتها هي التي اكتشفت أمر السرقة، عندما وجدت ابنتها على غير عادتها تجلس في فراشها وهي تلعب بالعروسة الكبيرة.

وسألتها الأم متعجبة: "من اين لك هذه العروسة الجميلة...؟!". وأجابت بينا: "راجيني أعطتنى إياها".

غير أن والدتها ما لبثت أن عرفت الحقيقة واستدرجت الطفلة إلى الاعتراف بما فعلته.. فمكثت معها ساعة تلقنها فضائل الأمانة والأخلاق الحميدة.. ثم قالت لها:

– الأفضل لك أن تعيدي هذه اللعبة إلى صاحبتها.. سنذهب إلى بيتها معاً، وسأوضح لوالدتها كيف انك استعرت العروسة لبضعة أيام.

وانخرطت بينا في البكاء.. ودمعت عينا والدتها وقالت لها: "إنك بعد صغيرة لا تدركين الأمور على حقيقتها، إن بابا سيتألم لو علم أنك تسألين أشياء لا يستطيع أن يأتيك بها.. لا تنسي أن بابا يفخر بك وبخلقك..".

وخجلت بينا وسكتت..

وذهبت مع أمها إلى راجيني

وقالت الأم لوالدتها" "إنك تعرفين طبيعة الأطفال، لم تستطع طفلتي أن تقاوم رغبتها في اللعب بهذه الدمية، فأخذتها معها. وأني أطمع في أن تصفحي عنها وتغفري لها هذه الهفوة..".

أومأت الأم برأسها وكأنها تقول : فهمت!.

وبعد أيام ذهبت راجيني إلى بينا وقالت لها: لقد أوصتني أمي بألا ألعب معك منذ الآن.. فأنت.. لصة!.. لصة!. لقد نفذت الكلمة إلى فؤادها ووخزته كوخز السفود المحمي في النار!.. فعدت إلى الداخل وانكفأت في فراشها تبكي وتنتحب، بينما تجمع الأطفال أمام باب المنزل وراجيني في طليعتهم يتصايحون :"اللصة.. اللصة.. بينا لصة".

إن هذا الحادث قد نسي مع مرور الوقت، وانتقال والد راجيني إلى بلد آخر ولكنه ترك ندبة واضحة في ذهن بينا ومشاعرها..

امتد العمر ببينا زمناً طويلاً عاشت خلاله من حياتها القاسية.. ولكن إحساسها بالمرارة قد زال شيئاً فشيئاً مع مرور الأعوام، واصبحت لها نظرة فلسفية جديدة في الحياة.. لقد وجدت حولها ما يشغلها.. وبعد أن أتمت تعليمها في الكلية حصلت على وظيفة "مضيفة" في دار كبرى من دور النشر، وهناك تعرفت إلى صديقها المؤلف الشاب والصحفى الناجح "برامود".

ونشأت بينهما صداقة قوية.. كثيراً ما كانا يقضيان أمسياتهما معاً، وتطورت صلة الشاب بفتاته حتى صار يدعوها إلى لقاء والديه، وقضاء الأوقات الهانئة في صحبة أفراد السرة الذين الفوها وأنسوا بها.

وجاء اليوم الذي تحتفل فيه الأسرة بعيد ميلاد "برامود" ودعيت "بينا" إلى الحفل.. وكانت واثقة من أنها تستطيع أن تبرز بشخصيتها وتملأ مركزها بين المدعوات.

واقترب منها برامود وهمس في أذنها بكلمات الإطراء والإعجاب.. وخلت هي بين هذه الكلمات وهذه اللحظات الساحرة في تلك الأمسية وبين قلبها تسترته، وتستهويه.. ولكن راجيني قد طرأت فجأة على أحلامها، وبددت أخيلتها".

أين كانت هذه الطارئة طوال هاتيك السنين؟ كيف عرفت برامود؟! وقالت راجيني وكأنما تجيب عن تساؤلها الذي تجهز به: برامود قريبي.. أنا ابنة عمه.. الا تعرفين هذا؟

وبدا عليها الاستياء عندما أدركت أن برامود لم يذكر اسمها أمامها قط. كانت راجيني تتقد في السر أملاً وعاطفة، وتعمل على أن تعطف قلبه نحوها..وكانت تعلم أن الأسرتين تباركان هذا التقارب وتؤيدان هذا الاتجاه.. وقد جاءت إلى المدينة لتدبير هذا الأمر، وتتودد إليه حتى يهبها قلبه وحبه، فيتحقق لها ما تريد. وقد تحت تاثير سحرها.. وكانت تحار في تفسير موقفه منها ولا تدري سر إعراضه عنها.. حتى عرفت أخيراً كل شيء.. فهذه هي غريمتها تظهر في الأفق لتفسد كا ما رتبته، وتهدم كل ما بنته!

ونظرت إليها نظرة حنق وتغيظ حاولت أن تداريها، ولم ترد أن تكشف لها عن أوراقها، واستنكفت أن تضعف أمامها وتصارحها بأنها غريمتها. ومن هي بينا وما تكون في المجتمع الراقي؟.. ماذا تستطيع أن تقدمه لبرامود، لا ثقافة ولا عراقة، ولا حسب أو نسب.. إنها نجمة ذهبية كابيه طرأت على المجتمع المصري وحشرت أنفها فيه! متطفلة!.. لقد كان اقتحامها هذه الحرم وظهورها بمظهر الفتيات الراقيات من مثيلاتها أكثر على راجيني مما تحتلمه أو تطيقه.. فما إن لمجت النظرات التي تبادلها برامود وبينا ليس من حقها أن تظفر بحب برامود.. كيف تجرؤ على التطلع إلى ما هي ليست أهلاً له؟!.. هل نسيت الأيام التي كانت فيها أسرتها تعيش على الكفاف، ولولا كرم جيرانها من أسرة راجيني لعانت الكثير من شظف العيش وقسوة الحياة؟.. هل نسيت الدمية التي سرقتها؟!

سددت "راجيني" نظراتها إليها، وهي في جلستها تلك في الغرفة الأنيقة.. وأحست بينا بقسوة هذه النظرات فسرت في بدنها رعدة راعدة، وانكمشت كأنها فراشة تخرج لتوها من شرنقتها وتمتمت راجيني قائلة: "ما أبدع هذا الساري".

وانتعشت بينا قليلاً.. لقد كانت متخوفة منذ التقت بها وجلست معها وجها لوجه.. وهي تتمثل أمامها راجيني القديمة. أما وقدراتها تجاملها وتتلطف معها فقد زايلها الحذر وأقبلت على صاحبتها تحادثها في مودة، وتستعيد ذكريات الأمس البعيد، وحوادثه، ونوادر طفولتهما.

وفجأت مالت نحوها ورمقت أصبعها الدقيق ثم قالت: "ما أجمل الخاتم البديع الذي تلبسينه!".

وقالت راجيني مفاخرة: "إنه خاتم موروث".

وأدارت يدها لتخرجه من إصبعها.. وانعكس الضوء على فصه الماسي النفيس فلمع وتوهج ببريق يخطف الأبصار!..

ومدت يدها إليها وهي تقول: "جربي أن تضعيه في إصبعك يا عزيزتي..".

وفي هذه اللحظة جاء برامود، ووقف إلى جوارهما..

وقال "برامود" متهللاً مرحى مرحى كيف التقيتما معاً؟ وما تراكما تصنعان؟ أتستعيدان ذكرياتكما؟ بينا.. أني أود أن تأتي معي وتعاوني أمي

في إعداد الشاي. وأنت يا راجيني.. كوني لطيفة واذهبي إلى ضيوفنا وجامليهم..".

وراقبت راجيني "بينا" وهي تبتعد في صحبة برامود. ولبثت قليلاً وهي تعض شفتها السفلى في سخرية ثم غادرت الغرفة واختلطت بالمدعوين.

أذن الحفل بالانقضاض، واتجهت الجماعات ناحية باب الخروج.. ولحقت "راجيني" "ببينا" بينما كانت هذه تقف بجانب برامود وتحيي الأضياف وهم منصرفون.

– بينا.. هل تسمحين بإعادة الخاتم؟

ودهشت بينا وقالت: "الخاتم؟!.. ولكني أعدته إليك!".

– لا.. لم تعيديه..

واعترضت بينا قائلة:

– بل إني أتذكر جيداً أني أعدته إليك!

فالتفتت "راجيني" إلى "برامود" وقالت له وكأنها تستعديه عليها "لو كان المر كما تقول لكان الخام في إصبعي.. انظر، ليس هناك خاتم!.. ولذلك قلت لبينا أنها مخطئة".

وسرت رعدة باردة في جسم بينا.. اي فخ محكم تنصبه لها!.. هل تريد راجيني أن تدخل في روع من حولها أنها قد سرقت الخاتم.؟ لقد أعادته على التحقيق إلى صاحبته ولم نعد نعلم عنه شيئاً بعد ذلك.

ولمح الواقفون أطراف المشادة فاقتربوا يشهدون أطوارها.. وأحست بينا احساس المذنب وتملك الخوف قلبها فارتعشت أطرافها كقصبة تواجه الريح.. ووقف براموذ ونظر إليها في حيرة وتساؤل، ثم قال:

– تمهلا قليلا لست فاهماً شيئاً. أين ذهب الخاتم يا بينا إذا كنت قد أعدته إلى راجيني؟

وقال أحد الحاضرين: "لماذا لا تبحثون عنه فربما سقط في مكان ما".

وانطلقوا يبحثون عنه في كل مكان.. على موائد الشاي وتحت المقاعد، وفي زوايا الحجرات، ولكنهم لم يعثروا عليه!

ووقفت بينا جامدة لا تتحرك ولا تنطق.. لقد تحققت الآن أن راجيني قد دبرت لها هذا الكمين وأوقعتها فيه ظلماً وكيداً.. رباه! لماذا ذكرت الخاتم وابدت إعجابها به؟ لماذا حضرت الحفل؟! ليتها لم تفعل.. ليتها لم تأت!.. إن خاتماً ماسياً كهذا يعد في نظر الناس أكبر إغراء لفتاة كادحة.. لقد تظاهر الضيوف بالتهوين من شأن الحادث،

ولكنهم لم يستطيعوا أن يخفوا شعورهم بأن الأمر لا يعدو أن يكون بالنسبة لهم ملهاة وتسلية.

والأمر المحقق أن الحفلة قد أفسدت.. وفشلت!

وزحف الاضطراب من جديد إلى الفتاة المسكينة، واقتربت منها راجيني أكثر من ذي قبل، وهي تفرك يدها مهتاجة وتقول: "إنه خاتم نفيس، لا يمكن أن أدعه يفقد مني..".

وقالت بينا:

لقد قلت لك أني أعدته إليك، لماذا لا أراكم لا تصدقونني؟..

إذا كنتم تظنون أني أخفيته في مكان ما فلماذا لا تفتشونني؟

لقد أدركت حتى قبل أن تتكلم أنها قد استدرجت إلى الفخ، وأنه لا محيد لها عما أريد لها من مصير.. أما "راجيني" فقد تركزت نظرتها فوق كيس نقودها!

وانفرجت أصابع "بينا"، وتركت الكيس يسقط على الأرض، محدثاً عند ارتطامه صوتاً كصوت المعدن. وانحنت راجيني والتقطته، وفكت رباطه وأدخلت اصابعها ثم.. ثم أخرجت الخاتم!

وحدقت بينا فيه وهي كالذاهب في غيبوبة طويلة، وذهلت عن نفسها، وأظلم كل شيء من حولها!

وعندما استعادت وعيها، وجدت المكان خالياً، إلا من برامود الذي كان كان يجلس إلى جوارها.

وبكت بينا وقالت: برامود.ز إن سمعتي قد صارت في الوحل!.. هل تعتقد أنت أيضاً أنني سرقت الخاتم من راجيني؟"

قال:

– بل أنا لا أعتقد شيئاً من هذا، ولكن لماذا بدا منك ذاك التصرف حيال شيء تافه كهذا؟ لقد ظهرت كما لو كنت مذنبة.

عنئذ اعتدلت بينا وأخذت تنفض القصة الحقيقية من بدايتها إلى نهايتها.. حدثته عن واقعة الدمية التي سرقتها، وشعورها بالطيئة الذي ظل مختزناً في عقلها الباطن طوال تلك السنوات. وحدثته كيف راجيني كانت تذكر ذلك جيداً فأرادت أن تستغل ضعفها.. ولا يبعد أن تكون راجيني قد عمدت إلى دس الخاتم في كيس نقودها وهي غافلة عن فعلتها، بينما كانت هي منطلقة مع برامود لتعد الشاي. ولكن لماذا فعلت راجيني هذه الفعلة؟ ماذا جعلها تحقد عليه وتكيد لها؟

وقفز برامود واقفاً وقد انطلق وجهه ولمعت عيناه، وقال لها وكأنه يجيب تساؤلها:

– سأخبرك عن ذلك فيما بعد.. لقد وضح لي الآن كل شيء وضغط على يدها في شغف وحنان، واستأنف قائلاً:

– أنني مغتبط بما حدث.. فقد ساعدني على أن أنتهي إلى قراري، وأحقق عزمي، فأطلب يدك، وأنعم بالزواج بفتاة أحلامي وبتادلا نظرات الحب.. نظرات أكثر دلالة مما كانت، حتى بداية الحفلة.

أن الخير قد يحني رأسه للعاصفة، ولكنه يخرج من صراعه مع الشر منتصراً في النهاية، ما في ذلك من شك!

لقد كانت أمينة هناك، تداعب الأمواج كعادتها في النهر الصاخب الغاضب الهدار، الذي لا يعرف السكون..

عاشقة البحر

بقلم: باراج جوبتا

كان محصول الجوت وافراً في ذلك العام.. وكان نصيب السيد قاسم على من ذلك قدراً كبيراً من المال، انتعشت به نفسه، وانتفخ به جيبه، حتى حمله الثراء والراء على التفكير في تزويج ابنته "أمينة"، أليست الحال يومئذ على ما يرام، والظروف من حوله مواتية؟

كان "قاسم علي" يقيم مع زوجته وطفلتهما الوحيدة أمينة، في مزرعة صغيرة تطل على "بادما" في البنغال.. ذلك النهر الهدار الذي لا يهدأ ولا يسكن وإن أذاق المتحدي طعم السكون.. إلى الأبد.

عاش "قاسم علي" في "ناياتشار"، الضاحية الريفية التي كانت قبلاً إحدى الضفاف الرملية للنهر المتقلب ثم تحول عنها.. وعلى مر الزمن تمع فيها خليط من المزارعين المسلمين وصيادي السمك الهندوس.. وجادت زراعة الجوت في هذه البقعة من البنغال الشرقية، وصار لهذا الليف الذهبي شأن كشأن القطن، ونعم الناس القائمون هناك بهذا الرخاء الذي خصتهم به الطبيعة، ولم يعد الأخ يتقاتل مع أخية على لقمة العيش.

وذهب "قاسم إلى الصياد بنامالي، أكبر رجال القرية سناً وأكثرهم توقيراً، وقال له:

– يا شيخ بهايجان، أريد أم أزوج ابنتي أمينة في هذا الموسم، فماذا تقول؟

وقال الشيخ:

– أجل يا قاسم، حسناً تفعل.. وتستطيع أن تنهض إلى سعيك منذ الآن.. أن أمينة قد قاربت سن السادسة عشر، ولكن، هل وجدت الفتى؟.. إن الطفلة العزيزة ينبغي أن يختار لها الزوج الصالح..

– هل تعرف سوناميا الذي يقيم في "حاجيبور"؟ إن له ابناً لا بأس به، وقد تلقن في المدرسة جانباً من العلم.. الا تراه جديراً بهذا الاختيار؟ إن والده قد رأى أمينة بدا لنا أنه أعجبته..

– عظيم .. عظيم .. إن سوناميا رجل موسر وطيب..وفضلاً عن ذلك فإن بلدته حاجيبور لا تبعد كثيراً عنا.. وسيتاح لنا أن نرى طفلتنا كثيراً..

تم الاتفاق على أمر الزواج من غير إجراءات كثيرة.. فقد كان سوناميا – وه مزارع ميسور الحال – يمر كثيراً بناحية ناياشتار في طريقه إلى الميناء القريب لتصريف محصوله من الجوت وأرز الشعير، وكان في أثناء ذلك يختلف إلى منزل قاسم بحكم قرابة بعيدة تجمع بينهما، ويرى ابنته ويعرفها حق المعرفة.

واهتزت القرية لهذا النبأ السعيد.. ولكن الشخص المقصود بهه الضجة كلها لم يكن يأبه له.. أجل كانت أمينة في واد آخر.. في عالمها الصغير تعيش مع هواياتها.. وكانت كلما التفت حولها زميلاتها وناقشنها في الأمر هزت كتفيها وقالت: "لا أدري ماذا يدور حولي.. ماذا يمكن أن

يعني ذلك بالنسبة إلي؟ .. سأرى بنفسي من سيجرؤ على أن يأخذني بعيداً عن هذا البيت".

وكان والداها يدللانها ويشغفان بها، فقد كانت هي الإبنة الوحيدة لهما.. فنشأت عنيدة معتدة برأيها، مندفعة كأمواج النهر التي تحبها وتقضي أوقاتها بين أحضانها..

وكانت أمينة أيضاً تقتني كلباً وقطة وتؤثرهما بعنايتها واهتمامها..

وقد ألفت كلبها وألفها، منذ انساق إلى كوخ والدها ليحتمي من عاصفة شديدة، واطلقت عليه اسم "كالو"، أما القطة فقد التقطتها من شاطيء النهر، ودعتها "مينو".!

واعتادت أمينة أن تندفع بين أمواج النهر وتسبح وتغطس وتقفز كأنها حورية من حوريات البحر، بينما يفق الكلب والقطة "مينو" يشغلنها عن البيت طوال اليوم، فلم يكن في ذهنها أو خيالها شيء آخر.. وبسبب هذه البراءة، وهذه البساطة وخفة الظل، كانت محبوبة من كل شخص، ومع أنها كانت تبدو أكبر من سنها، فإنها كانت لا تزال كالطفلة في حركاتها.. وفي سكناتها! وكانت ذات تقاطيع وملامح جذابة، وكان شعرها الذي لا يقر له قرار وسمرتها الأصيلة الخمرية يكسبانها جمالاً وسحراً..

وذهب سوناميا ذات يوم إلى منزل أبيها ومعه ابنه الصغير.. "نانو"، لينجز بعض الأمور.. واجتمع الشيخ بنامالي وبعض رجال القرية، وحين

تقرر كل شيء طلب الشيخ أمينة ليباركها، ولكن أين هي؟ لقد أفلتت وتوارت عن الأنظار.. أخذت القطة بين ذراعيها وجرت الكلب خلفها وانطلقت بعيداً لتخفي نفسها خلف كثيب من الرمل! .. ثم راحت تمسح بيدها ظهر قطتها بينما تقرب كلبها قائلة: "إياك يا كالو أن تسمح لهم بأن يأخذوني معهم بعيداً، وانبح واصرخ إذا رأيتهم يحاولون أن يمسكوا بي.. ،انت يا مينو، ألا تخمشينهم وتجرحين وجوههم؟..".

ويقترب الكلب ويهز ذيله وترسل القطة مواءها كأنهما يفهمها عنها ويؤمنان على كلامها!

وبحثوا عن أمينة طويلاً حتى عثروا عليها، وبعد إلحاح كثير استدرجوها إلى سوناميا، وأجلسوها بالقرب من ابنه نانو، ولكنها ما كادت ترى الرجل يدعو لها بالتوفيق حتى وثبت على قدميها وهرولت والدموع في عينيها صائحة: لن اذهب .. لن أذهب! وانفجر سوناميا والمدعوون ضاحكين، وأجفل فتاها نانو، وتمتم والدها قاسم معتذراً!

وقال سوناميا: "لا تعلق على ذلك اهتماماً.. سترى أنها ستتغير كثيراً عقب الزواج".

وأمن المدعوون وشيخهم بنامالي على كلامه.

وعندما حل يوم الزواج، بكر إلى القرية سوناميا ووالداه وبعض الأقارب، في قاربين كبيرين عن طريق قناة تتفرع من النهر وتصل بين ناباتشار وحاجيبور وبعض الضواحي.. وتجمع أهل القرية جميعاً في منزل

قاسم، حيث رتبوا كل ما يلزم لإطعام المدعوين، وكان الأولاد والبنات الصغار يلعبون ويلهون، بينما كان هناك فتى دون سن العشرين شديد الحياء – هو "العريس" – يجلس في مكانه بين الجميع في هدوء.

ومنذ أن بزغت شمس ذلك الصباح كانت أمينة تحت رقابة محكمة حتى لا تجنح إلى عادتها في الفرار.. وكانت قد بكت طوال الليل، قبدت لذلك مستكينة مستسلمة.. وتحلقت حولها الفتيات يحدثنها عن فتاها، كيف بدا خجولاً، وكيف.. وشيئاً فشيئاً أخذت تصغى إليهن وتشغف بما تسمع، كالطفلة حين تتعقب مغامرات دميتها في خيالها الساذج، ويضعن في جيدها ويديها الحي، ويجملن وجهها وشعرها بالمساحيق والأدهنة.. أما كالو ومينو فقد كانا مشغولين بنتصيبهما الدسم في الوليمة الكبيرة.

وانتهت المآدب وانفض السامر والاحتفال بعد الظهر، وعاد كل مدعو من حيث أتى، وكان الاتفاق أن يعود العريس مع عروسه إلى حاجيبور في اليوم التالي..

وعندما حل المساء وذهب العريس إلى حجرته رفضت عروسه أن تذهب إلى سريره، ولكنها رضحت في النهاية عندما طمأنتها الأم إلى أنها ستكون معها لتؤنسها، ولم تلبث من التعب والسهر أن غلب عليها النعاس، وتسللت الأم خارجة.. وأحس الفتى أنها فرصة جميلة تعرض له في حياته لأول مرة، واشتاق أن يتحدث إلى عروسه وهو ينظر بإعجاب إلى وجنتيها وفمها الدقيق وشعرهاالساحر وجبهتها التي تزينها الشامة

القرمزية، ولكنه مع ذلك لم يجرؤ حتى على أن يناديها، خشية أن تهب الفتاة وتحدث ثورة!

وحان وقت رحيل الزوجين.. وأعد القارب وحمل إليه صندوق أمينة وهداياها، ولكنها رفضت الذهاب، وأخذت تصيح وتصرح، وجاءت فتيات الحي فوقفن بجانبها، وجاء والدها ووالدتها، وأخذا يخضانها على الذهاب.. دون جدوى! وأخيراً عندما أكدا لها أن العريس سيأتي بها في اليوم التالي، وأن كالو ومينو سيلقيان العناية الكافية والطعام المناسب، رضخت لرغبتهما.. وبعد أن بكت طويلاً ورتبت بيديها فوق كلبها وقطتها، انساقت مع الجمع إلى الماء..

وحين تحرك القارب، سار قاسم وبنامالي وبعض الحاضرين فوق الجسر وقطعوا بعض المسافة، واقترب الكلب كالو مت الجمع وهو ينبح ويصرخ وعينه مثبتة على أمينة، وعندما استدار الجمع عائدين فقز كالو إلى الماء، واقتربت أمينة من حافة القارب وانتشلت الكلب وآوته معها..

وبعد أن هدأت أمينة وهي في صحبة كالو، قال لها "نانو":

– ألا تكلميني يا أمينة؟ إنك لم تتحدثي بكلمة واحدة!

فقالت مستعجبة:

– ولماذا أتحدث إليك؟

– أما تريدينني؟ .. ألا تحبينني؟

وأجابت أمين على الفور:

– لا.. إننى أحب بابا وماما، وكالو، ومينو..

وإذ لمحت وجه صاحبها الصغير تغلفه مسحة من الحزن وخيبة الأمل، حاولت أن تخفف وقع حديثها، فاستأنفت تقول:

– لا بأس، سأحبك أنت أيضاً، إذا كنت تأتي وتعيش معنا.. أما أنا فلن أذهب بعيداً عن منزلنا..

وسكت "نانو" إذ لا فائدة من النقاش في هذا.

ووصلا أخيراً إلى بيت والد العريس في مظاهر ضخمة مرحة، وكانت أمينة محط الأنظار كلها، تسلط عليها الأضواء من كل جانب، فأجفلت قليلاً، وكان حجاب العرس الذي لم تعتده من قبل، وهذه الثياب الجديدة، وهذا الشعر المضمخ بالعطر، وهؤلاء الجمع وفضولهم.. كان كل هذا يكاد يحملها على أن تنطلق هاربة، مهما تكن العاقبة!

وعندما آوت إلى مخدعها في جوف الليل، وكلبها كالو يرقد على الأرض بالقرب من سريرها.، جعلت تفكر في والديها، وفي قطتها، وفي "بادما" العجوز العزيز رفيق الصبا.. الذي لا يعرف السكون.. وإن عرف كيف يذيق المتحدي طعم السكون.. إلى الأبد!

وغلب عليها التأثر فانفجرت بالبكاء والانتحاب حتى لم تعد تقوى على المزيد .. واسلمها الجهد والسهد إلى النعاس، فاستسلمت له.. وفي خلال ذلك لم يجد نانة أو يهمس برغبة!

وتألم سوناميا وزوجته كثيراً إذ وجد أمينة لا تجدي معهما محاولاتهما لإدخال السرور على نفسها.. حتى إذا تقدم الصباح وانتصف النهار، وهدأت حركة البيت حاول نانو أن يتحين الفرصة ليتحدث إليها، ولكنه – لدهشه – لم يجدها هنا أو هناك!

كانت أمينة تجلس وحيدة في ظل شجرة نائية خارج الدار، لا يؤنسهيا في وحدتها إلا كلبها كالو.. وبقيت ساهمة تطيل النظر إلى الأفق الواسع والحقول الخضر.. ولعلها تخيلت بادما – النهر – لابد أن يكون متوارياً خلف هذا الصف القريب من الأشجار، من يدري!.. لعل والدتها تبكي هي الأخرى لهذا الفراق.. لعل قطتها مينو لم تصب لنفسها ما يكفيها من طعام!

ونهضت فوق قدميها، وانطلقت مع كلبها وهمست عند رأسه قائلة: "لنذهب بعيداً، لنعد معاً.. ألا تستطيع يا كالو أن تدلني على البيت العزيز توصلني إليه؟".

ولم يزد الكلب على أن يهز ذيله، ومشى بجانبها..

وعدت أمينة والكلب خلفها يعبران الحقول، وهي تأمل أن تصل إلى شواطيء بادما.. ورأى "نانو" الهاربين فجرى نحوهما، حتى إذا ما

اقترب منهما استدار الكلب ونبح في وجهه، كان يصده ويخاصمه. وأسمسك "نانو" بيد أمينة وجذبها معه إلى البيت مؤكداً لها أنه سيذهب بها إلى "ناياشتار" في صبيحة اليوم التالي.

وعندما علم والداه بما حدث، خامرتهما الكآبة وساورتهما خيبة الأمل.. ولكنهما رأيا أنه ليس من الصواب أن يضغطا على الفتاة لتبقى في بيتها رغم إرادتها.. ولذلك استقر رأيهما على أن يصحبها "نانو" إلى ناياشتار في الصباح المبكر.. وهما يأملان أن تعود فيما بعد إلى رشدها، عندما تكبر مع مرور الزمن.

وعندما تأكدت أمينة مما انبئت به، غمرتها فرحة طاغية، وقامت مع استهلال الفجر فاغتسلت وارتدت ثيابها في لمح البصر، وابتسمت لأول مرة في وجه الرجل وزوجته، وقالت لهما أنها ستعود إليهما ثانية، فطابا نفساً وأحسنا وداعها.

ما كاد القارب يصل إلى مرساه عند بلدتها ناياشتار حتى قفزت أمينة من مقعدها وعبرت الشاطئ مع كالو.. وجرت مسرعة نحو البيت وهي تصيح: "ماما.. ها قد جئت.. مينو. ها أنا ذي.."!

وكان "نانو" يسير معها وهي تسرع نحو البيت، فالتفتت إليه فجأة وقالت في سرور: "وأنت طيب.. أنا أحبك الآن".

لم يكن والدا أمينة يتوقعان أن تعود ابنتهما بمثل هذه السرعة، وعلما بجلية الأمر كله من نانو.. ومع ذلك ابتهجا بعودة أمينة، فقد كانا يعانيان هما أيضاً من فراق طفلتهما العزيزة.

وعند الظهر استأذن "نانو" في العودة إلى البيت من حيث أتى، وبينا كان يأخذ طريقه إلى القارب الراسي في القناة، لمح أمينة تختلس النظرات وترمقه من خلف أعواد الحظيرة.. وكان واضحاً أنها تتحين الوقت لتلتقي به.. ولما ذهب إليها ابتسمت وقالت له: "متى تأتي لتمكث معنا؟ لقد قلت لك أنني سأحبك أكثر من كالو، وأكثر من مينو..".

وقال لها في تلطف:

– أحقاً ذلك يا أمينة؟ أننا سنكون معاً هناك وهناك.. فهل يرضيك هذا؟ وهل تحبينني إذن؟

– لا أدري تماماً .. ولكن، انتظر هنا معنا بضعة أيام وسأخبرك..
قالت هذا وجرت بعيداً كالغزال الشارد، ولم يجد "نانو" بداً من أن يمكث..

وقبل أن تنحدر الشمس نحو المغيب، ظهرت في الأفق كوكبة من السحب القاتمة المثقلة بالماء.. وألقت بها فوق صفحة النهر الواسع.. وتغير الجو وآذنت العواصف بالهبوب.. وانتفضت الأنسام وتقطعت السحب، وامتزج لونها الداكن بلون الشفق القرمزي الشاحب.. فعكسا

الظلال والألوان فوق المكان، وتسلل الظلام كالمتلصص كأنما يريد أن يسبق موعده في غفلة من الزمن!.. وتهادت أسراب الطير بلا عدد تملأ جماعاتها الفضاء وترصع بأجنحتها السماء، عائدة إلى أوكارها في أطراف الأشجار، ولاح صيادو السمك من بعيد في قوارب الصيد يقتربون من الشاطئ ويهرولون عائدين إلى أكواخهم.

وبدأت الريح تهب قوية عاصفة.. وما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الزوبعة.. وسمع اصطفاق الأمواج فوق صفحة النهر القريب كفحيح الأفعى في سكون الليل.. وارتفع الفحيح حتى صار زمجرة واصطخاباً يصدر عن تلاطم الأمواج الغضبى بأطراف الشط، وإذا الرعد يقصف قصفاً يصم الآذان والبرق يومض ومضاً يغشي العيون!..

وأسرع قاسم فأدخل ماشيته في الحظيرة، وقدم لها العليق، واندفع نحو الكوخ فوارب بابه الخيزراني وثبته حتى لا تؤرجحه الرياح.. ووضع في ركن من كوخه سراجاً خافت الضوء يلتمع ويخبو دواليك كعيون الحباحب.. وجلست أمينة فوق حشية تغني لكلبها وقطتها اللذين لاذا بها من الخوف، بينما كانت والدتها تضع أطباق الطعام لوجبة العشاء فوق أرض المكان..

واهتاجت الطبيعة واشتد غضبها، متمثلاً في الزابع المندفعة والرياح العاصفة والأمواج المتدافعة والأعاصير المجنونة، بينما كان يشق الفضاء ومض البرق أو يسمع هزيم الرعد وولولة الطير، وبدا كأن الإعصار يوشك أن يقتلع الكوخ ويقذف به بعيداً.. وركع الرجل وركع "نانو" فوق حصير

وراحا يصليان، وأم أمينة تتلو هي الأخرى بعض الأوراد والأيات!.. أما أمينة نفسها، فأين هي..؟.

وفجأة اندفعت الريح من بين أعواد الخيزران وأطفأت السراج وصاحب الأم تخاطب ابنتها:

– هل أنت خائفة يا أمينة؟.. إن العاصفة ستهدأ فوراً.. ولما لم تتلق الأم جواباً، زحفت نحو فراشها وتحسسته بيديها، فلما لم تجدها صرخت كالمجنونة:

– أمينة.. أمينة.. أين أنت؟!

وسألها قاسم في لهفة:

– ماذا؟.. أليست في فراشها؟

قالت:

– لا ..

وعادت تتمتم : "أوه.. يا الهي.. هل ذهبت ابنتي؟!".

وأشعلوا السراج وبحثوا عن الفتاة.. كان الكلب والقطة رابضين هناك، أما أمينة فقد تسللت إلى الخارج.. إن قاسم وزوجته يعرفان سر ابنتهما.. يعرفان شغفها بمداعبة الأمواج أثناء هبوب الزوبعة وانطلاق

العاصفة.. لقد وجدا الباب مفتوحا على مصراعية، فتخطياه على عجل إلى الخارج.. وصاحا: "أمينة.. أمينة.. ارجعي، عودي..".

وخرج بعض الصيادين الجيران عندما سمعوا النداء، وحمل أحدهم فانوساً يضئ لهم الطريق واتجهوا نحو النهر، ولكن "نانو" كان في المقدمة، وقد استبد به القلق.

ولحق به الكلب كالو ....

ومر بعض الوقت قبل أن يتحقق الفتى والجمع من رؤية شبح بعيد أحضان المياه.. لقد كانت أمينة هناك تداعب الأمواج كعادتها، في النهر الصاخب الغاضب الهدار، الذي لا يعرف السكون، وإن عرف كيف يذيق المتحدي طعم السكون.. إلى الأبد".

ولم يقف "نانو" مكتوف اليدين، بل اندفع نحوها واحتضنها، وعاد بها إلى موضع أمين، وهو لا يكاد يصدق أنه ظفر بها، وأنها تلف عنقها حول عنقه، وتستريح على كتفيه الرحبين، وتستندان إلى ذراعيه القويتين.

وفي داخل البيت الصغير، في الكوخ الخيزراني، فتحت أمينة عينيها ونظرت إلى "نانو" نظرة ذات معنى جديد، وفهم جديد.. نظرة حب عميق!.. لقد خطر في تلك اللحظة أن ذلك النهر حتى لو سحرها بهدوئه حين يكون ناعماً كحضن الأم، أو راعها بغضبه الجميل حين يصبح ثائراً كالوحش الهائج، فإن "نانو" يمكن أن يتفوق عليه.. إنه يحب.. ويحب، ولو قدم من قرية ثانية!..

اعلمن يا بناتي العزيزات أنه يوجد قريباً من هذا المكان كهف مظلم، يحرس أبوابه مارد الجان، وفي جوف هذا الكهف كنز كبير. وأنني لا أفكر الآن فيما لو استطعت أن أقتل هذا المارد وأسلك طريقي داخل المغارة، إذن لجعلت منكن فتيات ثريات، تغرقن في الذهب وقطع الفضة، فضلاً عن نفائس الحلي والجواهر، من قلائد وأقراط وأسورة، لم تحصل عليها ملكة أو أميرة حتى الآن! لقد عولت على أن أذهب إليه وأقوم بمخاطرتي، وما عليكن إلا أن تراقبن هذا الجدل المجاور، فإذا رأيتن ماءه قد تغير لونه واصبح ضارباً إلى الحمرة فعلمن أنه "المارد" قد انتصر وقضى على، وأن دمي قد طل، وامتزج بالماء الذي ينساب به الجدول!.. ولكن لا عليكن من هذا ولا تخشين شيئاً، يكفي أن تصلين لأجلي حتى يوفقني الله في هذه المخاطرة.. فالوداع الوداع!..

وبعد جهد سمحت لها الفتيات بالمضي، فقد كن لبرائتهن وحسن نواياهن يخشين عيها مما يصادفها. وتحولن يحملقن في ماء الجدول! وهن في قلق شديد.. ومضت لحظة رهيبة، ثم ما لبثن أن رأين الماء أحمر قانياً، كانما استحال إلى دم دافق.. فوجمن، ولم يدركن الحيلة التي لجأت إليها زوجة أبيهن.. لقد ذهبت إلى جانب المجرى ووضعت فيه مسحوق الطوب الأحمر ليحلله التيار في مجرى الغدير، وتتوهم الفتيات أن زوجة أبيهن قد قضي عليها، فعلت ذلك ثم عادت إلى بيتها حيث كان زوجها الشيخ يغط في نوم عميق!

أما الفتيات اللاتي لا حول لهن ولا حيلة فقد شعرن بالأسف العميق ووخز الضمير.. ولم يكن أمامهن سوى أن يبقين حيث هن باكيات مولولات في يأس مرير.. وتخيلن مصيرهن بعد أن يستبد بهن الجوع.. والوحدة.. والخوف!

عادت الزجة لتوهم الرجل أن البنات قد وقعنفريسة لأسد هائج أو وحش مفترس.. تماماً كما ادعى أخوة يوسف عليه أمام أبيهم. ومضى الليل ثقيلاً طويلاً، وفي الصباح فوجئ الرجل والمرأة الشريرة إذ لم يجدا الأنضبة التسعة من الطعام الذي كان يأتي لأفراد الأسرة – وهي مكتملة الشمل – فوق السطح.. واستطاع الشيخ أن يربط بين هذا المكر والخديعة.. ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل؟! لقد كان من كبر السن وضعف الجسم بحيث لا يقوى على الروج من البيت والبحث عن بناته.. وعلى مر الأيام قضى كلاهما نحبه: أحدهما بسبب الحزن القاتل، والآخر من جراء تبكيت الضمير! وبينما كانت الفتيات يتمرغن على الأرض وهن يفكرن في مستقبلهن المجهول، كان صغراهن تعبث بيدها في التراب كالطفل، الذي يحفر في أرض الشاطيء.. وإذا بها تجد قطعة نقود برونزية لا تساوي أكثر من مليم، مطمورة على بعد بوصة أو بوصتين.. فحملت هذا الخبر السار إلى احتها الكبرى، ردت عليها قائلة: "احرصي عليها يا أختاه فإن القطعة المبروكة ربما جلبت لك الزوج المرتجي".

ولم تكف الفتاة عن التنقيب، بدافع من حب الاستطلا ع، وأدهشها أن تعثر بعد قليل على مطواة.. ولما أخبرت أختها بما عثرت عليه قالت

لها: "احرصي يا أختاه عليها، فربما احتجنا إليها في هذا الظرف العصيب".

وعادت الفتاة تحفر الأرض بهمة فائقة، حتى إذا تعمقت نحو قدمين في باطن الأرض، وجدت قبراً مفتوحاً.. وتجمعت البنات ليرين الكشف الجديد، وما لبثن أن نزلن إليه ونظفنه من الأقذار التي كانت تملأ جوانبه.. فوجدنه يقود إلى دهليز طويل يؤدي إلى حجرة واسعة من أجمل ما رأته العين، مزينة بالتحف ومؤثثة بأفخر الرياش والأثاث.

وأخذت الفتيات يدرن بأعينهن في أرجاء المكان مأخوذات، ورحن يفكرن في أن يتخذن هذا المكان الفخم سكناً لهن، ولكن صاحبة المسكن، وهي ساحرة بشعة المنظر، اشتمت رائحة بشرية آتية من أحد ابهاء قصرها الكبير تحت الأرض، فراحت على الفور تبحث من حجرة إلى أخرى عن مصدر الرائحة، حتى وصلت إلى الحجرة التي فيها البنات، وما زلن يتحادثن في أمر اكتشافهن الخطير.. وفرحت الساحرة إذ وجدت هذه المجموعة من الضحايا، وأخذت تستعد لأن تجعل منهم أكلة دسمة لها وغنيمة باردة تملأ جوفها.. وفي سبيل ذلك جعلت تحتال عليهن، وتعرض عليهن أن يقمن في قصرها، وترفقت بهن في الحديث بعبارات معسولة في مثل كلمات الأم الحانية، غير أن الفتيات كن من الذكاء بحيث أدركن ما تدبره المرأة، فقررن في أنفسهن لا أن يسارعن إلى النجاة بأنفسهن، بل أن يعمدن إلى قتل الساحرة بالحيلة، ثم يستأثرن لأنفسهن بالقصر العظيم.. فصرن يتملقنها ويلاطفنها ويظفرن بحبها حتى

توصلن إلى الكثير من الأسرار وخفاياها.. وأطلعتهن الساحرة على كل شئ إلا غرفة واحدة مقفلة ابت عليهن أن يدخلن إليها، ويكشفن عما فيها.. ومع ذلك فإن استراجهن لها، وكلماتهن الرقيقة التي اختصصنها بها، جعلتها تلين في النهاية، وتفتح لهن هذه الغرفة العجيبة، فإذا هي تحتوي على مجموعة نادرة من الأدوية والدمى الأثرية، حتى عبقرية العلماء.. وكانت هناك إحدى القوارير، تحوي سماً قاتلاً شديد التأثير، كما صرحت لهن بذلك في لحظة غباء.. وعنئذ لم يعد هناك شئ في القصر تحتاج الفتيات إلى معرفته!

وفي ذات يوم، قالت الفتيات للساحرة أنهن يرغبن في إقامة مأدبة كبرى تكيرماً لها، وفي المساء كان كل شئ معداً أحسن إعداد.. وجعلت الفتيات يقدمن للمحتفى بها طبقاً من الطعام والحلوى. وكان إحداها قد خلط بالسم الزعاف الذي كان محفوظاً في غرفة الأسرار الرهيبة.. وما أن تناولته العجوز حتى قضت لسعاتها، وهكذا نجحت الخطة الجهنمية التي دبرنها.. واصبحن هن الآمرات الناهيات في القصر وآل إليهن ما حواه من كنوز ونفائس، وما لا حصر له من طعام وشراب وكساء!

وجاء يوم دار الحديث بينهن عن الزواج.. إنهن الآن يبحثن عن الزوج الموعود..قالت إحداهن أنها تتمنى لو أنها تظفر بخباز فتتزوج به، وبذلك تستطيع في أي وقت أن تجد الخبز والفطر وأنواع الكعك والبسكويت، وقالت الأخرى أنها تتمنى أن تتزوج بلبان، لأنها مغرمة بشرب اللبن، وتمنت الثالثة أن يكون زوجها "ترزياً" حتى تلبس أفخر

الثياب وتظفر بأجمل "الأرواب".. ورغبت كبراهن في أن تتزوج "أميراً" أو "ملكاً" متوجاً لكي يطلق عليها لقب "جلالة الملكة" وتر زوجها يحكم المملكة، ويتسلط على رعاياها.. وتمنت أخت أخرى أن يكون أحلامهن زخيالاتهن، إذا بملك كشمير الذي كان يتجول في المدينة متنكراً ليخبر حالة رعاياه بنفسه، يسمع كل ما دار بينهن من حديث، فلم يلبث أن أرسل وزيره ليرى ماذا هناك تحت الأرض، ومن هؤلاء اللائي يعشن هناك ويتجاذبن الأحاديث.. وذهب الوزير ثم عاد بعد دقائق ليخبر الملك بكل شيء وينقل إليه حديث الفتيات السبع، وحدثه على الأخص بالجمال الرائع الذي تتمتع به الفتاة الكبرى والطموح الذي يبدو في حديثها وحركاتها.. ولم ينتظر البنات، وأخذ بجمال الفتاة التي تمنت أن تكون زوجة الملك، وخيل إليه أنها هي الجمال والسحر بعينها تتمثل مجسمة في هذا الكائن الساحر الماثل إلى جواره.. وتزوج الملك بالفتاة، كما أمر بزواج الفتيات الأخريات طبقاً لرغباتهن، فدبر رجاله لكل منهن الزوج الذي تتمناه.. فتزوجت الأخت الثانية بالوزير المرافق للملك، وترزوجت الثالثة بصانع ماهر واسع الثراء، يستطيع بوساطة مستخدميه من مهمرة الصناع أن يخرج أفخر الثياب ويبتكر أجمل الأزياء. وتزوجت الرابعة بخباز يملك أكبر مخبز في مدينة "شريناجار"، وتزوجت الخامسة بلبان، و السادسة بجواهري، والسابعة بتاجر خردوات.

ومرت الأيام والشهور والأعوام.. والملك والملكة يعيشان معاً في لام ووئام، وكان ذلك على غير ما تشتهي شقيقاتها اللواتي ندمن على حماقتهن في الماضي، فقد تحققن أن شقيقتهن الكبرى وإن تكن قد

تمنت مجرد أمنية، قد اصبحت حقيقة واقعة وظفرت بالتنصيب الأوفر!.. وهكذا بدا الحسد يأكل قلوبهن، إذ رأين أنفسهن وأزواجهن مجرد رعايا لهذه الملكة التي لم تكن إلا واحدة مثلهن، من دمهن وطبقتهن!

وعرف في أنحاء المملكة على وشك أن تضع مولودها.. وعندما انتشر النبأ السعيد استقبل بترحيب ظاهر في كل مكان، ما عدا الشقيقات الست اللائي استقبلن الخبر بوجوم وغيظ: كيف يرضخن لولي العهد الذي يستعبدهن هن وأزواجهن كسائر أفراد الرعية، بينما هو ليس إلا ابن شقيقتهن المحظوظة!!؟

واجتمعن معاً ودبرن فيما بينهن خطة.. واتفقن على موعد يتوجهن فيه القصر، وفي الموعد المضروب، ذهبن إلى أختهن، حيث لقين منها ترحيباً كبيراً، ومدت لهن موائد الشاي والأطعمة الفاخرة التي تختص بها قصور الملوك وحدها. لما جاء دور الحديث قلن لها: "أيتها الأخت العزيزة، لماذا لا تطلبين معونتنا كلما امكن أن نقوم بخدمة لك؟!.. إننا نتمنى لو أنك تعلمين مقدار اهتمامنا بصحتك وبراحتك وبخاصة في هذه الأيام.. فعدينا إذن أن ترسلي في طلبنا عند اللزوم، لنكون في خدمتك عندما تسعد الدنيا باستقبال ولي العهد".

ووافقت الملكة على رأيهن شاكرة لهن جميل معونتهن، أما هن فقد انصرفن وانتظرن، وكلما اقترب اليوم المنتظر استبد بهن القلق خشية أن تفلت منهن الفرصة الذهبية التي دبرنها للانتقام..

وأخيراً جاءت الساعة الحاسمة، وذهبت الأخوات جميعاً إلى القصر، وولدت الملكة طفلاً، جميل المحيا، جذاب الملامح، تزينه شامة صغيرة فوق خده الأيسر، ولكن واأسفاه! إن الخطر يكمن له على مبعدة خطوات. فما أن رأته الأخوات حتى تلقينه في أيديهن وأسرعن إلى وضعه في صندوق خشبي أحكمن غلقه وقذفن به إلى قاع النهر!.

ولم يكتفين بهذا، بل وضعن "جرواً" حديث الولادة بجانب الملكة وقلن للملك أنها لم تلد سوى هذا الكلب الصغير، وصرت الملكة مغيظة تقول أنها وضعت طفلاً على خده شامة، ولكن بلا طائل! ولم يسئ الملك إليها، بل جعل يعزيها ببعض الحكم والعظات.

وحملت صفحة الماء الصندوق الصغير، ولمحه بستاني شيخ، محروم هو وزوجته من الأبناء، فحين فتح الصندوق سره أن يجد فيه أجمل طفل يمكن أن يتصوره إنسان.. ووظل هو وزوجته يعنيان به حتى كبر واصبح بية في الذكاء والفطنة.

زمرت سنتان أو نحو ذلك، وتأهبت الملكة لأن تضع مولودها الثاني، وعادت الأخوات الست إلى سابق فعلتهن، واستطعن أن ينفذن إلى القصر في ساعة الولادة، ثم حملن المولود، وكان بنتاً في هذه المرة، ووضعنه في صندوق وقذفن به في النهر، وكن قد دبرن وضع "قطة" في فراش "الملكة"، وزعمن أنها وليدة أختهن في هذه المرة!!

واستشاط الملك غضباً، وتواردت في ذهنه الخواطر السود، وتشكك في أن تكون زوجته آدمية كبنات حواء، وتذكر أنه لم يجدها على ظهر الأرض بين الأناس كبقية بنات الناس ذوات الحسب والنسب، بل وجدها في دهليز مسحور تحت الأرض.

وعندئذ أمر فاقضيت الملكة المسكينة عن القصر، وزج بها في السجن، ولحق بها أمر الملك بانفصالها عنه وطلاقها منه!

وعثر البستاني على الطفلة بنفس الطريقة التي عثر بها على شقيقها، وأعجبه جمالها ورقة ملامحها، ولم يكن يدري أنها أخت الطفل الذي تبناه، وما إن لبث أن حملها إلى زوجته وتوفر كلاهما على تربيتها إلى جانب الطفل الأول، حتى صارت صبية ساحرة تملأ البيت هي وأخوها حركة ولعباً ومرحاً.

ولم تكتف الشقيقات عن تتبع مصير الطفلين، ورحن يحاولن التخلص منهما حتى يأمن على أنفسهن من مفاجآت المستقبل، ويطفئن غليل الحقد في أنفسهن، وكن على علم بمصيرهما منذ أن قذفن بهما في الماء إلى أن ربيا في رعاية البستاني الفقير.

وساتدعين إحدى النساء الشريرات وكلفنها بالعمل على التخلص من الطفلين.. فذهبت المرأة تحوم حول البيت الذي يقيمان فيه، إلى أن رأت الطفلة وتوددت إليها وتظاهرت بمحبتها لها، حتى إذا أمنت جانبها قالت لها ذات مرة:

– لماذا لا يكون لديك يا طفلتي العزيزة جدول يجري بالماء الفضي الدافق، وأريكة وارفة الظلال يغنى على أغصانها بلبل جميل؟!

قالت الطفلة:

– وأنى يكون لي ذلك وليس في أرضنا ماء ولا طير ولا شجر؟!

– فأجابت:

– إن كل إنسان يستطيع أن يحقق أمنيته بأيسر الجهد، وما عليك إلا أن تطلبي إلى أخيك أن يصعد إلى الجبل البعيد ليملأ يده بحفنة ماء. وينزع غصناً من الشجرة التي بجواره ويمسك بعصفور وببغاء، ثم يأتي بها جميعاً وينثر الماء حيث تريدين أن يكون الجدول، ثم يغرس العسلوج، فيجري الماء وتنمو الشجرة على ضفته ويغرد العصفور والببغاء فوقها، وتعيشين أنت في سعادة دائمة.

ولما عادت الطفلة رآها أخوها على غير عادتها، مهمومة غاضبة، فسألها عما يشغل بالها فصرحت له بطلبها، ولم يطق الطفل، الذي يجري في عروقه الدم الملكي، صبراً على غضبها فطيب خاطرها ووعدها بتحقيق طلبها فوراً، على الرغم من غرابته وصعوبته.

وانفلت الطفل الشجاع صاعداً إلى الجبل، فلمحه في الطريق ناسك يتعبد لله في صومعته، فدعاه إليه وسأله عن وجهته، ولما ذكر له ما كان من أمر أخته معه، قال له:

"أنصك يا بني ألا تذهب في هذا الطريق لئلا تهلك، إن الشريك يكمن فيه، وكل من أوغلوا فيه من ملوك وأبطال واشراف ذهبوا ولم يعودوا.. على أنك فيما يبدو لي لن تعمل بنصيحتي لإصرارك على إراضء أختك، وإذن فإليك هذه النصيحة وأرجو أن تتبعها بكل تيقظ، وهي أن تذهب لوجهتك مباشرة من غير أن تلتفت هنا أو هناك مهما سمعت من أصوات سحرية تأتي من وراء الشجر، تحاول أن تخدعك وتجتذبك إليها.. سر في خط مستقيم وعد من نفس الطريق ولا تتحول عنها أو تتلكأ فيها، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لنجاتك".

وذهب الفتى، وعمل بنصيحة الرجل كما أوصاه بها، وعاد بما طلبته أخته وحقق رغبتها، وبذلك أفسد الخطة التي رسمتها المرأة الشريرة، ولم يعد في مقدورها أن ترى وجهها لأحد الطفلين أو حتى لإحدى الأخوات الست.

وفي ذات يوم، كان ملك كشمير يتحول متنكراً في أنحاء المدينة على عادته، فلما رأى الصبي أعجب به ورأى النور يتضوا في عينيه ويرتسم على وجنتيه، فدعاه وتحدث معه، فشعر بحنين في دمه وجاذبية تملك عليه مشاعرة، وطلب إلى الصبي وأخته أن يزوراه في القصر.

وبالطبع لم يتهاون الفتى والفتاة في زيارة الملك، بل ذهبا إلى القصر، وتكررت زيارتهما وفي كل زيارة تتوثق صلة الملك بهما، الذي يعجب إذ يرى الشبه الكبير بين طباعه وطباعهما، وألفتهما للقصر

وعاداته التي لا يألفها إلا أبناء الملوك، وصار يجد سعادة وعزاء كبيراً في وجودهما إلى جواره.

وخرج يوماً لزيارة الزوجة المسكين في سجنها، فوجدها في حزنها ترفع عينيها إلى السماء وتقول: لكن الله أيتها الأخوات الشريرات!.. أخفيتن عني وليدي الجميل ذا الشامة الصغيرة على خده الأيسر، والجبهة والرأس المشابهين لرأس ابيه وجبهته، ثم سرقتن أخته الطفلة الجميلة التي لا تقل عنه بهاء وسحراً وبقيت أنا وحدي أكاد أقضي من الهم والحسرة والحدث الفاجع!".

فاستوقفه دعاؤها، وذهب على الفور فأمر باستدعاء البستاني والتحقيق معه، فروى كل شئس ولم يخف شيئاً، وعندئذ أصدر الملك أمره بإطلاق سراح الزوجة. وجئ بأخواتها وعذبن حتى اعترفن بجريمتهن الشنعاء.

وعادت الملكة معززة مكرمة إلى سابق مجدها ومكانتها وعاشت مع زوجها الملك وولديها المحبوبين طول زمانهم في هناءة وسعادة دائمتين.

ص ٢٤٦ – ٢٤٧

هذا هو الرجل الذي اكتحلت عيني برؤيته إذ ذاك.

كان ذلك في صبيحة أحد أيام الآحاد، وكنت أنا منصرفاً إلى عملي في إحدى حجرات المنزل عندما تهادى إلى سمعي صوت غناء يأتي من بعيد، ووعت أذناي ألحان أنشودة لطيفة يرددها صوتان في أحدهما عمق وصفاء وفي الآخر قوة وحرارة:

"أي نوع من العبادة يدعو إليه.. هذا الذي لا ينتسب إلى الالهة كلية القدرة "رادها""؟!

"أي نوع من العبادة عبادته.. هذا الذي يعبد من لا ثمرة ترجى من وراء السجود له والتسبيح باسمه"؟!

عندئذ اتجه تفكيري بعيداً عن العمل، وخرجت لأرى ما هنالك.. فوجدت على الإفريز الممتد أمام البيت ثلاثة أشخاص يجلسون: أحدهم في الثالثة من عمره، وهو ابني وقد جلس فوق مقعده الصغير، والآخران يرتديان ثياباً بالية صفراء ينتمي اليها. وكان أحدهما يحمل مخلاة معلقة في كتفه، وفي يده قرعة جوفاء صنعت على شكب وعاء، وقد شدت إلى حبل، وله شعر كثيف خشن يغطي رأسه، أما لحيته فكانت تشبه الغابة المتشابكة الأغصان! .. وكان الرجل يخطو نحو الأربعين.

هكذا كان "جوربدان" حين عرفته..

استمر الرجل وطفله في الغناء.. فأحضرت مقعداً وانتحيت به جانباً، وجلست أصغي..

"هكذا أسدي إلينا كتابنا الهندوكي المقدس "فيدا" نصيحته.. قائلاً: انه بدون "رادها" المصدر الأول للقوة، لن تكون هناك جدوى من جميع العبادات والطقوس..".

وجاءت زوجتي في أعقابي.. جاءت وقدمت لهما بعض الأرز وبعض النقود. وكتن صنيعها هذا مدعاة لتحمسهما في الإنشاد.. فرتلا أنشودة بعد اخرى، وترنيمة في إثر ترنيمة.. ثم أمسكا أخيراً عن الغناء وأخذ الرجل يشرح معاني هذه الأذكار:

"إن الترنيمة تقول، ايها الأب الجليل، إنه بدون القوة فلا خلاص، وبدون الخلاص فلا عتق للروح!.. إن الآلهة "سيتا" هي سر قوة الإله "راما". و"دورجا" هي أصل قوة الإله "شيفا". و"رادها" هي التي تمد "كريشنا" بالقوة وقوة الرجل هي المرأة. أن أحدها من الناس لا يعلم ذلك. ولكي يصل المرء إلى حقيقة هذا العلم، ينبغي أن يقصد إلى الأب الروحي الذي يلقننا تعاليم هذا الدين..".

وراح الرجل يمتدح المرشد الذي يلقي إليه بتعاليمه، كرجل على جانب عظيم من الروحانية، وقال أنه بين الحين والحين يأتي المرشد ليتفقد تلاميذه، ووعد بأنه عندما يأتي في المرة القادمة، سيناشده أن يحضر إلى لكي أراه.

وحمل الرجل جعبته ووعاءه وطفله، وذهب.. ذهب في طريقه إلى حيث لا أدري.

وذات ليلة وجدت الرجل قد عاد ثانية. وكان في هذه المرة بمفرده لا يصطحب أحداً. وبعد أن تحدث معي قليلاً سألني عن الصورة التي التقطت له في المرة السابقة، ولم تكن معدة. وردد في بلده الريفي.. كانت الحياة قاسية، لم يكن دائماً في ظروف مواتية، ومع ذلك فقد كان أحسن حالاً من سواه.. كان يملك كوخاً، وكان يملك أرضاً.. وثوراً.. وحديقة ذات أعناب وثمار، وشيئاً من النشب، ومن المال..

كان الرجل أذن في رخاء العيش وهو في منزله ذاك. لقد كان "جوربدان" ابن فلاح مزارع، وكانت مزرعته تفيض بالير، ببركة "لكشمي" آلهة الرخاء، وكانت له زوجة فاضلة مخلصة.. وفجأة تعرض لهما القدر: كان لهما ابن لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً اختطفه منهما الموت، فجنت زوجته من الحزن عليه منذ أن فجعت في وليدها، ولم يكن في مقدور الأطباء أن يخلصوها من الامها وأحزانها. وفي ذات ليلة حلمت الزوجة حلماً.. رأت شخصاً جميل المحيا عذب الحديث، يعظ عدداً من الناس عن الحب المقدس وعن أسراره، وأخذ يلقن كل واحد منهم دعاء إلى الآلهة. وكان تاثير كلماته كتأثير السحر، فإن جميع الذين استمعوا إليه قد شعروا بارتياح عظيم، وبأنهم قد تخلصوا من متاعبهم وأحزانهم، وعادوا إلى بيوتهم مبتهجين، وقلوبهم تفيض بالشكر، وألسنتهم تلهج بالدعاء. واستيقظت الزوجة وهي لا تفكر إلا في شئ واحد، هو الوصول بأي ثمن إلى هذا الواعظ المبارك. فمنه وحده تستطيع أن تحصل على العزاء والخلاص، وعلى السلام والأمان. ولكن من هو هذا الشخصي؟ وما اسمه؟ وأين يقيم؟ بل هل هو موجود؟!.. إن زوجة "جوربدان" لم تكن في

حالة تسمح لها بالإصغاء إلى اعتراضاته. كان الإيمان يملؤها بأنها لابد ملتقية به يوماً ما. وقد أصرت على أن تحضر جميع الاحتفالات الدينية، لعلها تصل إليه.

وبعد تجوال هنا وهناك بغير كلل أو تراخ، وجدت أخيراً ضالتها.. أو قل أنها زعمت أنه هو الشخص الذي كانت تعنيه. وصدقها الرجل في اعتقادها، وكان مظهر الأب جديراً بالاحترام والإجلال.. كان وسيم الطلعة مهيباً، يحف به الجلال والرهبة، كأنه البحر.

وقال لهما الأب لهما في تعاليمه أنه ليس من الواب أن تضطرب حياتها العائلية، وأن يسلما نفسيهما للأحزان والأوهام، وكل ما عليهما أن يصنعاه هو أن يقيما تمثالاً للإله جوبال والطفل المقدس كريشنا، وأن يتعبدا لهما صباح مساء، وليل نهار. وبهذه الوسيلة يحيا كل منهما بعقل نقي وجسد طاهر، وأن يشتركا في إحياء الأذكار وتلاوة الأوراد، وكل متاعبهما حينئذ سيتولاها الإله نفسه!

واستعادت الزوجة شيئاً فشيئاً راحتها وهدوء بالها، وثاب إليها رشدها. وأصبحت أفكارها وأفكار زوجها متجهة دائماً إلى مرشدهما وإلى تعاليمه، وكان حريصين على حصر نشاطهما في حضور حفلات الدين وحلقات الذكر، يزورانها في أي مكان، في البلدان المجاورة، ويتزاوران مع الأفراد والعائلات.. حتى تعرفا على عدد كبير منهم، صاروا يأتون إليهما ويمضون في بيتهما بعض الليالي، وكان الجميع يقضون أمسياتهم في الإنشاد وترديد الأذكار، وتلاوة والأوراد الدينية..

وفي ذات يوم جاء لزيارتهما أحد هؤلاء الأخوة المنتمين إلى شيعتهما، ومكث عندهما وقتاً طويلاً، وكان يحسن ترتيل الأذكار، فأخذ الناس يمتدحونه، ويتحدثون عن مواهبه بإعجاب، وعندما عزم على الرحيل، تدخلب بعضهم مقترحاً أن يمكث إلى أن يحين وقت الاحتفال الديني الكبير ليشترك فيه. وأحرج الزوج فلم يقل شيئاً، وصمتت الزوجة فخرجت بصمتها عن لا أو نعم.. وفي المساء ساورته الأحلام المزعجة.. وفكر في أن يستيقظ ويتحدث بشكوكه إلى زوجته، ولكنه بدلاً من ذلك أخذ يصلي لأجل هدايتها، ولم يفاتحها بشيء.. كان هنالك حائط سميك من الغيرة والشكوك يقوم حائلاً بينهما فلم يجرؤ أحدهما على التحدث إلى شريكه في صراحة..

وذات ليلة أخرى استيقظ الرجل مذعوراً بعد كابوس مزعج.. وبينا هو يتمتم ببعض التعاويذ ليتخلص من تأثير الكابوس، إذ تنبه إلى أن زوجته لا تضطجع إلى جواره.. لعلها ذهبت لقضاء حاجة؟ لعلها تعود إليه بغير إبطاء؟.. لكنها لم تعد. ماذا إذن؟ وبدا الرجل يضطرب.. واسلم نفسه للأفكار الشريرة والشكوك القاتلة، ولكن قلبه لم يهدأ.. واندفع "جوربدان" إلى خارج حجرته.. إلى الحجرة التي ينام فيها "الصاحب".. ولكنه وجدها خالية. كيف هذاّ؟ لقد كاد "جوربدان" يصعق!.. وبقي مشوش الفكر لا يدري ماذا يفعل.. وعندما حاول أن ينطق لم يسعفه النطق. وأخيراً استطاع أن يستنتج أن زوجته ربما اتخذت وجهتها إلى "براندابان"..

وإذ سمعت منه قصته ثقل قلبي بالهم لأجلهما، لم يطاوعني قلبي على أن ألومها.. لقد عاشت معه ثمانية عشر عاماً، ولما هجرته لم تهجره بغير سبب قوي فيما أظن، ولكن لعل السبب كان غير واضح عند هذا الزوج، أو غير مقنع!

في ذلك اليوم تناول "جوربدان" طعام العشاء عندنا، وبكى الرجل عرفانا بالجميل وهو يقول: "يا سيدي أني امرؤ لا أهمية له، ماذا يفيد الله من تعذيبي؟!.. ماذا يصنع ومض البرق إذا صدم شجرة موز؟!".. ولم أقوم أمام كلماته على التجلدوترقرقت دمعة في مآقي، وأرسلت زفرة حرى وأنا أجيبه: "لا شئ عند الله يعتبر مهماً أو غير مهم، إذا كنت تؤمن به فهو يعطيك الجواب على سؤالك.. أما أنا.. أنا لا أؤمن!".

قلت له هذا وأنا أعلم أنه من الصعب إقناعه بأني أدين بالمذهب المادي على الرغم من هذه الستائر المقدسة التي رآها معلقة على لم يكن الرجل يدرك ما أحاول أن أقوله له، فقال لي وهو لا يزال على اعتقاده في: "إنك قديس مبارك، وهذا هو سر رضى الله عنك وعطفه عليك.. فلا تفقد ثقتك به، أيها السيد".

وعاد الرجل مرة أخرى – بأفكار جديدة – بعد أيام.. كان مجرد الصدى المنبعث من إنشاده كافياً لأن يحملني على الخروج إلى الباب لكي أراه.. كانت ترانيمه دائماً هي علامة مقدمة.. وفي هذه المرة أخذ يردد هذه الكلمات: "في الإنسان نفسه يكمن اساس العبادة الحقة..".

"الرجل والطبيعة – الرجل والمرأة – كلاهما يعاون الآخر..

"تحقق من قوة الله، وقدرة كريشنا..

"وستجد برهان ذلك في داخلك.. في أعماق نفسك"..

وجلست إليه، وجعلت أدون في أوراقي كلمات الترنيمة.

وكان لا يزال هناك ما يقوله.. وبعد أن قدم له ببعض الحديث لتجنب الدخول في موضوعه مباشرة، قال: "أيها السيد.. اني ازداد يقيناً بأن كل ما يملكه المرء لا يمكن إلا أن يكون ملوثاً.. ولقد كنت عولت على أن أقيم في مكاني طالما جاد على المحسنون بعطاياهم، فإذا أمسكوا رحلت، كما يقول المثل: نهر يفيض ورب يرزق، فإذا غاض أزمعنا..".

قلت: "ماذا تعني؟ هل عرضت لك فرصة من جديد لتقتني شيئاً؟"..:

فأجاب : "إن بعضهم رغب في أن يخصني بما لديه.. إنه مريد أبناء المذهب، وهو يريد أن يشدني إلى الأرض من جديد. لقد قلت له أني كان لدي زوجة من قبل، وأخليت سبيلها.. فهل أعود لآخذ إمراءة أخرى لرجل آخر إلى سابق عهدي في الحرث والعزق وشواغل العرض الزائل؟! لقد قيل في المثل أن البقرة التي تكون في حظيرة مستعرة باللهب، تحس بالبرودة في الجو المشمس".

وصمت.. وعاد هو يرضخ كلامه: "إن الكائن البشري لابد أن يصيبه العطب والتسمم، والمرأة هي هذا السم!..".

قلت : "أية امرأة تعني؟".

قال : "أيها السيد، المرأة هي ضالة الإنسان آخر الأمر، كالعكاز الذي يقود الأعمى، إنما تقود صاحبها إلى هدفه، وبعون المرأة نصل إلى قدس الأقداس، بل إلى النعيم..أو هكذا يخيل لنا!".

– ولكنك قلت لي أن هناك "قوة الله"، وقدرة "كريشنا"..؟!

وفكر قليلاً، ثم قال :

"قوة الله؟.. ماذا أقول؟! إن هذه القوة في حاجة إلى تجسيم كي يظهر أثرها.. إن زوجتي قد رحلت إلى برانابان، فلو كنت متذرعاً بقوة الله فهل كنت أخلي سبيلها بمثل هذه السهولة؟!".

فجعلت أنا أيضاً أتدبر هذه الكلمات، ورحت أفكر : ما هي صلة الرجل بالمرأة؟ أهي مجرد أن يعيشا معاً في سباق مع الحياة ومع الأحداث، وفي صراع مع القدر؟ في موسم يحجان، وفي موسم آخر يقدمان النذور، أو يتعبدان ويتهجدان؟ أهذه هي كل رسالتهما التي خلقا لأجلها في الحياة؟ أليس هناك شئ آخر يخصهما – هما – وحدهما؟!

وعاد "جوربدان" يقول: "بغير امرأة لن تكون هناك حياة روحية، ولا تزاوج أرواح. ومع ذلك فإلى أين أصطحبها معي؟ وأين أدعها تقيم؟ رجل

جائع يتخذ له زوجة.. ياللعجب! أكان ينبغي أن ألوث نفسي مرة أخرى بحطام الدنيا من أجلها.. من أجل امرأة؟!

ترى هل يعني الرجل بهذا الكلام أن زوجته قد عادت إليه؟ لقد أدرك ما يجوب بخاطري فقال لي على الفور : "لقد سمعت أيها السيد أن المرأة ما زالت تقيم في برندابان.. حياة يغلفها الحزن وألسى والألم.. إن الرجب الذي تركت بيتها من أجله قد هجرها!.. ولا عجب، فإن الشخص الذي يسرق لأجلك لابد أن تعيره يوماً ما بالسرقة – هكذا يقول المثل – يجب أن تعاني تلك الخاطئة نتائج ما اقترفته بحماقتها وخيانتها. عندما غادرت بيتي أخذت معها تمثال الإله جوبال، وقد حملت العاطفة الدينية بعض الأفراد على أن يمدوها ببعض المساعدات، فاستعانت بها على العيش بعض الوقت، ولم تجرؤ على أن تعود إلى بيتي لتريني وجهها، ولكنها مع ذلك طامنت من كبريائها الجريحة وأرسلت إلى تطلب أن أزورها. ولكن كيف أذهب؟ إن الإله وحده هو الذي يوجهني وليست هي".

وزادتني كلماته فضولاً كي أعرف ما خفي من أمره، وحينئذ صرح لي بأنه قد اتخذ لنفسه امرأة أخرى نزولا على رغبة معلمه. لقد أرسل الأب المقدس في طلبه عندما علم بأنه قد هجر بيته وتشرد في البلاد بغير هدف. وبين له أن مثل هذه الحياة تعرقل تقدمه الروحي، وأوصاه أن يتزوج مرة أخرى. وكان من الصعب أن يقنعه بهذه الوصية.. إذ كيف يستطيع الأصلع أن يمر تحت الشجرة الجوز؟.. ولكن المعلم قرأ أفكاره

وقال له : "إن الإنسان ليجلب الحزن لنفسه. إنه يحسب أنه مادام قد تزوج بامرأة فستكون له مدى الحياة. ولكن هل هذا ممكن؟ في العالم وجد الموت. فهل يستطيع أن يحميها من الموت؟ وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يحميها من الموت، فكيف يستطيع أن يحميها من الحب؟ هل الحب أقل قوة من الموت؟!".

لقد أوصاه معلمه أن يتهيأ لحياة جديدة.. وكان أن تزوج بفتاة سيئة الحظ، من اتباع شيعته.. كانت فتاة طيبة القلب، وكانت أرملة، مات طفلها الوحيد ولم تجد من يسأل عنها، حتى أثاث بيتها قد باعه شقيق زوجها في المزاد، وطردها خارج البيت، فأصبحا – هي وزوجها – لا يجدان موضعا يسندان فيه رأسيهما.

وحمل الرجل حمله من جديد. ولكن إلى متى؟ وإلى أين؟ لا بيت له ولا مزرعة، لا غابة ولا حتى.. صومعة! ولم يمض وقت طويل وهما يتسكعان مشردين في الطرقات حتى سقطت أعياء، واصابها مرض لم تشف منه..

ووجدتني أشجعه على أن يحضرها لتعني بها زوجتي وتساعدها على العلاج.. وبعد أيم حضرا معاً.. حضر الرجل والمرأة.. الرجل والطبيعة!.. كانت الفتاة نحيفة مديدة القامة، ولم تكن قوية البنية كزوجها "جوربدان"، وقد ذهب المرض المزمن بجمالها، وبدا عليها الكبر فتغضن وجهها وذبلت عيناها. ونادتنا المأة أن نترفق بها.. ووعدتها زوجتي بأن

تسأل طبيب الصحة عما يصنعه لها، ولكن في ذلك الوقت لم يكن هناك استعداد خاص وارتفعت لسوء الحظ أصوات الاحتجاج على علاجها.

ويبدو أن "جوربدان" كان يعتقد أنني لو قدمت معونة مالية لقامت الحكومة بتقديم الدواء، ولكن الحكومة أيضاً في ذلك الوقت كانت تقتصد في نفقاتها، وكنت أنا نفسي محدود الموارد، فلم نصل إلى نتيجة، واضطر الرجل وزوجته إلى الرحيل من حيث أتيا بلا عون أحد.. ذهبا ولم يعودا بعد ذلك إلى الآن.. أني لأذكر جيداً الطريق الذي جاءاني منه مؤملين مستنجدين، وذهبا فيه يائسين، بائسين، وما زالت نفسي طافحة بالحسرة والألم الممض من جراء هذه المأساة.

آه لو خلت الحياة من الأمراض.. ومن الآلام!

(ترجمتها من البنغالية إلى الإنجليزية : ليلي راي).

– هل سمعت عن أناس يقدمون أراضيهم بالمجان؟.. وأجابته الزوجة وهي مطمئنة كأنما جاءته بإبريق من اللبن تغطيه طبقة سميكة من الكريمة!

سحر بهودان

بقلم: راچ جيل

«بهودان» هي الحركة الإصلاحية الجديدة التي بدأها «فينوبا» الزعيم الهندي، ودعيت بهذا الإسم. وهي تشجع على أن يتنازل كل من يملك جانبًا من الأراضي الزراعية الواسعة، عن قدر منها عن طواعية، يبلغ نحو السدس، ليوزع على الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا.. وبذلك يتحقق في المجتمع الهندي شيئًا فشيئًا قدر مناسب من العدالة الاجتماعية، ونظام صالح من الاشتراكية الرشيدة، وعلاج ناجع لأخطر المشكلات التي تواجه أبناء الهند.

إن هذه الحركة الإصلاحية يمكن أن تؤدي بهذه الطريقة إلى نتيجة إنسانية وغاية حيرة تؤكد الروحانية التي تأصلت جذورها في تربة الشرق الطيبة، وتخاطب مشاعر الإنسان النبيلة ليخفف عن المجتمع الذي يعيش فيه الآلام والمتاعب، ويشيع فيه السلام والسعادة والرضا.

وحركة «بهودان» بهذه المثابة وهذا التفسير فضيلة.. ولكن هل طريق الفضيلة معبد دائمًا، أم أن القلوب مختلفات.. منها ما يستجيب لدعوة الخير، وما يستجيب لشطحات الهوى، ومنها ما يلين ومنها ما يقسو حتى يصير كالحجارة، أو أشد قسوة؟!

وصل «بهادر سنغ» إلى حقله يلهث من طول الطريق وتقدم السن.. ووقف على الحافة الضيقة يرسم حدود الأرض، ثم وضع يده فوق جبينه الذي ينضح بالعرق، وأغمض عينيه وضغط عضلات جفنيه ينفض قطرات الماء.. ومد إصبعه ومسح بها فوق جبهته وخديه..

وتقبلت الأرض هذا الرذاذ من صاحبها تقبل المشوق المستهام، الظامئ إلى كأس من.. المدام!

ومسح الشيخ ذراعيه أيضًا، وتطلع إلى الأفق وهو يرسل الشعاع الملتهب ثم مشى نحو الشجرة الفارغة بالقرب من «الشونة».

وقطع بخطاه الحقل في طريقه.. ورأى أعواد الزرع مائلة كالمتعب، ومتعطشة تعاني من الجفاف، ولم يعبأ بحرارة الشمس حتى وصل إلى ظل الشجرة الوارف المبترد.. وفي الظل أحس بجسمه يتقد ويتلظى، كأنما كان هو الذي يوصع الحرارة بدلًا من الشمس.. وخلع عمامته، وتخلص من قميصه المبتل، وحلس حيال جذع الشجرة السميك.. الخشن، وأطلق تنهيدة طويلة، نفس بها عن ضيق صدره..

***

ورويدًا رويدًا خفت وقدة الحر وزايلت بدنه.. واستطاع أن ينعم بالنسيم اللطيف المنبعث من الظل.. ورفع عينيه.. أن حقله على امتداده وسعنع التي تصل إلى ثلاثة وثلاثين فدانًا قد أحاط به البصر وهو في دلسته هذه.. وعلى صفحته الزروع الذهبية اللون أو الداكنة، تخترقها الحفافي الضيقة والقنوات طولًا وعرضًا... وارتفعت هنا وهناك أطراف البرسيم.. ولوزات القطن.. وأعواد القصب.. وأخذ يراقبها بحنو وشغف كالأم حين تحنو على أولادها.

ولكنه في لحظة واحدة شعر بمرارة تخامر قلبه، جعلته يغضب وينفعل، فاعتدل في جلسته ولوح بيده وصاح كأنما يتوعد عدوه غير المنظور:

«ما شاء الله!.. لأنظرن أبناء الخنزير هؤلاء الذين سيأتون ويستولون على حقلي!».

لقد كان، قبل نصف ساعة فقط، يجلس في «دوار» القرية، وهناك سمع بأن هناك لجنة ستصل إلى القرية وتعمد إلى توزيع الأرض على الزراع والسكان، وقال وهو يستمع إلى هذا النبأ «يا لها من طريقة همجية غادرة.. يسلبون الفرد ما يملكه ليعطوه لآخرين، كأن الأشياء ليس لها صاحب» وقال له أحد الحاضرين إن الحكومة تآزر اللجنة وتقف خلفها، وإنه ليس في مقدور أحد أن يتظلم أو يذهب إلى المحكمة.. وأزعجت الأنباء «بهادر سنغ» وأثارته، ولم يقو على المكث في الدوار أكثر مما مكث، فغادره وهرول إلى حقله، كأنما يخشى أن يغير عليه قطاع الطريق للسلب والنهب.. ولكنه عندما أخذ مكانه ذاك في ظل الشجرة، بدأ يفكر في المسألة كلها من جديد..

وجعل يحدث نفسه قائلًا:

«إذا كانت الحكومة تقف بجانب هذه اللجنة، فهذا معناه أنني سأفقد أرضي لا محالة.. ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا الإجراء

الظالم؟ أليس الله يرى من عليائه كل شيء، فلماذا يدع مثل هذا الظلم يقع على عبيده، والله دائمًا يحمي الضعفاء والأمناء؟!».

وكأنما أراد بهذا المنطق أن يعزي نفسه، وإن لم يكن من الصواب أن ينظر إلى الله متدخلًا في إجراءات أو أنظمة تضعها أو تتخذها حكومة ما. إنه يعلم أن الله وإن كان يرى كل شيء إلا أنه يتعقب أو يقلب كل شيء..

لقد كان الرجل، بهادر سنغ، ثاني شخص يملك زراعة واسعة في القرية، وعلى ذلك لن يكون بمنجاة مما تصنعه اللجنة!

واكتأب الشيخ، وأطال النظر إلى حقله الممتد تحت عينيه.. وخيل إليه أن هذه الرقعة الزراعية الواسعة كائن حي، يتحرك ويكون وحدة واحدة متشابكة متداخلة، وفوق ظهر هذا الكائن جثم جسم ضخم كبير وبدا له أنه هو نفسه ذاك الكائن، وأن قطيعًا من الذئاب قد ظهر فجأة وأحاط بجسمه وتشممته الذئاب كما يتشمم الوحش فريسته، وتخيرت ضحيتها، وغرزت فيها أنيابها وأعملت فيها تمزيقاً وتشريحاً!

وانتصب بهادر سنغ قائماً وهو يحس بألم شديد في جسمه، كأن طعنة قد سددت إليه.. كانت هناك نملة كبيرة ذات ساقين طويلتين تعبث في أصبع رجله اليمنى، وأمسك بها بين إبهامه وسبابته وقذف بها بعيداً عنه فانشطرت شطرين.. وبقى جسمها بين أصبعيه، وبقي رأسها وقرناها مغروسة في جلده، واستطاع أن يتخلص من هذه الأشلاء جميعاً، ولكن

موضع اللدغة التهب وتورد، وأخذ الرجل يفرك الموضع بأصبعه، وتوقف عندما شعر بأن هناك شخصاً قائماً عند رأسه.

وقال القادم:

– تحياتي للأخ.. هل تأذن لي في الجلوس قليلاً؟

فقال الشيخ:

– تفضل.. تفضل.

ومرت برهة صمت أراد القادم أن يقطعها بالحديث، فقال:

– إن اليوم الحر!

وأومأ الرجل برأسه.. إنه لا يشعر بارتياح إلى قدوم الزائر.. ربما كان أحد أعضاء اللجنة المشئومة.. من يدري! لقد غضب لأن مثل هذا الشخص يجرؤ على أن يغزوه في أرضه ويصعر له خده. لم يعد في هذا الزمن خير كما كان فيما مضى.. إنك لا تأمن على شيء أو تطمئن إلى أحد.. وخير شيء تفعله هو أن تتذرع بالصمت.. وتنتظر!

وعندما وصل تفكير الرجل إلى هذا الحد، استند بظهره إلى جذع الشجرة وأغمض عينيه...

ولكنه لم يسترح في جلسته، وغير طريقته مستنداً بجنبه الآخر، فلم يستريح كذلك، وبدل موضعه أكثر من مرة ومع ذلك كان يتململ..

وأخيرًا تظاهر بالحاجة إلى النوم ورفع جسمه على هيئة الجالس وفتح عينيه في بطء..

***

كان الزائر يرقب الحقل الكبير.. وتحول بناظره إلى مزرعة القطن وكانت أطرافه شاحبة اللون.. إن الحرارة تفعل فعلها في أعواده!

وألم بالشيخ قلق مفاجئ.. لا شك أن الرجل من أعضاء اللجنة!.. وحاول أن يتكلم ولكن الكلمات توقفت في حلقه واستعاد في خياله حلمه الذي رآه منذ لحظات.. حلم الذئاب المهاجمة التي تعمل أنيابها في الفريسة!

وانتفض من الخوف والإشفاق..

وبدأ الزائر يتكلم:

– لقد كانت هذه الفترة هي وقت نزول الأمطار..

وأومأ الشيخ غير عابيء..

واستأنف الرجل كلامه:

– إن الوقت قد تغير.. نعم تغير.. فالأمطار الآن إما أن تسقط مبكرة أو متأخرة، ولكن لا تنزل في موعدها..

– نعم، لشد ما أتمنى لو ينزل المطر.. إنني لا أطيق أن أمكث متبطلًا.. أريد أن أعمل في حقلي!

وقال الزائر في بساطة واطمئنان:

– من الخير دائمًا أن تحرث الأرض وتعدها للغرس قبل المطر..

ونظر إلى الأرض ثانية من جهة الجنوب واستأنف يقول:

– إن حقلك مناسب لزراعة الأرز.. أرضة واطئة وسهلة التصريف.

وتطلع «بهادر سنغ» إلى الحقل قبل أن يجيب، ليطمئن قلبه، وقال:

– أجل، أستطيع أن أزرع الأرز في حقلي، ولكن أين الماء؟.. إن الماء غير كاف.. حتى القطن والبرسيم والقصب لا تصيب حاجتها!

– أنت على حق أيها الأخ.. إن الماء في أرضنا نادر شحيح، ولكنك ستحصل على كل ما تريده من الماء.. إن خزان «بهاكرا» الجديد سيمدنا بما نحتاج إليه..

– لقد سمعنا.. ولكن...

كل شيء.. ماذا تقول كتبها المقدسة – أقدم كتب في العالم – عن العطاء والإحسان؟ ماذا يعملنا أنبياؤنا العشرة عن الجود والبذل؟ ألم يوصونا بأن نقتسم كل ما نمتلك مع إخواننا؟،،

وأومأ الشيخ برأسه مؤمنًا على ما جاء في الوصية، وإن لم يكن موافقًا على الموضوع..

وأكمل الرجل كلامه قائلًا:

– إنك لا تعلم عن فضيلة العطاء كم هي حسنة.. إنك تجلب لغيرك السعادة من غير انتظار للشكر ولا أمل في الجزاء.. إن هذا يأتي بالسلام إلى روحنا وبالمسرة إلى فؤادنا، وإنه يذهب بمرارة الحقد والحسد ويزيل أسباب الإحن والضغائن والمطامع، والآن أخبرني: ألا تكون سعيدًا إذا ما أعطاك أحدهم قطعة من الأرض لتزرعها وتملكها؟ الا توفر عليك عندئذ كثيرًا من أسباب الفقر والمتاعب والمصاعب التي واجهتها وأنت تحيا حياة العناء والشقاء والحاجة التي أنت نفسك تعانيها؟

وبقيا وقتًا طويلًا يتحدثان عن وصايا الدين وعن فضيلة الإحسان، وعن موضوعات أخرى، وظل بهادر سنغ يصغي باهتمام إلى كلام محدثه، حتى إنه لم يذكر متى استأذن في الانصراف ومضى!

***

وفي المساء، عندما أخذ الشيخ طريقه عائدًا إلى منزله، جعل يفكر هل يحدث زوجته عن هذا الموضوع أم لا يحدثها.. إن كل مسألة وكل مشكلة سهلة العلاج والحل عند هذه الزوجة الصوفية العقبل الفطرية التفكير لأنها تجعلها على لسانها ولا تتركها إلا محلولة معقولة.. حتى

الشر أو الخطأ حين يقع، تراه هي قد حدث للخير.. لأنه يمنع شرًّا أعظم ويحجب نازلة أكبر!.. إنها في إيجاز تنظر إلى الأشياء من وجهها المضيء المشرق، إنها تتفاءل دائمًا ولا تفكر في الجانب المظلم أبدًا.. ولذلك كان بهادر سنغ في أكثر الأحيان لا يستريح إلى رأيها ولا يأخذ بوجهة نظرها.. لقد اعتزم ألا يخبرها بموضوعه، ومع ذلك لم يلبث أن غير رأيه، فإنها ستعلم به على أي حال..

وأسرع في خطاه كأنما كان يخشى أن يتحول عن رأيه مرة أخرى..

– هل سمعت عن أناس يقدمون أراضيهم بالمجان؟

– لا، ولكن أبي قدم بيته القديم للمجلس القروي.. قدمه بالمجان طبعًا..

بهذا أجابته الزوجة، وهي مطمئنة كأنما جاءته بأبريق من اللبن تعطيه طبقة سميكة من «الكريمة»!

وعادت تقول:

– وحفر كبيرنا في القرية بئراً، على بعد ثلاثة أميال من القرية.. حفرها للمسافرين وأبناء السبيل.. وقد كلفته ١,٢٠٠ روبية. ولكن من يعبأ بالنفقات مادام ينفق في سبيل الله؟.. إنك تعطي، وتأخذ..

واستشاط الشيخ غضبًا.. لقد وضعته في مأزق حرج.. وقال محاولًا التخلص..

– ولكن الأمر يختلف بالنسبة للأرض، إن لا تنفقينها كما تنفقين بعض الصدقات.. إن أحدًا لا يفعل ذلك.. أنا لا أستطيع أن أصدق هذا..

وجد الزوج نفسه يقول هذا، مع أنه أراد أن يقرب الموضوع إلى نهايته..

وقالت الزوجة على طريقتها:

– إذا كنت يا عزيزي لا تريد أن تصدق فذلك شأنك.. أنت حر.. قالت ذلك ببساطتها المعهودة وجلست مطمئنة في موضعها تجتر أحلامها!

واعترف الرجل بينه وبين نفسه، أنها لا تقول إلا صواباً وصدقاً، ولكن هذه الحقيقة قد جعلت منه امرءاً غاضباً كأي حقيقة واقعة أخرى. وقال في نفسه أنه ربما استطاع أن يبحث الموضوع بصورة أفضل أثناء الليل..

***

وفي اليوم التالي، كان أفراد لجنة بهودان يأخذون أماكنهم في قاعة الدوار.. وكان الجميع الحاضر كبيراً، وعندما انتهى رئيس اللجنة من خطابه موضحاً غرض اللجنة، متحدثاً عن فضيلة العطاء، سرت بين

الحاضرين موجة من التعقيبات والتعليقات الخافتة المختلفة وقال أحدهم متمتماً:

– لا تصدقوه.. إنه لص..

وقال آخر:

– إنهم يريدون أن يجردونا من أراضينا ليوزعوها على الأقارب والمحاسيب..

وقال ثالث:

– لماذا لا تذهبون إلى القرى الأخرى والمدن الأخرى وتسألونها الإحسان وتستجدون منها التبرعات؟!

وعلت الأصوات الساخرة وعبارات الهزء والتهكم، وتحرج مركز اللجنة وتأزم الموقف، ولاح الجو ينذر بالفشل والخطر.

ولم يلحظ أحد في هذا الزحام وهذا الاضطراب «بهادر سنغ» وهو يدخل إلى الدوار، وقد ارتدى أحسن ثيابه وشق طريقه رأسًا إلى أن وصل إلى حيث يجلس أعضاء اللجنة، وجلس في موضع مرتفع..

ورحب به رئيس اللجنة محيياً

وقال الشيخ في وضوح وعزم:

- لقد جئت إلى هنا لأقدم نصف أرضي التي أملكها..

وفوجئ الجميع، وأعلن الرئيس هذا التبرع السخي وتغير الجو على الفور، وتحول الجميع من احتجاجهم السابق إلى همس يسري بينهم في شبه مؤتمر.

ووقع بهادر سنغ على الأوراق الرسمية ومضى في سبيله لم ينتظر حتى يرى الحاضرين وهم يقفون، ويتوجهون واحدًا بعد الآخر نحو اللجنة مبتهجين مقدمين تبرعاتهم وعطاياهم مما يملكون.. نصف فدان، فدانًا ونصف فدان، خمسة أفدنة، ١١ روبية، ٥١ روبية، مائة روبية، محراثًا واحدًا، مناجل، خزانة خشبية، إلخ... كان الناس يعطون ويشعرون بسعادة لأنهم يعطون..

وذهب بهادر سنغ إلى حقله، وتفقده جزءاً جزءاً في رضل واغتباط، وأخيراً قال يخاطب نفسه:

- سأعطيهم خير ما أملك، وسأعمل بكل همة، وسأنتج مما يتبقى لي من أرض قدر ما كنت أنتجه من كل أرضي..

شيء عميق في قلبه كان يوحي إليه أنه سيفعل، بكل تأكيد..

- إن وجوده يجلب لشعبه اللعنة أكثر مما يجلب الخير.. إن أي فرد سواه يمكن أن يكون ملكاً عليهم أفضل منه..

الفداءِ

بقلم: بها سكاران

إن الأحجى للمرء، مهما يكن فخوراً ببلده، ألا يغالي في الثقة بمستقبل هذا البلد.. ففي خلال مائة سنة قادمة قد تقوم المدن وتزدهر على أرض هي الآن صحراء جرداء، بينما المدن المزدهرة الآن قد يعفى عليها الزمن وتغطيها الحجارة والتراب، وتصبح أثراً بعد عين!

إن البلد قد يخربها حدوث زلزال، أو تغيير نهر لمجراه، أو يخربها ملك فاسد، أو يتألب عليها الأعداء فتنتهي إلى الخراب والدمار!

ولكن إذا اتفق لك أن تقوم بجولة في منطقة «مالابار» على الضفة الغربية للهند، ورأيت حقولها اليانعة مكتسية بالسندس الأخضر تحت قدميك، وأشجار جوز الهند الفارعة موزعة في أطرافها بصورة لا يحيط بجمالها الخيال، بينما تجد أنهارها مندفعة في انحدارها إلى النهر كأن بها ظمأ إليه، أو شوقًا إلى لقائه – إذا اتفق لك ذلك وقلت عندئذ لنفسك: لابد أن أرى المدينة الرئيسية لهذه المنطقة البديعة، ثم لحقت بالقطار الذاهب إليها.. إلى «كوزهي كود» فلن تجد أحدًا من أهلها هناك يقرك على وجهة نظرك حين تذكر أمامه حكمتك، بل سيرد عليك قائلًا:

– ربما تكون هذه النظرية صحيحة، تصدق على البلاد الأخرى، أما كوزهي كود، كوزهي كود بالذات، فلا يمكن أن تموت.. لا يمكن!

ذلك لأن لهذا البلد نفسه قصة عجيبة جعلت لها هذه المناعة التي يؤمن بها أهلها.. وإذا مرت التجربة بشيء فعركته وعصرته ثم احتمل التجربة وعاد إلى الحياة من جديد فلن يتعرض لخطر الموات مرة أخرى.. تمامًا كما يحدث للإنسان ذاته.. إذا اجتاز الموت فإنه يخلد، ولا يتعرض للموت مرة ثانية..

فإذا كان بك فضول لمعرفة سر هذا البلد، فالأمر عندهم معروف مشهور، كل فرد منهم يسره أن يسرد عليك القصة.

إنه يندمج في دوره وهو يروي لك الخبر، وتلتمع عيناه من الحماس وهو يتخيل نفسه في الجو الذي حدثت فيه وقائع القصة، منذ نحو ثلاثمائة عام!

***

في ذلك الوقت كان هذا البلد – كما هو الآن – مركزاً عظيماًللتجارة، وعاصمة صغيرة تفيض بشراً وهناءة للقطر كله، الذي كان يحكمه ملك جليل كبير القلب.. وكان التجار العرب يفدون إليه في جماعات كبيرة للمتاجرة في الحرير والتوابل، والحلي المعدنية واللوازم المنزلية.. وكان أبناء البلد مغتبطين هانئين، يتكسبون ويحسنون الاقتصاد، وكانت البلد منتعشة دائماً، مشرقة في كل وقت.. وكان الخير وافراً.. السمك الكثير على طول الشاطيء، والذهب والفضة يتدفقان إلى

البلاد عن طريق التجارة.. لم يكن هناك شيء يضايق ملك البلاد، أو يقلق باله، أو ينغص عليه عيشه.

ومع ذلك فإن الملك، الذي تقدمت به السن ورقد في فراشه بقصره في كوزهي كود مريضًا، كان حزينًا!

لم يكن حزينًا لأنه أحس بأنه سيلاقي الموت، فقد كان شجاعاً لا يهاب الردى، بل كان حزنه من أجل ابنه الوحيد.. فقد بذل أقصى جهده في تدريبه وتبصيره بتبعات الملك، وتعليمه على أيدي أساتذة أكفاء، ولكنه في النهاية فشل في إنقاذ ابنه.

إن الأمير رافي فارمان كان له أصدقاء من إخوان السوء.. وكانت بطانته من جماعة المنافقين والمتلافين تعجل بضياعه وفساده.. وساعدت الملك أيضًا في إفساده بتهاونها وترفقها به.. وعندما كانت على فراش الموت أخذت على الملك عهداً بأن يجعل ابنهما على الدوام سعيداً..

لقد بقي سعيدًا حقاً، ولكن من طريق لا يليق أن يسلكه أمير سيصبح بعد قليل ملكاً خطير الشأن يحكم البلاد!

وإذ فات زمن الصبا الذي كان ينبغي فيه تقويم اعوجاجه، فقد أصبح علاجه بعد ذلك متعذراً، لأنه شب عن الطوق، وفي كل يوم كانت الهمسات تنتشر في أبهاء القصر عن المصير المظلم الذي ينتظر عهد الأمير في كوزهي كود وما حولها.. حتى الملك جعل يتساءل مع نفسه:

ترى ماذا سيحدث لبلادي بعد أن أتركها وديعة في يد ملك طائش ليحكمها؟ هل سيأتي الوقت الذي يلعن فيه شعبي الساعة التي ورث فيها ابني العرش؟!

***

وبعد أسبوع مات الملك، وجلس الأمير على عرش كوزهي كود.

وسرعان ما نسي الملك الجديد العهد الذي قطعه على نفسه أمام أبيه، فلم يلبث محزونًا سوى بضعة أيام، عاد بعدها دم الشباب الحار يشتعل في عروقه وعاد هو إلى سابق عهده!

وصار القصر مرتعًا للمتع الدنيئة.. وأبعد عنه الخدم القدامى الذين تبرموا بمسلك الملك وجيء بالخدم الذين كانوا يسخرون لمآربه عندما كان أميراً، ولم يك «رافي» يصغي لغير خلانه المقربين، وكان يسفه آراء المعارضين ويمتهنهم وينكل بهم مع أنهم وزراء أبيه!.. وأهمل واجباته كملك، أو عهد بها إلى بعض الأفراد المتزلفين، من حاشيته، وجعل يتمادى في الانغماس في ملذاته.

وأسف الشعب ووجد مبرراً لأسفه.. أن الملك الحازم الحكيم قد ذهب، تاركًا ابنه الفاسق يتسلط عليهم.. وعندما أوشكت خزانة مخصصاته على النفاد، أرغمهم على أداء ضرائب إضافية.. وصار أصحاب الغنى أو العقار والحقول يرغمون على تقديم جانب من ثرواتهم لخزانة الملك، أما الذين يعارضون فكانوا يلقى بهم في السجن فجأة،

وتصادر أملاكهم!.. وكان الملك لا يتورع كلما علم بأمر فتاة حسناء يلمحها أحد رجاله على مقربة من قصره، لا يتورع عن أن يلتقطها ويضمها إلى جواريه، مخلفًا الحزن والعار والفجيعة في بيت ذويها!

وفي خلال عام نفدت الكنوز من خزانة الملك، ولم تعد الأرض تغل له كل ما يطلبه، واستسلم للمشورة الفاسدة من حاشيته وهو يتلذذ بحثاً عن المال، فتحول إلى التجار العرب يطالبهم بالأموال..

لقد أمرهم بأن يؤدوا إليه أحمالاً من الفضة، فلما لم يصدعوا بالأمر، أعلنهم بأنه لن يقبل إذن أن يأذن لهم بالاتجار مع الشعب في مملكته.

وفوجئ التجار بالأمر الملكي، وأسرعوا عند الليل فعقدوا مؤتمراً ليتدارسوا أمرهم.. وقال بعضهم إنه يرى أن يقدم التجار للملك ما يريده، ولو أن هذا معناه أن يذهب من أيديهم أكثر ما يربحونه في العام كله.. ولكن تغلب الرأي القائل برفض الخضوع لمطالب الملك.. وقال قائلهم إن الملك متى ذاق طعم هذه الغنيمة الباردة السمينة لا يلبث أن يرهقهم بطلب المزيد، وأن من الأفضل أن يخاطروا بالبحث عن مكان آخر للاتجار، على أن يستسلموا للملك ويتعرضوا للإفلاس.

وما أن نشر الظلام ظلاله على ميدنة كوزهي كود حتى أقلع العرب بسفنهم، واتجهوا إلى الجنوب!

وكان أول نبأ يتلقه الملك في اليوم التالي هو إبحار التجار العرب..

ولم يصدم هذا النبأ الملك وحده، بل صدم أولئك الوزراء الذين كانوا يرقبون بلادهم وهي تجد الغنى والرخاء من تجارة العرب في عهد والده.. وتجمعوا في موكب كبير وأتوا إليه يحتجون ويشيؤون إلى تصرفه الأحمق..

وصرف الملك هؤلاء الثائرين.. ولكن كلماتهم استقرت في ذهنه.. إن ضميره قد أخذ يؤنبه تأنيبًا قاسياً.. وتذكر وعوده وعهوده في حضرة والده، وأحلام المجد والسؤدد التي حلمت بها أمه عندما كانت على قيد الحياة، لقد خدعهما إذن وخانهما كما خان شعبه وخدعه! هل مضى الوقت المناسب للإنقاذ؟ ألا يمكن عمل شيء يجعله في الوضع الصحيح أمام شعبه؟

وعاصمة الملك، ماذا سيحدث لها؟ هل تذهب أمجاد هذه المملكة العظيمة إلى غير رجعة، ويحل الفقر والذل والهوان بسبب جرائم فرد واحد؟

***

ظل رافي طول يومه يفكر وينحي باللائمة على نفسه وهو مهموم محزون، وعندما حاول بطانة السوء أن تسري عنه طردهم من القصر.

وانتصب واقفًا، وفكر لأول مرة في أن يذهب إلى المعبد، ويقدم صلاته وندمه.. لقد زار والده من قبل المعبد وتضرع للآلهة لكشمي، ومن وقتئذ عم مملكته الرخاء والهناء..

كان المعبد يقوم عند حافة البحر، وعندما أخذ رافي طريقه إليه، كان يصافح أذنيه صوت تكسر الأمواج فوق السلم الذي يفضي من المعبد إلى الماء.. وكان إيقاعها الرتيب يبعث الرعد والخوف في قلب الملك.. لقد كانت تذكره بالقوانين السماوية وأحكام القدر التي لا يستطيع أحد أن ينجو منها!

وكان الكاهن قد انصرف إلى بيته بعد قيامع بشعائر العبادة في يومه، وبقي المعبد ليس فيه أحد.

واتجه رافي إلى ماء البحر ليغتسل ويتوضأ قبل أن يرفع صلاته، وقبل أن يخطو بضع خطوات، فوجئ برؤية غادة رائعة الحسن تجلس فوق صخرة عند حافة البحر، فتساءل مرتاعاً:

– من هذه؟

وأجابت الحورية

– أوه.. لا أحد..

واقترب رافي وحدق في وجهها.. فإذا جمالها الساحر يفتن لبه ويبهر ناظريه.. هل يمكن أن يكون له مثل هذه الفتنة والسحر والحسن؟.. هل هي حورية؟.. هل هي إلاهة؟

وعاد يسألها:

– ماذا تصنعين هنا؟

فقالت:

- لا شيء.. إنني ذاهبة.. إنني ذاهبة..

- إلى أين؟

وتأوهت وهي تجيب:

- في رحلة بعيدة، جد بعيدة..

وعاد يتأمل عن كثب جمالها الذي يفوق كل جمال، ويفكر في صورتها وبديع تكوينها وصوتها السماوي، حتى استضاء ذهنه بالإلهام، وأدرك أنه أمام معجزة علوية لا عهد لإنسان بها من قبل!

وفي تلطف وضراعة راح يسألها:

- ولماذا أنت ذاهبة؟

- لم أعد أطيق هذا المكان أكثر من هذا!..

- لماذا؟

- ما أكثر أسئلتك! إنني لا أريد هذا المكان لأني لا أطيق ذلك الغبي الذي يجلس على العرش!

- ولكنه لا يزال صغيرًا..

- ومع ذلك فهو كبير إلى الحد الذي يستحل معه أن يبعثر ما في الخزانة، ويحيل القصر إلى مباءة دنيئة!

وناشدها قائلًا:

– ألا ترجعين عن عزمك؟

– كلا!

– أرجوك.. أرجوك أن تبقي..

– لا لا، لقد صممت..

– ألا يوجد شيء يجعلك تتحولين عن رأيك؟

– لا شيء.. لقد صبرت بما فيه الكفاية!

وأخذ يفكر في الأمر.. ماذا يمكن أن يحملها على البقاء! إنها إذا لم تفعل فإنه لا يستطيع أن يواجه النتائج.. هذه البلاد الجميلة التي تردت بإهماله في الفقر ودنت من الهاوية.. هذه البلاد التي لا يستطيع أن ينساها ولا ينسى فضلها عليه، ماذا تكون نهايتها؟ وعاصمة البلاد التي شوه جمالها، كيف يسكت على ما تعانيه؟ لا، لا.. ينبغي إبقاء هذه المنقذة.. لابد من إبقائها بأي ثمن.. بأي تضحية.. إن حياته لم تعد تساوي شيئاً.. إنه لا يستحق الحياة.. إن وجوده يجلب لشعبه من اللعنة أكثر مما يجلب الخير.. إن أي فرد سواه يمكن أن يكون ملكاً عليهم أفضل منه.. ثم إنه إذا افتدى وطنه بهذه التضحية وإن كانت تكلفه حياته، وعرف الشعب في الوقت المناسب ما صنعه لأجلهم، فقد يعفون عنه ويسامحونه.

الفهرس

